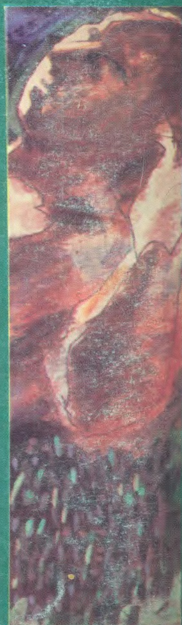
خيري شلبي

بطن البقرة

جغرواية





بطن البقرة

جغرواية

خيرى شلبى

بطـــن البقــرة

(جغروايـة)

دار ومطابع المستقبل
بالفجالة والاسكندرية

الطبعة الأولي ١٩٩٥

إهداء

إلي ابن عمي المرحوم الشيخ علي محمد عكاشه..

قلبت في مكتبته وأنا طفل في سنوات الدراسة الأولي، فوقع في يدى المجلد الأول من خطط المقريزى، فافتتنت به، كان بلا غلاف، وبلا عنوان، فاعطيته عنوانا من عندى إستقيته من موضوعه : تاريخ البيوت والشوارع، وأظن أن تلقائيه الشعور في ذلك العنوان لا تزال تحكم نظرتي لهذا العلم الفريد : علم الخطط، أى تاريخ المكان

« خ.ش.١٤ ياقوت»

فزلكة

ظلت مصر طوال تاريخها هي البقرة الحلوب، ليس فحسب بالنسبة للدول التي احتلتها، بل وبالنسبه للحكام الذين فرضوا سلطانهم عليها، وكلهم من سلالات أجنبية مستوطنة، من هكسوس وفرس ورومان ويونان وأتراك وعرب ومماليك وانجليز وفرنسين، قبل أن تقوم ثورة يوليو بتمصير الحكم في مصر، وبيت المتنبي الشهير : نامت نواطير مصر عن ثعالبها وقد بشمن وما تفني العناقيد، لا يزال يحتفظ بدلالته الواقعيه الصرفة.

ومنطقة وسط القاهرة، التي عرفت في العصورالحديثة باسم الأزبكية، كانت مستنقعا يسمي بركة بطن البقرة، ربما لأن شكلها كان قريب الشبه ببطن البقرة، وذلك قبل أن يأتي الأمير أزبك الخازندار فيحولها إلي بركة مبنية بنظام هندسى تحمل اسمه : الازبكية، وتصبح مزاراً سياحيا بديعا ، تحوطها القصوروالأرصفة والكرانيش والحدائق الغناء.

وقد فتن كاتب هذه السطور بمدينه القاهرة، مثلما وقع في غرامها كل من عاشرها واستوطنها سواء كان أجنبيا أو مصريا.

وغرامى بمدينه القاهرة فرض علي الابحار في تاريخها وفي جغرافيتها معا، منذ أقدم العصور حتي اليوم، وقد تمخضت هذه الرحلات العاشقة عن برنامج إذاعـي كبير قدمته في اذاعـة صوت العرب من أخراج وتمثيل الاذاعي الكبير محمد مرعي، بعـنوان: (سندباد وتابعه مايك)، ومن هذا البرنامج، الذي استمر أكثر من دورة إذاعية عـلي امـتداد ساعة كاملة كل أسبوع، نسوح خـلالها فـي أرض مـصر المحروسة نستطلع التاريخ مـن خـلال الجغرافيا والجغـرافيا مـن خلال التـاريخ.. نشـأت فـكرة روايتـي التاريخيـه الـشهيرة : (رحلات الطرشجي الحلوجى)، التي لقيت نجاحا لم يكن يخطر لي على بال، وأثبتت أن القارىء المصرى واسع الافق يستوعب كافة الاشكال الفنية المستحدثة مهما كانت معقدة أو مركبة، فالجدير بالذكر أن هذه الرواية كانت رحلة في الزمكان، أو بمعني أدق رحلة في أزمنة متعددة داخل المكان الواحد، وقد أدي إلى تداخل الأزمنة، وتعاشق الزمن الفني، فكان من الصعب أحيانا إدراك الفرق بين الزمنين الماضى والحاضر، سيما وأن التاريخ المصري مغرم بتكرار نفسه في كثير من المواقف والمواقع والأزمنة.

على أن رواية (رحلات الطرشجي الحلوجي) - وقد غلب عليها الفن الروائى الصرف - إن استطاعت أن تبرز جماليات المكان وانعكاساتها علي السكان والزائرين، وأهميته وخطورته بالنسبه للدول المجاورة.. لم تتمكن من إبراز حقائقه المعلوماتية المجردة.

إن عبقرية المكان في مصر تفرض علي الكاتب أن يكون محدداً تحديداً قاطعا في ذكر المعلومات والحقائق الجغرافية والتاريخية والإجتماعية، ولكن جماليات هذا المكان - الوجه الأخر لعبقريته - وحيويته الدافقة وأسطورية تاريخه الحافل المتخم بجلل الأحداث - قديمة ومعاصرة - كل ذلك يفرض علي الكاتب أن يكون روائيا بالضرورة، لما في هذا التاريخ وهذه الجغرافيا من طابع روائي صرف.

إن الجغرافيا هنا هي التي صنعت التاريخ، والكاتب حين يتتبع حقائق الجغرافيا يجد نفسه بالضرورة يكتب في التاريخ، ويجد نفسه في النهاية قد كتب ما يشبه الرواية.

وهذا العمل الذي بين أيدينا، هو مزيج من الجغرافيا والرواية، إنه روايه للجغرافيا، رواية مكان بعينه، لقد عنيت هنا بحقائق المكان وجمالياته من الناحية التاريخيه والاجتماعية معا، فكنت كمن يكتب في علم الخطط - وهو علم مصري عربي صرف وبما أنني روائى في الأساس، فقد فتنت بما في الجغرافيا والتاريخ من شخصيات وأحداث وأزمنة تزدهر أحيانا وتنطفى أحيانا أخري، قدر عنايتي بالحقائق

المجردة، فجاء هذا العمل الذي لا نجد أصدق من وصفه بالجغرواية.

وقد وجدت أن (بطن البقرة) هو العنوان الأمثل لهذا العمل الخططى الروائى، فلقد سميت به منطقة وسط القاهرة في العصور الوسطى.. سيما وأن هذا العمل يتناول قصة ثلاثة أحياء عريقة جداً، من أعرق أحياء وسط القاهرة تمثل شريحة جغرافية واحدة، حي قايتباى المعروف قديما بمقابر المجاورين وهو إقدم جبانه في القاهرة.. وحي الباطلية وهو أبرز أحياء الجمالية وأشهرها واشدها عراقة وحيوية وأثارة، ففيه يقع مبني الأزهر الشريف.. وحي الأزبكية وهو أشهرها جميعا وأحفلها بحقائق التاريخ والجغرافيا، لقد كانت الأزبكية هي هوليود الشرق فعلا، قبل أن تنشأ مدينه الفنون المسماة بهوليود بل قبل أن تعرف أمريكا نفسها علي الخريطة، هذه الأحياء الثلاث يربط بينها شارع واحد هو شارع الأزهر، فزائر الأزبكية يجد نفسه بعد خطوات في حي الباطلية، وبعد خطوات أخري قليلة في حي قايتباى صاعدا جبل الدراسة.

وحينما جربت هذا اللون من الكتابة في بعض الصحف العربية السيارة، أغراني دوي نجاحه وردود فعله الإيجابية بصياغته في عمل متكامل متعدد الحلقات في ثلاثيات جغرافية روائية معا، أضع بين يديك - عزيزى القارىء - الحلقة الأولي منها، مع وعد بلقاءات أخري - إن اعطانا الله عمرا وصحه - نلتقي فيها أعرق الأحياء القاهرية

وأغناها بالأحداث والتفاصيل الإنسانيه، مثل الفسطاط والقطائع والعسكر والجمالية والعطوف والموسكي، والعباسية ومصر العتيقة.

إن كنت قد وفقت فمن فضل الله، وفيما عدا ذلك ألتمس من القارىء العفو والعذر لقلة الوقت وتشتت المراجع ويكفيني شرف محاولة التذكير بضرورة إحياء هذا اللون من الكتابه العربية، أعني علم الخطط، وفنه ايضا، والله الموفق فيما يلى من جهود

خيري شلبى

صقر قريش - ٨ أغسطس ١٩٩٤

الحي الأول

بوابة الموت والحياه

إذا مشيت في شارع الأزهر حتي نهايته، صاعداً جبل الدراسة العتيد ذلك الذي دارت فوقه كل معارك الفتوات الطاحنة في روايات نجيب محفوظ في قاهرة العشرينيات والثلاثينيات والأربعينيات من هذا القرن، قبل أن تقهره البلدوزرات والوابورات فتحوله إلي شارع مرصوف بكافة أنواع المركبات وبالضجيج والصخب طوال اربع وعشرين ساعة.. فأنت واجد نفسك فجأة قد غطست في نفق خاطف قصير القامة يلفظك بعد خطوات قليلة إلي إتجاهين، فإما أن تحود يسارا فتمضى في شارع صلاح سالم، أو تواصل السير أماما في الطريق الممتد بين أبنية غريبة الشكل متداعية.

فإن مضيت في شارع صلاح سالم حتي كوبري الفردوس ودورت يسارا، فإنك بعد مسيرة تستغرق عشر دقائق عبر نفس الأبنية المتداعية الغريبة تصل إلي شارع الأوتوستراد الذي يخترق جبل المقطم قادما من

مطار القاهرة واصلا إلي مدينة حلوان، أما إن واصلت السير في شارع الأزهر في نفس الإمتداد فإنك بعد مسيرة تستغرق نفس الزمن تصل إلي شارع الأوتوستراد أيضا، عبر ممر ضيق يدعي بالسكة البيضاء، حيث تجد في مواجهتك، في حضن المقطم، المدينة الشعبية المنشأة حديثا - وبشكل عشوائى صرف - واسمها منشيه ناصر، التي تمتد في أحشاء المقطم إلي مسافات بعيدة جداً.

هذه الشريحة من الأبنية الغريبة المتداعية، المطلة علي شارع صلاح سالم عرفت منذ وقت بعيد، ربما إبان العصر الفاطمي، باسم مقابر المجاورين في قلبها حي سكني عتيق يعرف بحي قايتباى، نشم فيه نكهة القاهرة الفاطمية، والمملوكية، والعثمانية، في طراز البيوت، ولولبية الحارات، وضيق الشوارع، وشكل المقاهي، وأبواب الدكاكين الواطئة، ووجوه الناس، وايقاع الحياة الشديد البطء، ورائحة التاريخ المنبعثة من كل طوبة، ونسائم المقطم الطيبة العليلة، وطيبة قلب الناس رغم ما يظهر علي وجوههم من مسحة الشقاء والخبث والخربشة.

يأخذ الحي اسمه من جامع قايتباى، المرسوم علي الجنيه المصري، أعد في الأصل لسكني خدم المقابر : الخفراء، الطربية، الحانوتية، أصحاب القراشة. علي أنه بات مسكنا لفئات عديدة : عمال طباعة، حرايرية، صناع المشغولات الذهبية والفضية، الصباغون، البناءون.

قبل دخول جوهر الصقلى مصر علي رأس جيش المعز لدين الله

الفاطمي كانت منطقة الحسين والجمالية كلها عبارة عن غابة من أشجار الكافور يسميها المؤرخون بالبستان الكافوري، يمتد من صحراء المماليك، التي أقيمت فيها مدينه نصر، إلي حي العتبة الخضراء، التي كانت تسمى بأم دنين، وكانت عبارة عن منطقة زراعية خصيبة تستمد المياه من الخليج الناصري المتفرع من نهر النيل، الواصل الي البحر الأحمر والذى هو الأن شارع بورسعيد. وحينما دخل عمرو بن العاص بجيوشه أناخ في منطقة أم دنين هذه لتقسيم الغنائم، فسميت بالمقسم، ثم سميت بحديقة الأزبكية منذ أن قام الأمير ازبك ببناء مسجده، أما قصة حفر البركة وقيام حي الأزبكية فتلك قصة طويلة تحتاج لرواية مستقلة، كل ما يعنينا الآن هو أن جوهر الصقلى حينما افتتح مصر، ترك الفسطاط والقطائع والعسكر، واختط في منطقة البستان الكافوري هذه مسجدا هو الجامع الأزهر، وضاحية هي القاهرة، وأقام أمام الجامع الازهر قصر الخلافة الفاطمية، الذي كان يحتل كل مساحة المسجد الحسيني وحي خان الخليلى وحي العطوف، ورغم أن القصر كان يحتوي علي تربة خاصة بأهل القصر اسمها التربة المعزية، أو تربة الزعفران، حيث آتي المعز لدين الله معد بجثث أهله السابقين لدفنها في التربة المعزية التي كانت تحتل منطقة خان الخليلي ضمن نطاق القصر، فإن مقابر العامة من أهل القاهرة قد تمركزت في المنطقة التي يقع فيها الآن حي قايتباى.

القرافة الكبرى

وحي قايتباي من أعجب الأحياء في مصر، فقد اختلط فيه الأحياء بالأموات اختلاطا تاما، فأنت لا تستطيع التفرقة بين البيت السكني والمدفن، ذلك أن البيت هو المدفن، والمدفن هو البيت.

شوارع قروية النكهة والطابع، تحف بها علي الجانبين أبنية من طابق واحد، علي كثير من أناقة وفخامة بائدة، وعز باهت، بعضها مطلي بالألوان الحائلة وبعضها يكشف عري الطوب كخطوط متقاطعة، معظمهامبني بالأحجار المتسقة، وبعضها بالطوب الاحمر الحراري، بعضها متهدم أو متداع أو متهالك والبعض الأكبر متين راسخ كالطود..البوابات كلها من الحديد، والنوافذ مستطيلة بقضبان حديدية، ما بين ضجيج شارع الآزهر، وسكون الموت التام أقل من خطوتين فكأنك انتقلت فجأة من الحياة إلي الموت الفعلي، لكنها برهة وجيزة، كتلك التي تعتريك فجأة بعد سكون موتور الثلاجة، تبدأ بعدها حياة من نوع آخر، يغلفها جلال الموت يضمخها بالرهبة، فتستيقظ فيك الروح،

فتحس كأنك أخيرا قد عثرت علي نفسك وأنك أخيرا تستطيع التأمل والتفكير في هدوء وروية، يخيل إليك أن جميع الهموم قد انزاحت عن كاهلك أو خف حملها، ولربما رأيتها في ضوء جديد فإذا هي أقل من أن تكون هموما، وإذا أنت قد ملت إلي السخرية من نفسك ومن مشاغل الدنيا ومتاعبها، وإذا الدنيا نفسها قد بدت لك شيئا حقيرا تافها لا يستحق العناء، تحس أيضا أنك طوال عمرك المنصرم قد وقعت في شرك هذه الدنيا الزائفة فلم تفرغ لعمل مجيد يستحق البقاء.

ومن أول خطوة في امتداد نفق شارع الأزهر تشعر كأنك تخترق مدينه أسطورية من مدن ألف ليلة وليلة، قد سخطها سحر ساحر فتجمد كل شيء فيها، فثمة فراغات عريضة بين الأحواش تتربع فوقها صفوف من المقابر في العراء بمختلف الأحجام، تبدو حينا كقطيع من الأفيال، وحينا كقطيع من الأغنام تجمدت راقدةفي مكانها من قديم الأزل، باستثناء هذا الشارع المرصوف الذي يربط شارع الأزهر بطريق الأوتوستراد، وشارع السوق المؤدي الي ميدان مسجد قايتباى، فإنك لا تستطيع السير وحدك في حواريها المتعرجة اللولبية، دون دليل يرافقك، وحتي إن كنت ملماً بدروبها فلابد لك من رفيق يؤنس وحشتك، وإلا سقط قلبك في حفر كثيرة تكشف عن فوهات مفتوحة يفح منها الظلام والخوف والرطوبة، وثمة حجرات مغلقة غاصت أبوابها في الأرض منذ

عشرات السنين، وأخرى منزوعة الأبواب عن مصطبة هرمة، تلك مقابر انقرض أصحابها، فباتت ملكا للطربي، يبيعها للباحثين عن مقبرة بألوف الجنيهات، ولهذا قد أثري عدد كبير جدا من الطربية والمعلمين، فمنهم المليونير، والملياردير بدون أدني مبالغة، وسيارات المرسيدس الشبح، وال بي ام دبليو، والهوندا، تركن بجوار الأحواش تنتظر أصحابها لابسى الجلاليب والشباشب الزنوبة، الغرزجية الكحيانون لهم في هذه الدروب غرز خفية يدوخ البوليس في الوصول اليها، يلتقيك الصبيان علي ناصية الشارع، ليقتادك الواحد منهم في دروب يقشعر منها البدن حتي ليخيل إليك أنه سيدفنك فلا يسمع بك أحد، وأنك لن تستطيع العودة وحدك بأى حال من الأحوال، بعد أن يعتريك اليأس يدهمك ضوء مصباح غازي شاحب، فإذا بالصبي ينزل بك من دحديره غائرة في سابع أرض، فإذا بك بعد نزول طويل تراك في حجرة واسعة، فيها نصبه الشاى ومنقد النار والنارجيلات والجوز، ومقاعد من القش، يجلس فوقها ناس ذوو سحن غريبة، دماؤهم ممصوصة، لحاهم نابته مهوشة مغبرة، يقومون بسقيا ناس في منتهى الشياكة والأناقة والأبهة، بعد قليل يداخلك الإطمئنان، تألف المكان والجلاس، بائع الحشيش والأفيون جالس في نفس القعدة، بل أن معظم الحفر والأحواش المحيطة بك قد حولها بعض الطربية إلي مخازن لتجار المخدرات مقابل اجور باهظة.

في هذا الشارع الممتد من نفق شارع الازهر مشى الحاكم بأمر الله منذ قرون طويلة راكبا حماره يوم جمعه، قاصدا زيارة أمه التي كانت تتعبد في خلوة في مكان ما في، هذه المنطقة، لكنه لم يعد حتي هذه اللحظة. وإن كان حماره قد رجع وحده مطبق الفم علي سر اختفاء صاحبه الذي بقي لغزاً محيراً حتي الآن، ستبقي في ذهنك صورة ذلك الحدث التاريخي إذا كنت ملما بالتاريخ، فإن لم تكن ملما به فعشرات من صور الفزع تعتريك من حين لحين، خاصة أن الحشيش بارع في تجسيد صور الخوف، وبالأخص إذا كان التحشيش يتم في قبو تحت الأرض فوق أشباه لك تحولوا إلي تراب ناعم، وفى ضوء شموع خافتة، علي أنك لابد أن تحمل هم العودة وسط قطائع الأفيال والعاج المسخوطة يتقدمك صبى يحمل بطارية صغيرة كعين مؤرقة عمشاء تنفتح وتنغلق في سرعة خاطفة لأن البوليس الذي لم يهتد إلي قعدتك السرية الخفية قد يكمن لك وأنت خارج. المصيبة أن الصبي البارع في شم رائحة البوليس قد يختفي في الحال بمجرد استشعاره وجودهم كأن الأرض انشقت وابتلعته، فتبقي وحدك في متاهة ظلماء يعلم الله متي يطلع عليك النهار فيها إن كان يطلع من الأساس.

ورغم أنك ربما تكون خبيرا بالمنطقة كزبون دائم، فإن الفزع ملاقيك لا محالة ليس لإنك تمشى فوق الأموات بل لانك تمشى فوق الأحياء أيضا، ففي تسعين في المائه من هذه الأحواش المغلقة تسكن أسر بكاملها، وقد

ينفتح جحر فجأة ليخرج منه شبح أسود يتمطى ظله علي الأرض، أو تتعثر قدمك في طفل تقرفص بين مقبرتين يقضى حاجة، أو يتناهى إلى سمعك أنين خافت يعكس تألما أو لذة، فلا تعرف من أين يجيء.

هذه المقابر التي تحتوي حي قايتباى في جوفها، آخذه في الإضمحلال شيئا فشيئا، يزحف عليها الحي السكني ليحولها إلي بيوت صريحة مثلما حدث للحي السكني نفسه، إذ يقوم الطربي المسئول عن الحوش بالغاء المدفن، أو هدمه وإعادة بنائه علي شكل ڤيلا، أو عمارة عشر طوابق بشرفات، وقد يظهر أبناء أو أحفاد للموتي المدفونين تحت هذه العمائر يدفعهم الحنين لزيارة موتاهم في يوم عيد، فإذا هم بعد بحث طويل يكشفون ما حدث، فعليهم حينئذ أن يضربوا أدمغتهم في أقرب حائط، لأن أحداً لن يعيرهم التفاتا، ولان كل شيء في مصر الآن مباح طالما كنت ذا مال أو نفوذ أو قوة باطشة.

العامة يسمون هذه المقابر بمدافن المجاورين، ويسميها المقريزي بالقرافة الصغري، تمييزا لها عن القرافة الكبري التي كانت تجاور باب النصر، علي أن هذه القرافة الصغري هي الأن أضخم من المدينة نفسها، فهى تبدأ من مدينة نصر وتمتد حتى قلعة صلاح الدين، وتتفرع إلي حي البساتين وحي الأمام الشافعي، محتلة أعظم منطقة علي الإطلاق في الأرض المصرية ولا أحد يدري لماذا اقيمت المدن السكنيه القاهرية في أسخف مكان في السفح علي ضفتي الوادي المترب، في حين أقيمت

القرافة علي أجمل وأخطر بقعة في حضن المقطم.

ولكن أبن عبد الحكم في كتابه (فتوح مصر) ينقل عن الليث بن سعد أن عمرو بن العاص تلقي عرضا من المقوقس - الحاكم الروماني علي مصر في زمن الفتح العربي - أن يبيعه سفح المقطم بسبعين ألف دينار، فعجب عمرو من ذلك، وقال : أكتب في ذلك إلي أمير المؤمنين. فكتب بذلك لعمر بن الخطاب، فكتب اليه عمر : سله لم أعطاك به ما أعطاك وهي لا تزرع، ولا ينبسط بها ماء، ولا تنتفع بها ؟ فسأله، فقال المقوقس : إنا لنجد صفتها في الكتب أن فيها غراس الجنه فكتب بذلك إلي عمر، فكتب اليه عمر : إنا لا نعلم غراس الجنه إلا المؤمنين، فاقبر فيها من مات قبلك من المسلمين، ولا تبعه بشيء فكان أول من دفن فيها رجل من المغافر يقال له عامر، فقيل : عمرت فقال المقوقس لعمرو : ما ذلك، ولا علي هذا عاهدتنا، فقطع لهم الحد الذي بين المقبره وبينهم.

وقال القاضى أبو عبد الله محمد بن سلامه القضاعي : القرافه هم بنو عضن بن سيف ابن وائل من المغافر، وقال أبو عمر الكندي : بنو جحض بن سيف بن وائل بن الجيزي بن شراجيل بن المغافر بن يغفر، وقيل ان اسم قرافة اسم أم عزافر وجحض ابن سيف بن وائل بن الجيزي.

وقال ياقوت : والقرافة - بفتح القاف وراء مخففة وألف خفيفة وفاء - مقبرة بمصر مشهورة، مسماة بقبيلة من المغافر يقال لهم بنو قرافة.

ويبدو أن القرافة طول عمرها مكان أنس وطرب ولهو، إذ يقول

الشريف محمد بن أسعد الجواني في كتاب (النقط): وكان الناس يحبون هذا الموضع، ويلزمونه لأجل من يحضر من الرؤساء، وكانت الطفيلية يلزمون المبيت فيه ليالي الجمع، وكذلك أكثر المساجد التي بالقرافة والجبل والمشاهد، لأجل ما يحمل إليها، ويعمل فيها من الحلاوات واللحومات والأطعمة كما يقول موسي بن محمد بن سعيد في كتاب (المعرب من أخبار المغرب) : وبت ليالي كثيرة بقرافه الفسطاط، وهي في شرقيها، بها منازل الأعيان بالفسطاط والقاهرة، وقبور عليها مبان معتني بها، وفيها القبة العالية العظيمة المزخرفة، ولا تكاد تخلو من طرب، ولا سيما في الليالي المقمرة، وهي معظم مجتمعات أهل مصر وأشهر متنزهاتهم، وفيها أقول :

إن القرافة قد حوت ضدين مـــن
دنيا وأخـــري فهي نعـم المنـزل
يغشى الخليع بها السماع مواصلاً
ويطوف حــول قبـورها المتبتل
كـم ليلــة بتنابهـــا .. ونديمـــنا
لحن يكاد يــذوب منــه الجندل
والبدر قد ملأ البسيطـــة نـوره
فكأنما قـــد فاض مـــنه جدول
وبدا يضاهي أوجها حاكينـــــه
لما تكامـــل وجهـــه المتهلـل

ويضيف المقريزي في خططه : وفوق القرافة من شرقيها جبل المقطم، وليس له علو ولا عليه اخضرار، وإنما يقصد للبركة، والاجماع علي أنه ليس في الدنيا مقبرة أعجب منها، ولا أبهي ولا أعظم ولا أنظف من أبنيتها وقبابها وحجرها، ولا أعجب تربة منها كأنها الكافور والزعفران، مقدسة في جميع الكتب، وحين نشرف عليها تراها مدينة بيضاء، والمقطم عالي عليها كأنه حائط من ورائها وقال شافع بن علي :

تعجبت من أمر القرافة إذ غــدت
علي وحشة الموتي لها قلبنا يصبو
فألفيتــها مـأوي الأحبة كلهــم
ومواطن الأحباب يصبو لها القلب

وقال الاديب محمد بن أحمد العميدي الشهير بأبي سعيد :

إذا ماضاق صـدري لم أجد لــي
مقـــــر عبـادة إلا القـرافــه
لئن لم يرحم المــولي اجتــهادي
وقـــــلة ناصري لم ألق رافه.

وكان ما بين قبة الإمام الشافعي وباب القرافة ميدانا واحداً تتسابق فيه الأمراء والأجناد، ويجتمع الناس هنالك للتفرج علي السباق، فتصير الأمراء تسابق علي حدة، والأجناد تسابق في جهة وهم منفردون عن

الأمراء، والشرط في السباق من تربة الأمير بيدرا إلي باب القرافة، ثم استجد أمراء دولة الناصر محمد ابن قلاوون في هذه الجهة الترب فبني الأمير يلبغا التركماني، والأمير طقتمر الدمشقي، والامير قوصون وغيرهم من الأمراء، وتبعهم الجند وسائر الناس، فبنوا الترب والخوانك والأسواق والطواحين والحمامات، حتي صارت العمارة من بركة الحبش إلي باب القرافة، ومن حد مساكن مصر إلي الجبل، وانقسمت الطرق في القرافة، وتعددت بها الشوارع، ورغب كثير من الناس في سكناها، لعظم القصور التي أنشئت بها، وسميت بالترب، ولكثرة تعاهد اصحاب الترب لها ومبراتهم لأهل القرافة.

هذا ما ورد في التاريخ عن قرا فتي مصر، الكبري والصغري، التي كانت تمتد من باب النصر - بحذاء جبل المقطم - حتي تخوم الفسطاط القديمة، لكن التاريخ المعاصر شهد تحولات كبيرة فيها، ففي أوائل الثورة امتدت عصا عبد اللطيف البغدادي السحرية كما وصفها كتاب الثورة، فشقت قلب هذه القرافة لتصنع طريقا طويلا سمي بطريق صلاح سالم يمتد من مطار القاهرة الدولي إلي كورنيش النيل، فأصبحت المقابر علي ضفتيه تحتل أفخم وأبدع منطقة في مصر.

وقد أتيح لكاتب هذه السطور أن يشهد تحولا جديدا، فمنذ خمسة عشر عاما اكتشفت لي موطنا آمنا في هذه القرافة الكبرى، وعلي وجه التحديد في المنطقة المحيطة بحي قايتباى، حيث استأجرت حوشا قديما

علي شيء كثير من الفخامة، وجعلت من إحدى غرفه مكتبا، ومن إحدى المقاهى المجاورة مكانا للإستجمام واستقبال الأصدقاء فكنت ومازلت أقضي معظم النهار والليل ما بين المقهي والحوش، فقدر لي أن أشهد تجربة لا أنساها ماحييت؛ تلك هي عملية أنشاء طريق الأوتوستراد، وهو طريق مواز لصلاح سالم، يبدأ من نفس البداية لينتهي في حلوان من خلف القاهرة؛ فكانت البلدوزرات تشق قلب المقابر في قسوة جهنمية بشعة، بمحاريث تغوص في قلب التربة فترمي بعظام الموتي علي الجانبين؛ لكي يجيء وابور الزلط فيدوس الأرض يبططها ليعيدها؛ فإذا ما حطَّ الظلام علي المنطقة انبثقت من أكوام التراب بيارق ضوء خاطف، منبعثة من العظام البيضاء والجماجم المنزوعة اللحم عن أسنان كالجواهر؛ أذرع وسيقان وأكفان بعضها طري لم تنله يد البلي بعد. وكان المنظر مؤلما وسخيفا، وباعثا علي الحزن والكآبة، سيما وأن أصحاب هذه المقابر لم يعرفوا بعد أن لحومهم قد ديست بالأقدام. وكان لابد أن نفعل شيئا نريح به خواطرنا الغاضبة، فكونًا فريقا كنت علي رأسه، واشترينا مجموعة من الزكائب، وصرنا نمضي خلف البلدوزرات والوابورات نجمع الأشلاء نعبأها في الزكائب، وكان جسدي يقشعر وينتفض كلما أمسكت بجمجمة فإذا بجدائل شعر تنساب منها مدفونة في التراب وبقايا من جلدة الرأس تسقط بالجدائل. وحفرنا في بقاع كثيرة لندفن هده الزكائب؛ وقصيدة أبي العلاء المعري تطن في أذني كلما خطوت فوق التراب فأنتفض أكاد أمشي علي أطراف أصابعي.

بستان العلماء

مازلنا في الشارع الممتد من تحت نفق شارع الأزهر تحت جبل الدراسة، وهو الطريق المعروف بوصلة السكة البيضاء، كانت هذه المساحة حتي وقت قريب، منذ حوالي بضع مئات من السنين، بستانا بديعا، ليس له صلة قربي بالبستان الكافوري القديم الذي كان يحتل هذه المنطقة كلها من الجبل حتي تخوم العتبة، والذي استأصل شأفته جوهر الصقلي ليبني مكانه ضاحية القاهرة الفاطمية. إنما هذا البستان كان خاصا بالشيخ عبد الوهاب العفيفي، الذي اختار هذه البقعة من القرافة الكبري لتكون منتجعا له، يتعبد فيه ويتريض. .يحكي العجائز من سكان هذه المنطقة، خاصة أبو هاشم المبلط، المتخصص في بناء شيء واحد فقط هو السلم، ومشهود له بأنه أبرع بناء للسلم في مصر كلها رغم أنه شبه متعطل، إنه جماع خبرة لا يستهان بها في فن بناء السلم بجميع مستوياته، من الرخام أو الحجر أو الطوب أوالطين؛ ويقال إنه بيني السلم من الطين فيتحدي به الزمن والأثقال؛ وقد بلغ من العمر مائة

وعشرين عاما حتي كتابة هذه السطور، ولايزال قادرا علي الشغل، حاضر الذهن والبديهة، ساخن النكتة، يستطيع الدخول في قافية تنكيت مع مقهي بأكمله فيهزمه، وفيه طاقة مرح لامثيل لها، وطوله لايقل عن سبعة أمتار، لايمكنه الدخول من أي باب إلا محنيا ويجنبه، غليظ الصوت، يتشبث بنبرته حتي وهو في حالة الشغل، وهو نبوت يقل عن طوله قليلا. يقول ابو هاشم إنه في طفولته شاهد بقايا البستان الذي لم يكن له شبيها في مصر. من فرط الحماس يأخذك من يدك إلي الوسعاية التي يقام فيها مولد سيدي العفيفي، يخمش الأرض بطرف نبوته فيكشف عن جذع شجرة يابس متحجر؛ يقول لك إن هذه كانت شجرة خوخ، وأنها وأنها، وأنه وأنه؛ عشرات الذكريات قامت بينه وبين هذه الشجرة. يقول أيضا إن سيدي العفيفي قد غضب علي الذين تسببوا في تقطيع شجر هذا البستان، فتحققت كراماته في الحال؛ أحدهم هوت بلطته علي ساقيه فبترتها والثاني سقطت فوقه شجرة رمان فبقر الفرع كرشه ومات في الحال، والثالث أصابه شلل، والرابع غرق في النيل أثناء نقل الأشجار المقطوعة إلي بر الجيزة.

علي أن البستان تعرض للعدوان في مرة سابقة منذ ما يزيد علي مائتي عام قبل طفولة أبي هاشم، عقب موت الشيخ العفيفي بحوالي نصف قرن من الزمان؛ حينما إضطر إبراهيم باشا البطل لبناء مقبرة لزوجته وجواريه، فأقام هذا الحوش الكبير المطل علي هذه الوسعايه،

وبداخل الحوش حجرة مستقلة للخوتد الكبيرة زوجته الأولي، وحجرة لاثنين من وصيفاتها المقربات، وحجرة لكبير حاشيته؛ وفي وسط الحوش ابتني مجموعة فسقيات تحت الأرض، بشواهد أنيقة لمجموعة من الخصيان الذين كان يعتز بهم.

بعد ذلك بقليل اقتطعت الأسرة الخديوية مساحة كبيرة من البستان كانت في حضن المقطم مباشرة، فحولّت عليها، وأقامت بداخلها مقبرة للأسرة، عبارة عن قصر فخم يضم حجرة الدفن وحجرة للإستراحة ودورة مياه. وحينما أنشيء خط القطار الحربي في قلب الجبل أنشئت محطة خاصة بهذه المقبرة.

مقبرة الأسرة الخديوية من الداخل تحفة حقيقية، حافلة بالكنوز الأثرية الثمينة، فشواهد المقابر كلها من المرمر والرخام، ومجوفة من الداخل، مفتوحة علي مرآة يري الناظر من خلالها بعض تفاصيل الفسقية التحتية بألوانها الزاهية الرصينة.وأرض الحجرة ـ التي تضم حوالي أربع مقابر ـ مفروشة، فوق الرخام، بأجود أنواع السجاد الشيرازي المعتبر؛ ثمة، في الممرات، أنيات من المرمرالحر، وفازات من الفضة والذهب. الأهم من كل ذلك طاقم الجلوس المفروش فيها، هو الصالون الذي أعده الخديوي أسماعيل لاستقبال الإمبراطوره أوجيني أثناء زيارتها لمصر في حفل افتتاح دار الأوبرا؛ وتبدو المقاعد والكنب محتفظة بألوانها ومتانتها كأنها خارجة لتوها من المصنع. والمعروف أن

المحمل كان يخرج كل عام من مصر في موسم الحج لزيارة قبر الرسول، حاملا الكسوة الشريفة للكعبة، مع التبرعات والهبات السنوية من أوقاف مجعولة في مصر لهذا الغرض لاتزال تسمي باسم مكة حتي الآن. فكان المحمل يضع الكسوة الجديدة علي الكعبة ويأتي بالكسوة القديمة ليضعها ها هنا. وفي هذه المقابر دُفن عدد كبير من كبار رجال ونساء العائلة الخديوي.

ومن القصص المتداولة علي مقاهي حي قايتباي، قصة الرخامة النادرة ذات المرآة العجيبة، التي كانت راكبة في واحدة من مقابر هذه الحجرة، فلما مات الرئيس جمال عبد الناصر أراد البناء الذي ابتني له المقبرة أن يبالغ في إكرام جثمانه، فقفزت إلي ذهنه هذه الرخامة، فاستصدر أمرا بخلعها، وتم له ما أراد، لكنه مع الأسف عجزعن تركيبها في المقبرة الجديدة لأن تركيبها يحتاج لنفس الخبير الإستامبولي الذي قام بوضعها وتركيبها. وأسقط في يد الجميع، فأتوا إلي حي قايتباي يبحثون عمن يستطيع تركيب هذه الرخامة، فلم يجدوا خبراء، بل وجدوا عمالاً وطربية فحسب؛ لكن الحاج عبده الفار، الطربي المعروف، كان ـ بالفهلوة المصرية الشهيرة ـ يعرف سر تركيبها بحيث لاتنطفيء المرآة التي بداخل الرخام وإلا كشفت عن ظلام في ظلام. فقال لهم : خلوني، فأخذوه في إستخفاف، لكنه استطاع بعون الله تركيبها في عدلة مواجهة للشمس، صحيح أنها لم تجيء كما كانت في مقرها

الأصلي، لكنها علي كل حال أضاءت والسلام.

البستان المأسوف علي مجده كان يحيط بخلوة الشيخ عبد الوهاب العفيفي، وكان معروفا باسم : بستان العلماء؛ ذلك أنه كان مزاراً لجهابذه علماء مصر وفقهائها، يركبون إليه عصر كل يوم، ليجتمعوا في خلوة الشيخ العفيفي، فتبدأ المناقشات المستفيضة في أمور الفقه والفلسفة والتصوف وعلوم القرآن والحديث النبوي الشريف. فالشيخ عبد الوهاب العفيفي - كما يجرفه يوسف بن اسماعيل النبهاني في كتابه : [جامع كرامات الأولياء] :، هو شافعي، وأحد أئمة الصوفية وأكابر الأولياء وأعيان العلماء الأصفياء. أخذ العلم عن الشيخ أحمد ابن مصطفي الإسكندري الشهير بالصباغ، وسالم بن أحمد النفراوي. وأخذ الطريق الشاذلية عن سيدي محمد التهامي. وكراماته كثيرة، منها أن العلامة عيسي البراوي رآه في عرفات حين حج مع أنه لم يخرج من مصر.

وقد توفي الشيخ العفيفي سنة ١١٧٢هـ، ودفن في ضريح في نفس الخلوة التي بالبستان، وأقيم بجوار الضريح مسجد بديع محندق؛ والمرجح أن هذا المسجد كان موجودا قبل موته بأعوام كثيرة، لأن بنيانه يبدو أقدم من بنيان الضريح. والمقبرة محاطة بمقصورة من خشب الصندل مشغولة بالحفر الدقيق ومدهونة بالأحمر الغامق الرصين. وفي الأرض سجاجيد من بقايا عصره الزاهر. وقد أحيط الضريح والمسجد بمجموعة من الأحواش تشبه طراز دور الميسورين في القري، يبدو أنها كانت

لعائلات قديمة انقرضت سلالتها، فآلت ملكية الأحواش للخفراء والطربية فحولوها إلي مساكن، كل حوش يأوي مجموعة أسر، لهم أبناء سافروا إلي العراق وعادوا بأموال إشتروا بها سيارات نقل سيزوكي، وتاكسيات، تراها راكنة بجوار الضريح في الوسعاية الممتدة أمام باب الضريح الذي هو نفسه باب المسجد، حيث يمكن الدخول من البوابة المطلة علي الوسعاية، والمرور في ممر ضيق، فتكون حجرة الضريح علي اليسار، وبعد خطوات يكون إيوان المسجد علي اليمين، وهو بهو كبير مفروش بالسجاجيد العتيقة والحصائر، ويستطيع المصلون الخروج من باب آخر مواجه للباب الأول لكنه يطل علي وسعاية خلفية. للمسجد منبر من نفس الخشب المصنوعة منه مقصورة الضريح. يؤم المسجد كثير من المصلين خاصة يوم الجمعة؛ نسبة كبيرة منهم من الغرباء من مريدي الشيخ وعارفيه.

وللشيخ العفيفي أحفاد يحملون اسمه وشكله وطيبة عنصره، نسبة كبيرة منهم تعيش في بيت الأسرة الكبير في الجمالية قرب المسجد الأنور، ونسبة قليلة تقيم في مبني الضريح نفسه، في طابق علوي، للسهر علي الضريح وحراسة محتوياته الأثرية. ثلاث من الأحفاد يعنون باقامة المولد السنوي في سبتمبر من كل عام، حيث تتجمع الفرق الصوفية من جميع أنحاء البلاد في هذه الوسعاية، فتقام حلقات الذكر طوال أسبوع كامل، وتذبح الذبائح الكثيرة ليتعشي رهط كبير من الفقراء والغرباء.

ولكاتب هذه السطور علاقات حميمة بأبناء هذه الأسرة. فالجدير بالذكرها هنا - هذا شيء جدير بالإنتباه - أنني انجذبت إلي أصغرهم « حسن» الذي يعمل سائقا لعربة أجرة؛ وهو شاب في حوالي الثلاثين من عمره، أبيض الوجه صافي البشرة طويل القامة؛ في صفحة وجهه شيء غير عادي جذبني إليه أول مارأيته، فصرت أتأمل في وجهه كلما جلس أمامي علي المقهي، فأري الصلاح والملائكية كشعاح ضوء منبعث من جوفه. في سلوكه نبل وهدوء وأدب جم. في البداية تصورته شاعرا رومانسيا؛ فلما فوجئت بأنه سائق سيارة تعجبت لأن فئة السائقين الآن هم أحط الفئات وأسوأها خلقا في مصر. ولكن عجبي زال حينما علمت أنه - لهذا السبب - يقضي معظم وقته متعطلا لأن أخلاقه الفطرية لاتتناسب مع متطلبات المهنة. علي أن المفاجأة الكبري هي اكتشافي أنه أصغر حفيد للشيخ العفيفي، فكان هو الدليل العصري الماثل علي صلاح جده، بقدر ماتمثلت روح جده فيه. وهذا بالفعل مصداق للمثل الشعبي القائل : العرق يمد لسابع جد.

المنوفي : الوسيلة والمدد

قلنا إن الداخل من باب مسجد العفيفي المطل علي وسعاية المولد يستطيع الخروج من الباب المقابل، المطل علي وسعاية خلفية، يحدها سور دائري مواجه للمسجد، وله باب حديدي يظل مفتوحا طول النهار؛ تمر عليه فيخيل إليك أنه باب دوار، تصدك هيبته عن اقتحامه؛ لكنك تتشجع علي اقتحامه حين تري الكثيرين جدا قد أتوا من الحارات الجانبية الضيقة التي لاتكاد تُلحظ، فيقصدون هذه البوابة فيدخلونها وعلي سيماهم شيء من الراحة النفسية كأنهم قد عادوا إلي مساكنهم. إدخل أنت الآخر، وحينئذ تفاجأ بمدينة صغيرة محندقة يحوطها هذا السور الخارجي العملاق : مجموعة من الأبنية الفخيمة العتيقة الطراز بأبواب مغلقة تسبح في صمت وسكون شديدين. تتخلل الأبنية أرهاط من الشواهد كالمصاطب العالية المبنية بالأسمنت. ورغم أن الأرض رملية متربة فإن الأبنية كلها علي درجة كبيرة من النظافة كأن هناك من يسهر علي تنظيفها كل دقيقة مع أنه لا أحد يفعل ذلك علي الإطلاق.

لقد مررت بين مقابر المنطقة عشرات الألوف من المرات، في جميع أوقات النهار والليل، وحدي وبرفقة آخرين؛ واكتسبت جرأة وجسارة، وقامت الألفة الشديدة بيني وبين كل الأماكن الخفية في هذه المنطقة. إلا هذه المدينة الصغيرة المحاطة بسور عملاق ذي بوابة حديدية. دخلتها مئات المرات، وفي كل مرة أري قلبي يدق من رهبة وتكاد كل شعرة في جسدي تقف. لهذه الرهبة نكهات مختلفة جربت كل أنواعها في كل طرقات هذه المقابر. فثمة أماكن ما أكاد أقترب منها حتي أشعر كأن فروة رأسي ترتفع كلها وتكاد تطير في الهواء تاركة رأسي بغير سقف، فإذا بي أرتد في الحال عائدا من حيث أتيت، وثمة أماكن أشعر أمامها بقليل من انتفاضه مفاجئة، وتتملكني الرعشة لكنني أظل أواصل السير حتي نهاية الطريق فإذا الرعب يتلاشى كلما أمعنت في البعد عن المكان، وثمة أماكن أشعر إزاءها كأن أشباحا خفية تخرج من الشقوق فتعترض طريقى وأشعر في كل خطوة كأنني اجتزت كمينا سريا، وثمة أماكن أعبرها بسرعة كأن ريحا عاتية دفعتني بقوة لكنني أظل طول الطريق شاعراً بأن هناك من يمشى خلفي وعلي وشك أن يطبق علي كتفى بقبضة حديدية. أما هذه المدينة الصغيرة المحندقة فإن رهبتها من نوع حميم، رهبه حبيبه، تشبه رهبة أماكن العلم ومجالس الآباء، رهبة يشعر الإنسان بلذة في أن يحتملها ويألفها ويكون جزءا منها.

تتصاعد من المكان نكهة تاريخية جذابة بالفعل، وهذا ما يحدو إلي الإعتقاد بأن أرواح الموتي تطبع مسكنها بطابعها، فلا تفسير عندي لهذا سوى أن ثمة أرواح شريرة تسكن في حيث ترقد جثث أصحابها، الدليل علي ذلك أنني ما شعرت براحة نفسية ورغبة في الجلوس أمام مقبرة من المقابر إلا وعلمت أن ساكنها كان رجلا طيب القلب مضيافًا كريما، وما من مرة شعرت بالرعدة تعترينى في الطريق فجأة إلا ونبهني مرافقى إلي أن هذه المقبرة مدفون فيها قاطع طريق شرير !!

المرجع عندى الآن أن الشيخ العفيفي لم يختر خلوته في هذا المكان عبثا، إنما قد جذبه - كما يقال - أريج شيخ سبقه بنحو نيف وأربعمائه عام هو الشيخ عبد الله المنوفى.

لم ار المنوفي شخصيا بطبيعة الحال ولكنني من منظر ضريحة أكاد أتصور شكله، صدقوني أن صورته ماثلة في الهيكل العام لضريحه، وهو عبارة عن حجرة مغلقة لكن شباكها ذو الشبكة الحديدية يكشف عن مرقد الشيخ داخل مقصورة خشبية مغطاة بالقطيفة الخضراء، دائما ابدا تري الضوء في الحجرة لا تعرف من أين أتاها حتي في اللحظات التي ينصرف فيها ضوء النهار تبدو الحجرة كأن شعاعا من الشمس يكمن فيها لا يغادرها، دائما أبدا هناك شموع مضاءة في الليل مرتصة في أرضية الشباك وللضريح قبة علي شيء من الفخامة قيل إن السلطان قايتباى هو الذي جددها في آواخر آيامه قبل رحيله بوقت قليل.

وعلي كثرة أضرحة الأولياء في جميع أنحاء مصر والقاهرة فإن شهرة المنوفي قد فاقت كل حد، فليس ثمة شخص في المنطقة لا يتكلم عنه بحميمية كأنه شقيقه من لحمه ودمه، وليس ثمة من شخص في المنطقة لم يحتك به المنوفي احتكاكا مباشرا، إما طلع له في الطريق ليؤدبه، وإما اعترضه في فصل فاضح، وإمازاره في المنام ينبهه إلي شيء مهم

فايد البقري البائع السريح، الذي كان يبيع الحشيش بالقطاعي للشاربين في غرز حي قايتباي، كان قبل عشر سنوات عملاقا يفلق الحجر، لكنه ذات ليلة حضر أحد الأفراح في المنطقة، فسكر وحشش حتي انتشى، وأوقع في حبائله باحدي راقصات الفرح، ورغم أن شغلته إلي جوار الحشيش هي بيع الفانلات والجوارب والمناديل بسرح بها في الطرقات، إلا أن شغلته الأصليه هي الطربي، التي يتوارثونها أبا عن جد، وقد ورث فايد البقري عن أبيه مهمة الاشراف علي مجموعة أحواش متاخمة لضريح المنوفي، يسترزق من ورائها، فمهمته حراسة هذه الأحواش والجثث المدفونة فيها، في جيبه كل مفاتيحها، إذ كان أبوه في الزمن الماضى معلما كبيرا له حجرة مكتب في قلب القرافة فيه جهاز التليفون يتصل به أهل الميت لكي يستعد لاستقبال الوافد الطاريء، ففى الحال يكلف صبيانه بفحت المقبرة وتهيأتها، وإحضار الزهور اللازمة، وكنس الحوش والأرض التي أمامه، ورص الكراسى أو فرش الحصائر حسب مستوي الميت، فاذا كان الميت من أسرة ميسورة

فإن الأسرة تقاول المعلم علي إعادة بناء المقبرة، أو علي الأقل ترميمها، أو شراء قطعة أرض مجاورة لبناء طربة جديدة فوقها، ويقوم هو نيابة عنهم باستصدار الرخصة، وتصريح الدفن، وكل مهمات الدفن، واستدعاء فقيه مؤقت يودع الميت ببعض الآيات المناسبة وتظل هذه هي مهمته طوال العمر، عليه أن يكون جاهزا في أيام الخميس والجمعة، وتعلن حالة الطوارىء وفي أيام الأعياد، فبعض الأسر يحلو لها المجىء بكاملها لتمكث في الحوش طوال أيام العيد، تستقبل مقرئى القرآن الذين يسرحون بين المقابر فيجلس الواحد بدون دعوة ويشرع في الحال في القراءة، ويأخذ النفحة من القرص والقراقيش والفطائر وربما القروش والشلنات والبرايز وأرباع الجنيهات، إلي المقرئين هناك طائفة من السريحة لاعمل لهم سوي المرور لالتقاط الرحمة بأى نفحة، تنتعش الحياة في حي قايتباى انتعاشا لا مثيل له، منذ شروق شمس يوم العيد ينزل علي المقاهى سمت حميم صبوح رطيب ودافىء معا، طوائف وأرهاط من البشر من مختلف الأشكال والألوان والمستويات، كرنفال من الملابس : جلاليب وفساتين وبذلات وجبب وقفاطين وعمائم وطرابيش وطواقي، قفف وحقائب وأخراج وزنابيل، وحمير وبغال، عربات كارو وسيارات مرسيدس، زمامير وشخاليل وطبول محندقة في أيدي الأطفال، الهريسة والترمس والفول المقلى والحلبة فوق عربات يد يدفعها الباعة، حتي لتصبح المقابر هي الدليل الحقيقى الملموس علي أن اليوم عيد.

مات المعلم، وأهمل فايد البقري فى أصول الصنعه فانسحب منه جهاز التليفون، واستولي المعلمون الأخرون علي نسبه كبيرة من الأحواش التي كانت تحت مسئولية أبيه، لم يبق في حوزته سوى القليل جدا ، من الزبائن الكحيانين أمثاله، الذين كف معظمهم عن زيارة موتاهم إلا لدفن جديد.

في ليلة الفرح تلك، وفي الهزيع الأخير من الليل، وفي كامل النشوة والفتوة والفنذرة، إصطحب فايد البقري الراقصة وقد أخذ يفكر في مكان آمن يقضي فيه وطره، فهداه تفكيره إلي حوش مناسب من الأحواش التي في حوزته، فاتجه من فوره إليه، في هدوء شديد فتحه، دخل والراقصة، علي ضوء عود الكبريت عرف مكان الشموع فأشعلها، وفرش بعض الحصائر فوق مصطبة رفيعة معدة للجلوس، وجلس بجوار الراقصة يبرم لها سيجارة محشوة بالحشيش، كان الوقت صيفا وحر أغسطس يبعث في الجو رطوبة خانقة، خاصة أن الحوش محكم الإغلاق وبغير نوافذ، فلما انتهى فايد من تدخين السيجارة بأنفاس مشتركة، وانتهي من خلع الثيابين، وشرع يطلع العلواية المأمولة، ما دري إلا والدنيا ترعد رعداً مدويا كالقنابل فوق رأسه مباشرة، وما لبث صوت المطر الغزير أن انهمر كالسيل يقرع ألواح السقف الخشبية، كان صوتها يشتد عنفه حتي كأن هناك من يحاول خلع السقف أو سحب الجدران من تحته، واستغربت الراقصة من هطول المطر وقيام الرعد والبرق علي غير

أوان، فتذكر فايد أن الوقت صيف، فلف الثوب حول جسمه وفتح الباب ونظر في الخلاء فم يجد بحرا من مياه المطر كما توقع، بل لم يجد مطرا علي الإطلاق، فاستمر واقفا لبرهة طويلة فلم يجد أى شيء غير طبيعى، فدخل، واستأنف عملية الطلوع المأمولة، فإذا بالمعزوفة نفسها تعود من جديد أكثر عنفا كأنما الأرض قد زلزلت. وقالت الراقصة : لابد أن هناك ناس يدقون بأرجلهم فوق خشب السقف، فتركها فايد وخرج إلي الحوش، ثم صعد علي سلم نقّالي، فلم يجد علي السقف ثمة من أحد فنزل، وجلس يستدر الاطمئنان بلف سيجارة جديدة، وما أن أنتهي منها حتي شرع في الطلوع، الا أن معزوفة الرعب كانت أسرع منه، فصار يسمع صوت أشياء ثقيلة كأحجار الهرم الأكبر تقع علي مقربة منه، فينتفض جالسا ليرى، فتطفىء الشموع كلها دفعة واحدة، كأنما بفعل فاعل، فيعيد إشعالها، فتنطفى، لحظتذاك فحسب تذكر أن جداُرا رقيقا يفصل بينه وبين ضريح سيدى عبد الله المنوفي، فانزلقت أنفاسه كلها في زفرة واحدة وهو يردد لنفسه : عملتها يا منوفي ؟؟ لكنه لم يستطع نطقها، لأن لسانه قد إنحاش، والشلل قد أمسك بجميع أطرافه، فوقف ينتفض صارخا، يريد أن يحرك أى عضو من أعضائه فلا يفلح، يريد أن ينطق فلا يجد لسانه، فصار ينتفض في الظلام صارخا، والراقصة في موقف أليم، تبحث عن ثيابها في الظلام بشق النفس وكلما أمسكت بقطعة منها شعرت كأن يداً تجذبها منها بقوة،

فتقع من يديها، فتتحسس المكان بحثا عنها، إلي ان تجمع المتأهبون لصلاة الفجر في مسجد العفيفى، فاقتحموا الحوش، هالهم ما رأوه، لكنهم ستروا الراقصة وسربوها بسرعة، وحملوا فايد إلي المستشفي، فمكث بها أشهرا طوالا دون أن يسترد عافيته، كل ما ناله من شفاء أن تمكن من تحريك يديه وقدميه بصعوبه فبقي حتي هذه اللحظة يظلع في مشيته كطفل يتعلم المشى، أما لسانه فقد انخرس، لا يستطيع إكمال لفظ واحد، بل ينطقه حرفا حرفا علي مدي عشر دقائق علي الأقل، ومع ذلك لا تفهم ما قال.

ذلك مجرد مثل علي نوع العلاقات بين المنوفي وجيرانه، لا غرو فالشيخ عبد الله المنوفي ليس هينا، فالبنهاني يعرفه بأنه الشيخ العارف الكبير والإمام الشهير شيخ خليل صاحب مختصر الفقه في مذهب مالك، وكان أصل الشيخ عبد الله من المغرب، قدم أبواه إلي مصر فولد في البحيرة - يقصد محافظة البحيرة - ورحل إلي منف - لعله يقصد بلدة منوف التابعة لمحافظة المنوفية - ولزم العارف الشيخ سليمان المغربي الشاذلي، فرباه وأدبه وظهرت له منه مخايل الولاية من صغره، ولما حضر الشيخ كان ولده غائبا فحضر فقال له : الذي كان في الجراب أخذه عبد الله، وكان الشيخ عبد الله المنوفي يقول : استاذنت المصطفى صلي الله عليه وسلم في الإنقطاع عن الناس فلم يأذن، وكان يدرس العلوم ويقرأ الكتب الصعبة بلا مطالعة، وإذا ادرس يخرج من فمه نور وإذا حسر عن ساعديه يظهر عليهما النور.

وكان بعض مريديه - يقول النبهاني - ذا صورة جميلة فعشقته امرأة فخدعته حتي دخل بيتها وطلبت منه مواقعتها، فهم بها فانشق الحائط وخرج منه الشيخ فغشى عليه وتركها، وحكي الشيخ خليل عن أستاذه المنوفي فقال : كنت في صغري قرأت سيرة البطال، وأخذت في غيرها من الحكايات ولم يعلم بذلك، فدخلت عليه فقال : يا خليل من أعظم الآفات السهر في الخرافات، وأرسل إليه الأمير شيخو يستأذنه في الإجتماع فقال لقاصده : قل له ما يحتاج ؟ التولية حصلت فوقعت، وبات بعض جماعته بغير عشاء لفقد ما يأكله، فجاء وطرق عليه الباب وناوله كفايته، وحمل له التراسون قمحا فسرقوا منه فقال : هاتوا ما أخذتم فانه قمح الفقراء، فأنكروا فماتت حميرهم كلها في يوم واحد، فردوا ما سرقوه، وقدم عليه إنسان بزبيب وفي داخله قراقيش ورغيف ولم يعلم بذلك أحد، فبمجرد رؤيته قال له : كل القراقيش وتصدق بالرغيف، وجاء يوما إلي دكان فاشتري منه خروفا مشويا وخرج به إلي الكيمان فأطعمه للكلاب، فظهر بعد ذلك أنه كان ميته، وبلغ بعض مريديه أن أمه ماتت، فتأهب للسفر لها وجاءه يودعه فقال : اجلس أمك ما ماتت، فكان كذلك، وكان يخرج الفضة والذهب من طيات عمامته من غير أن يضع فيها شيئا، وإذا جلس علي فروة أخرج ذلك من تحتها من غير أن يكون تحتها شيء، ويخرج من بيت الخلاء وأصابعه تقطر ماء وبينهما الفضة فيعطيها لأول من لقيه، ويجلس بجنب طاقة في

حائط بيته، فيخرج منها ما يعجز الملوك عنه من النفقه، والأرض كانت تطوى له حتي صلى مرة الظهر بأسكندرية والعصر بمنف. ومات والد الشيخ سليمان شيخه بمنف وهو بمصر، فذهب إليه من مصر إلي منف فصلى عليه وعاد في يومه، وفاحت منه حين طلوع روحه رائحة طيبة كالمسك، مات سنه ٧٤٩ هـ، وقد أفرد له الشيخ خليل تلميذه ترجمته بمؤلف حافل ذكر فيه إنه أخبره غير واحد أنه جرب زيارة قبره لقضاء الحوائج، قال البرهان المتولي : إذا كان لكم حاجة إلي الله فتوسلوا بالمنوفي، فإن لم تقض فبشرف الدين الكردي بالحسينيه، فإن لم تقض فبالشافعي، فإن لم تقض فبنفيسه، ودفن الشيخ المنوفي بقرب الجبل خارج الصحراء.

هذا ما ذكره النبهاني، أما ما يقوله أهل حي قايتباى عن شيخهم فلا يصدقه عقل وان دلت عليه الشواهد الواقعيه الغريبة.

السلطان

لنا أن نخرج من نفس البوابة التي دخلنا منها إلي مدينة المتوفي، أو من بوابه أخري مطلة علي شارع خلفي مواز للأوتوستراد، فإذا خرجنا من هذه البوابة الخلفية رأينا ساحة كبيرة ممتدة أمام المقبرة الخديوية يستخدمها أبناء حي قايتباى في إقامة ما تشاء كرة القدم التي يغرمون بها جميعا، حيث تقام عصر كل يوم مباراة الكرة الشراب بين فريقين من ابناء الحي من أعمار متفاوتة، فلا عجب أن خرج من هذا الحي مجموعة من ألمع نجوم لعبة كرة القدم، مثل حمدي نوح نجم نادي المقاولين العرب ونادي الاسماعيلى، واللاعب نصر ابراهيم نجم نادي الزمالك، واللاعب جمال عبد العظيم نجم النادي الأهلي، واللآعب ابراهيم عزيز نجم نادي البلاستيك، فإذا تركنا هذه الساحة قليلاً في اتجاه مدينه نصر كان علي يميننا مستشفى المقاولين وناديهم، ثم نادي السكة الحديد والمنصه الشهيرة التي قتل أمامها أنور السادات

لكننا نفضل الخروج من البوابه التي دخلنا منها، لنمضي في درب ضيق جدا بضع خطوات، لنصير في ميدان قايتباى، الذي يسميه أهل الحي بالسوق، حيث يقف في شموخ عات رهيب مسجد قايتباي، أفخم تحفه معماريه في مساجد العالم الإسلامي حتي الآن، والذي تري صورته واجهته - مع الأسف الشديد - علي الجنيه المصري.

فمن هو قايتباى ؟ ذلك المملوك التركماني الذى كان سلطانا علي مصر ؟ وكيف وصل إلي السلطنة ؟ وما قصة مسجده هذا ؟

إنه كما يعرفه أبن تغري بردي - الملك الأشرف قايتباى المحمودي، وهو السلطان الحادي والأربعون من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية، والخامس عشر من الجراكسة وأولادهم. وأمر سلطنته وكيفيتها أنه چاركسي الجنس، جلب من بلاده إلي الديار المصرية في حدود سنه تسع وثلاثين وثمانمائه، فاشتراه الملك الأشرف برسباى، ولم يجر عليه عتقا، وجعله بطبقه الطازيه من أطباق قلعة الجبل إلي أن ملكه الملك الظاهر، وأعتقه وجعله خاصكيا، ثم دواداراً صغيرا، ثم امتحن بعد خلع ابن استاده الملك المنصور عثمان، ثم تراجع أمره عند الملك الأشرف إينال، وصار دواداراً صغيرا كما كان أولا، ثم أمره إمرة عشرة، فدام علي ذلك إلي أن أنعم عليه الملك الظاهر خشقدم بإمرة طبلخاناه، وجعله شاد الشراب خاناه بعد جانيبك الأشرفي المشد ، فدام في المشديه إياما كثيرة، وتوجه إلي تقليد نائب حلب، ثم بعد عوده بمدة أنعم عليه بإمره

مائه وتقدمه ألف بالديار المصرية، فأستمر علي ذلك إلي أن جعله الملك الظاهر يلباى رأس نوبه النوب بعد خروج الأمير ازبك الظاهري إلي نيابه الشام، وأنعم عليه بإقطاعه أيضا، ونقله الملك الظاهر تمربغا إلي الأتابكية عوضا عن نفسه لماتسلطن. ويبالغ ابن تغري بردي في وصف عظمة الملك الظاهر تمربغا وتواضعه الجم، وحبه للفنون والشعر، وتقديره للعلماء والفقراء، حيث كان يقف في استقبال أي من هؤلاء، ولايكف عن اقامة المحاضرات والندوات ليتدارس الفقه والشريعة والأدب. كما كان خبيرا بصناعة القوس والنشاب والسيف يصنع كل ذلك بيديه ويبرع في إستخدامها. وكان لذلك محبوبا من الجميع. ولم يكن في سيرته الملكية أية نقطة سوداء، ولكن خواطر الناس تغيرت عليه بسبب قرار تافه جدا في رأي المؤرخ. ذلك أن السلطان السابق عليه، الملك الظاهر يلباي قد منع النفقة عن أولاد الناس. وأولاد الناس هؤلاء، هم أبناء المماليك السلطانية اللذين كانوا في دست الحكم ذات يوم ثم أبعدوا أومات عائلهم، فكان علي الدولة أن تلتزم بالاتفاق عليهم. فلما تسلطن تمر بغا، أمر بإعادة هذه النفقة إلا أنه استجاب لوساطة العدو، فعاد ومنعها، فتغيرت ضده الخواطر، وكثر الدعاء عليه،والدس له، والتشنيع، والفتن وكان الملك تمر بغا قد خلع علي الأتابك قايتباي خلعة ناظر البيما رستان المنصوري، وعلي خايربك الدوادار الكبير خلعة الانظار أيضا، ومعني ذلك أن كليهما يبقي في الإنتظار الي أن يخلو

الإنتظار الي أن يخلو هذا المنصب من شاغله الحالي فيتولاه، وسواء تولاه حالا أو بعد حين فإنه يتمتع بكل مميزات المركز الذي رقي إليه. وفي هذه الايام قويت الاشاعه بأن الامير خير بك يريد القبض عل السلطان وعلي الاتابك قايتباي المحمودي إذا طلع الي القلعة في ليالي الموكب، وأنه قد اتفق مع خجدا شيته الاجلاب علي ذلك. فأخذ الأتابك قايتباي حذره من هذه الإشاعة، واحترز علي نفسه، وامتنع في الغالب من الطلوع الي القلعة في ليالي الموكب وصلاة الجمعة مع السلطان، بل طلب السفر إلي بعض قري القليوبية لمدة أسبوع يباشر فيه عمله في مربط جماله هناك. وذات ليلة نفذ خاير بك مؤامرته بالفعل علي السلطان، فحاصره،واعتقله في مجلسه، ثم حبسه في المخبأ وقام بتحصين القلعة، علي أن الذين بايعوا خاير بك خذلوه فلم يلحق به أحد وتركوه وحده، فاضطر إلي الإفراج عن الملك وطلب العفو، وإذا بالأتابك قايتباى كان يتربص بهم، ففاجأهم بالقتال حتي هزمهم شر هزيمة، قضى علي الأجلاب، ثم طلع بمن معه إلي باب السلسلة، وجلس بمقعد الإسطبل، وحينئذ هتف البعض بحياته، وكلمه بعض الأمراء في السلطنه، وهو يمكر بهم ويعتذر بطريقة فنيه حفزتهم علي التشدد في طلبهم سلطنته، فقبلوا الأرض له، وكانت رغبته في السلطة واضحة فلو لم يكن راغبا فيها لطلع إلي القصر عند السلطان مباشرة، وأخيرا وافق، فطلع الأمير يشبك الظاهري إلي تمربغا وأبلعه بسلطنه قايتباى، وأخذه

ودخل به إلي خزانة الخرجة الصغيرة، ثم فاوضه في أمر الرحيل إلي ثغر دمياط مكرما، فوافق، وسافر إلي الثغر مشيعا من قايتباى بكل التكريم والحفاوة.

إستمر الملك الأشرف قايتباى المحمودي في حكم مصر تسعا وعشرين سنه وأربعة شهور وأياما ، من سنة ٨٧٢ هـ ، إلي سنه ٩٠١ هـ ، وهي الستة إلتى توفي فيها ، لأن ابنه كان قد ثار عليه قبل ذلك بوقت قليل جدا ، وعزله .

وقد أجمع مؤرخو تلك الحقبة علي أن الملك قايتباى كان آخر الملوك العادلة بالديار المصرية ، ويقول إبن تغري بردي إنه توفي يوم الأحد سابع عشر ذى العقدة سنه ٩٠١ بعد اذان العصر - شف الدقة الرائعة من مؤرخينا القدماء - وصلى عليه بالحوش السلطانى ، ودفن يوم الإثنين ثامن عشر ذى القعدة سنه ٩٠١هـ ، ودفن بتربته التي أنشاها في الصحراء .

نحن الآن أمام هذه المقبرة التي خلدّت هذا الملك في الخيال الشعبى المصري وعلي ألسنته ، فى الواقع لم تكن مجرد مقبرة ، بل كانت مؤسسه دينية واجتماعية كاملة ، إلي كونها تحفة معمارية بالغة الروعة والجمال والأبهة ، تكشف عن ذوق فني رفيع جدا ، وهندسة معمارية جعلت هذا البناء يتحدي الزمن والصحراء خمسة قرون ونيف من الزمان ، ولا يزال قادرا علي البقاء أضعاف أضعاف هذا الزمن ، إذا ما نجاه الله من أيدي العابثين والنصابين والمحتالين وأصحاب الأكباد والأقفية الغليظة ممن انتشروا في مصر في هذه الأيام .

الأهم من هذا أن هذا البناء تتصاعد منه روح حميمة تسيطر في الحال علي كل من يراه من النظرة الأولي، ما أن تقع عينك عليه حتي تحبه تنجذب إليه تقع في الحال أسير هواه، تحس أنك لابد أن تبقي أمامه في رحابه وقتا طويلا جدا، وياحبذا لو كان هذا الوقت أبديا

حينما وقع بصرى عليه لأول مرة كان قد مضى عامان علي إستيطانى لمقابر المجاورين، ولم يكن عندى أى علم سابق به، لكنني كنت أسمع المحيطين بي يرددون باستمرار كلمتي : السوق، والسلطان، فحينما يقول أحد إنه ذاهب إلي ميدان قايتباى يقول إنه ذاهب إلي السوق، مع أنه لا سوق هناك علي الإطلاق، وحينما يقول أحدهم إنه ذاهب ليصلى في مسجد قايتباى يقول إنه سيصلى في السلطان، يرددون هذين الإسمين بحميمية تكاد تصل إلي حد الوله. وفي يوم ركب السمكري سيارتي ليقودها إلي ورشته - التي هي جزء من مدفن أسرته - فركبت بجواره، فإذا به يمر بجواره، فأصابني هلع، إذ خيل لي أننا في مدينه أخري من المدائن ذات القلاع الأسطورية، نزلت، صرت ألف حوله مأخوذا، وداخلتني بهجة عظيمة حينما لاحظت وجود مقهي شعبي في مواجهته تماما، غائصه في الأرض حتي منتصف الجدران، وبناؤها يشبه الفسقية يسقفها الإسطواني، ورصيفها المبلط يمتد أمامها بعرض ثلاثة أمتار، ترتص فوقه الكراسي والترابيزات، والرصيف كالأرض منحدر جبلى بديع، ومن أمامه ميدان يتوسطه فانوس عتيق الطراز

معلق في أعلي عامود حديدى فوق قاعدة حجرية دائرية منذ ذلك الوقت من أواسط السبعينيات نقلت قعدتي إلي هذه المقهي فلم أغادرها حتي اليوم. ولا أظن أن من يرتاد هذه المقهي ولو مرة واحدة لا يمكن أن تعجبه بعدها أى مقهي في أى مكان في العالم، فالجلوس علي رصيفها وقت الأصيل، أو في بكورة الصباح، حيث يستقر بصرك علي هذه التحفة المعمارية الشامخة بمئذنتها السامقة، شيء يدخل في عالم الأحلام والتمنيات، خاصة أن الجالسين بجوارك ناس لا علاقة لهم البتة بما يدور في عالمنا الراهن من صراعات وإرهاب وتطرف، ناس تطامنت قلوبهم فتوافقوا مع أنفسهم، وأمتع اللحظات يمكن أن تقضيها مع نصر العبيط، الشاب الفتي الذي توقف نمو عقله عند حدود طفل يحبو، وهو مع ذلك قمة في الذكاء وخفة الظل والقدرة علي المحاكاة، إنه طاقة مرح لا مثيل لها بين البشر يستطيع إخراجك من جلدك، فتري نفسك بعد قليل قد صادقته وصرت تتبادل معه الحديث الودي، إذ ينبعث من هذا الكيان المشوه دفء إنساني عظيم، وإنه ليوم حافل بالأنس والمتعة يوم يكون نصر العبيط منجليا، يكون أحدهم قد ملأ دماغه بأنفاس الحشيش الذي يعشقه نصر كأي حشاش قرارى، يترك صرة هدومه الحافلة بالخرق والهلاهيل، ويقدم علي الرصيف مشهدا مسرحيا يكشف عن طاقة إبداعية مذهلة، مع أن كلامه غير مفهوم إلا لمن يعرفونه جيدا عن قرب : يقلد الحواة المحتالين، يتربع علي الكنبة يسند العصا أمامه كأنها

رأس الميكرفون ثم - ويا للعجب - يشرع في قراءة القرآن، فإذا هو قد اختزن في رأسه الصغير كل النغمات التي يتداولها المقرءون، فيرددها بغير كلام، أو بما يتخيل هو أنه كلام، لا تقل لي عادل أمام ولا حتي شارلي شابلن، نصر العبيط في لحظات التجلي هذه يكشف حقيقة مصرية صرفة خاصة بالتمثيل الفكاهي عندنا، فجميع ممثلى الكوميديا في مصر الآن، من عادل أمام إلي سعيد صالح إلي محمد صبحي إلي سمير غانم، فأحمد بدير فسهير البابلي، كلهم كلهم، لا يمثلون في الواقع سوى مسخا من نصر العبيط ولو أنهم رأوه لتحسن أداؤهم.

ميدان قايتباى هذا، وأمام هذه الواجهة المرسومة علي ورقة الجنيه المصري، لابد أن يكون شهيدا علي أى فرح من أفراح المنطقة، العروس التي لا تحج إلي كعبته ليله زفافها لا يكتمل زفافها، تركب العروس سيارة تم تزويقها بالورق الكريشة الملون، وبالشرائط اللامعة، تتبعها عدة سيارات مزوقة هي الأخري، يركبها الأهل والأصدقاء فى زنيط متواصل من أصوات الكلاكسات الموصولة يصل ركب السيارات إلي الميدان تتقدمه سيارة العروس، لتبدأ اللف والدوران حول عامود الفانوس في منتصف الميدان ومن خلفها السيارات الاخري في دوران يستمر وقتا طويلا تتطاير منه الزغاريد والأغنيات، وبعد حوالي سبع لفات تقفل السيارات عائدة إلي ديارها، فإذا كان المساء تجمعت فرقة الزفة حول الفانوس وراحت تسخن جلود طبولها، في انتظار قدوم العروس من

محل الكوافير من آى مكان في المدينة، لتبدأ الزفة من هنا، فمن هنا تذهب إلي الكوافير بالسيارات، ومن هنا تذهب إلي دار العريس سيرا علي الأقدام يحوطها موكب من النسوة الفاتنات رغم تواضع مظهرهن وبساطة لباسهن تري فيهن حينذاك الجواري الروميات والفارسيات والشركسيات والحبشيات، أفخاذ وأرداف ونهود ورقاب وعيون تتفجر فيها خصوبة الطمي بزخم صارخ.

علي يسارك وأنت واقف أمام الواجهة المرسومة علي ورقة الجنيه المصري يمتد البناء الحجري علي مساحة طولها عطفة كاملة تقود إلي وصلة السكة البيضاء السالف ذكرها، وثمة باب يفتح علي هذه العطفة في أعلي العلواية، تلك هي التكية الملحقة بالمسجد، وهي دار حافلة بالغرف والحجرات، ومن طابقين، للغرف شرفات ومشربيات علاها الصدأ وتخلعت مفاصلها وتآكلت وحداتها الزخرفية، أعدت هذه التكية لاستقبال الغرباء الوافدين علي المدينة وليس في مكنتهم النزول في الفنادق والخانات والوكالات، واستقبال الفقراء المعوزين ممن ليس في استطاعتهم تأجير مسكن، لهم جميعا أن يبيتوا في هذه التكية لأى وقت يشاءون، آكلين شاربين علي نفقة السلطان الذي أوقف لحسابها أوقافا تدر دخلا ينفق عليها، هي الآن محتلة من ناس لا أحد يعرف كيف احتلوا هذا الأثر البديع، ليعيثوا فيه فسادا، دون رقيب أو حسيب، حقا آن الآثار في مصر الآن لا صاحب لها، والسبب الذي لا

ينتبه إليه أحد، هم رجال الأحياء من الحزب الحاكم، الذين يرشحون أنفسهم في انتخابات مجلس الشعب، إذ ما أسهل علي الواحد منهم أن يعطى تصريحا لأى فئه ضالة، كي تحتل أثرا كهذا وتقيم فيه بصفة نهائية، لدرجة أن واحدا من هؤلاء يحتل سبيلا أثريا خطير الشأن أمام مسجد الحسين وقد أجري فيه عمليات تعديل وتشويه ليحوله إلي معرض للحلوى !!

علي اليسار أيضا، بجوار المقهي الشعبي، توجد دوره مياه وميضأة كبيرة، لخدمة المصلين في مسجد قايتباى، أمامها علي اليمين - في الطرف الآخر للميدان - بقايا بناء أثري من نفس طابع المسجد، ينقسم إلي قسمين، والمعالم واضحة، فمن السهل علي من يراهما معرفة أن القسم الأمامى عباره عن حوض كبير للمياه، وأن القسم الثاني هو بقايا ساقية مهمتها جلب المياه الجوفية من باطن الأرض لصبها في الحوض، خدمة للمصلين. أمامها - لصق المسجد - مدخل قبة هي القبر المدفون فيه جثمان السلطان قايتباى، لصق هذه القبة، وعلي مساحة كبيرة بناء غاية في الأناقة كان في الأصل مدرسة لتحفيظ القرآن الكريم، تنكسر هذه البناية انكسارة رشيقة مكونة مع الشارع زاوية حادة، تصنع ساحة مستطيلة محندقة تصلح لإقامة الحفلات لكن أبناء الحي يستخدمونها ملعبا للكرة، علي يسارها يمتد بناء مستطيل من طابقين له شرفات ومشربيات، في أسفله بوابة أنيقة تفضى إلي عدة أبواب، تلك كانت

خانقاها للصوفية، يقيم فيها لفيف من أهل التصوف والمتعبدين، يليها علي نفس الإمتداد بناية متصلة بها كانت بمثابة مسكن للمعلمين والأساتذة الذين يعملون في مدرسة تحفيظ القرآن الكريم، وهذه البناية الآن - بكاملها - تستخدم كمدرسة تتسع لحوالي ألف تلميذ علي فترتين.

البول فوق رأس الإمام

نسينا أن نرصد في مقابر العائلة الخديوية مقبرة ملحقة بحديقتها أشبه بجوسق أو بديكور مسرحي، ومن الواضح أنه لم يكن ضيفا علي هذه الحديقة الملوكية بقرار رسمي، وإنما هي لعبه الزمن حتي في المقابر، فمنذ أن زالت العائلة الخديوية من الوجود، فقدت حديقة المقبرة عزها ورونقها ودب إليها الجفاف والإهمال، سيطر عليها الغوغاء من صبيان الطربية، قطعوا معظم أشجارها النادرة، هدموا أسوارها، فاختلطت بالمقبرة الملوكية مقبرة غير ملوكية لواحد من الشعب، صحيح أنه من عظماء مصر ولكن عظمته لم تكن لتشفع له في اختراق الحاجز الملوكي، تلك هي مقبرة العالم الكبير الدكتور علي مصطفى مشرفه، عالم الذرة الشهير.

وعلي ذكر الطبقية التي تلاحق الناس حتي في موتهم، فإننا وقد انسلخنا من أخر بوابة لهذه المؤسسة الدينية القايتباتية، نستطيع أن ننعطف يمينا في ممر متعرج بين مجموعات متناثرة من شواهد المقابر التي بلا أحواش، ينتهي بنا الممر إلي شارع متسع أسمه شارع الإمام محمد

عبده، يتفرع من صلاح سالم إلي مدخل ميدان قايتباى، يحفل هذا الشارع بمجموعة أحواش عتيقة الطراز وتتخلله تقاطعات عدة. نتوقف عند ناصية التقاطع الأول في الإتجاه إلي صلاح سالم، ويبدو أن هذه الخرطة المربعة كانت موزعة علي لفيف من رجال الشرطة الكبار في زمن العصور الملكية، فمعظم الأحواش مكتوب عليها : اللواء فلان، القائمقام فلان، الأميرالاى، إلخ إلخ، وثمة بينها - علي الشارع - سور متهدم شائه، تم ترميمه مرات عديدة بشكل عشوائى ساذج مما يدل علي أن القائمين بها لا علاقة لهم بصنعة البناء، يتوسط السور باب صدىء غاطس في الأرض، وبجواره شباك مغلق لكنه مخرم من كل ناحية، تندلق أكوام القمامة بشكل مثير للقرف، لا يحلو للمارين التبول إلا فوق هذا الشباك، فدائما تصدمك رائحة الصنان زاعقة لا يمكن احتمالها، ودائما ابدا هناك من يقف ليتبول علي هذا الشباك، وذات يوم كنت ماراً من هذا الشارع فرأيت شابا أحمر الوجه كالخواجات، يشتبك مع بعض المارة في زعيق حاد، وكان منفعلا جدا علي وشك التماسك بالأيدى، فتدخلت لفض هذا النزاع، ففوجئت بأنني أمام شاب علي شىء من الوعي والثقافه مع أنه قدم نفسه لي علي أنه الطربي المسئول عن هذه الخرطة بكاملها، واسمه عيد بخيت، ورث هذه المهنة عن أبيه، وأخلص لها لدرجة أنه أوقف نفسه عن مواصة الدراسة ليتفرغ لها، وكان سر انفعاله أنه قد يئس من سوء سلوكات البشر وقلة ذوقهم حتي يتبولون

فوق المقابر، فلما عرف أنني مشتغل بالصحافة أشرق وجهه وهتف طالبا مني مساعدته في أمر هذا الحوش علي وجه التحديد، ثم اقتادني الي الشباك المذكور وأشار إلي داخل الحجرة فنظرت، فإذا بثلاث شواهد رخامية فخيمة غارقة في بحر مياه الصرف الصحي. قال :

– هل يعجبك هذا ؟

قلت لا بالطبع

قال بأسى حقيقى : هذه المقبرة ملك رجل كان حكمداراً للقاهرة ذات يوم ينام تحت هذا الشاهد مع بعض إخوته، وتحت الشاهد المجاور له تنام زوجه

قلت : لا تبتئس : فهذا شأن الأيام ! فالأيام دول ! ولابد أن هذا الحكمدار كان في حياته قاسيا علي الناس فعاقبته الأيام بهذا المصير التعس !

لكن الشاب عيد بخيت لم يبتسم، بل ازدادت كآبته، وهتف صائحا

– ليس حزني علي الحكمدار وحده إنما أنا حزين علي الإمام !

قلت منزعجا ! إمام من ؟!

قال كأنه يبكي : الإمام محمد عبده !

سألته : وما شأن الإمام محمد عبده هنا ؟

قال بأسف : لأنه مدفون في هذه المقبرة نفسها !

قلت مندهشا : كيف يا رجل ؟

قال : من فضلك انتظرني دقيقة واحدة، ثم هرول نحو بيته الأنيق في حارة مواجهة للحوش، غاب قليلا ثم عاد يحمل مفتاحا وأوراقا،

قدمها لي قائلا :

- هذه وثائق الدفن كاملة ! أحذر أن يذوب الورق في يديك فإنه شاط بفعل الزمن والرطوبة

قلبت في الأوراق بيد مرتعشة : مستخرجات رسمية من شهادة الوفاة والتصريح بالدفن وعقد ملكية المقبرة، ثم قال :

- هذا الحكمدار يرحمه الله كان صديقا للأمام في حياته وقد مات الإمام في حياته فجأة ولم يكن له مقبرة، أنت تعرف أن الأمام محمد عبده لم يكن ثريا، ولذلك تعطف الحكمدار ودفنه في مقبرته هو علي سبيل الصدقه، بقدر ما شكرت في نفسى هذا الحكمدار الجدع غضبت منه لأنه أصر علي تسجيل هذه الكلمة في هذه الورقة، إقرأ.. علي سبيل الصدقة، يكاد يعاير جثة الإمام بالإحسان عليها في ورقة رسمية.

ثم فتح الباب، فهبطنا إلي أرض الحوش، فإذا بنا في قلب مساحة غريقة ليس بها سوي حجرة الدفن المغلقة، وشجرة عتيقة في ركن بعيد يقوم تحتها شاهد قبر متواضع جدا، عبارة عن مصطبة صغيرة من الأسمنت، فتح حجرة الدفن فبدت الشواهد الثلاث الأنيقة التي كانت ملونة ذات يوم بعيد، تتماوج وتتحرك في بحر المياه الزرقاء المنتنه، فوق مجموعة من الأحجار صرنا نتساند ونخطو حتي وصلنا إلي الشاهد الأكبر، لنقرأ علي الرخامة كلاما محفورا يقول : في هذه المقبرة ينام المغفور له الإمام محمد عبده المدفون هنا علي سبيل الصدقة، وفوق هذه

الشريحة الرخامية شريحة أخري مكتوب عليها اسم صاحب المقبرة وتاريخ وفاته، ووظيفته في الحياة.

خرجنا من الحجرة مشمري الثياب، أشار لي علي الشجرة العتيقة في الركن البعيد قال :

- أنا الذي زرعت هذه الشجرة لكي تظلل علي الشيخ !

قلت الشيخ من ؟

قال الشيخ محمد رشيد رضا !

قلت : كملت !

قال : نعم ! هل يدفن التلميذ بعيدا عن شيخه ؟ لقد أوصى الشيخ رشيد رضا بأن يدفن بجوار شيخه علي أى وضع، إن لم يكن في نفس المقبرة فعلي الأقل في مقبرة مجاورة، وقد كان ابي يرحمه الله يحكي لي عن يوم دفنه حينما جيء بجثمانه فبقي مدة طويلة في قلب هذه الشمس ينتظر قدوم ورثة الحوش من أبناء الحكمدار وأهله، فلما جاءوا ورفضوا فتح المقبرة بأى حال من الأحوال ولكن بعد مفاوضات بينهم وبين أهل الخير قبلوا أن يحفروا له في هذا الركن مقبرة خاصة به، ففعلوا، وقام أبى بتجهيزها علي أكمل وجه، وقمت انا بزراعه هذه الشجرة وأنا تلميذ بعدما عرفت من هو الشيخ رشيد رضا.

قرأت الرخامة المكتوبة علي قبر الشيخ رشيد رضا، قلت لعيد بخيت وفيم تريد مساعدتي ؟

قال : أن تكتب في الصحافة تدعو الدولة لإعادة بناء هذا الحوش من جديد، وتنظيف هذه المصائب، الا يستحق الإمام أن نعني بمقبرته ؟ هل يليق به أن نبول علي جثمانه في هذا الزمن الأسود ؟ لقد تهدم السور مرات عديدة وقمت بترميمه علي نفقتي لأنني لا أري أحداً من أصحاب الحوش أبدا ويظهر أنهم استغنوا عنه بحوش جديد في مكان آخر.

وعدته بأنني سأفعل، وكتبت بالفعل مقالا في مجلة الإذاعة والتليفزيون منذ بضعة أعوام عرضت فيه المشكلة ودعوت الدولة للتدخل، ولكن دولة من ؟ لا حياة لمن تنادي، ومرت أعوام، وفوجئت بعيد بخيت يقتحم علي المقهي ذات ليلة ويقول لى : إلحقني، قلت : خيرا، قال : أصحاب الحوش يعرضونه للبيع، ولسوف يشتريه واحد من أقاربهم من أهل الانفتاح ينوي أن يقيم فوقه ناطحة سحاب ومن تحتها مصنع الفانلات والجوارب، فمن غد قمت بكتابة مقال جديد دعوت فيه لإنقاذ قبر الإمام محمد عبده والشيخ رشيد رضا، ولكن - كالعادة - لا حياة لمن تنادي، فلقد انتهي زمن الحكومات المسئولة والشعب الحر، إلا أن هذا الشاب المصري الجميل، إستطاع بجهودة الخاصة، عن طريق التهديد المباشر تارة، ورفع القضايا تارة أخري، إستطاع أن يدخل شيئا من الرعب علي المشتري المزعوم، وأفهمه أن الحكومة مهما « طرمخت » مؤقتا فإنها عند الجد لن تسمح بإزالة قبر الامام محمد عبده والشيخ رشيد رضا. المهم أن المشروع قد نام، ولكن، يعلم الله أي مصير مؤلم يدبره القدر لجثمان هذا الشيخ العظيم وتلميذه الأمين.

وإنه لمن تدبير قدر مراح كثيرا مايكون خفيف الظل حتي في مزاحه الثقيل، حدث أن كنت جالسا في مقهاي المفضل كالمعتاد، فجاء لزيارتي صديقي الفاضل عبده جبير، وبصحبته سيده غاية في الرقة والعذوبة، علي قدر كبير من الجمال، قدمها لي بأنها زوجه، وقال إنه كان يفرجها علي آثار القاهرة في مثل هذه المناطق النائية وقال أيضا إن زوجه هذه رسامة، وأنها مصرية لكن أسرتها تعيش في أمريكا ولبنان جلسنا نتبادل الحديث في الفن والسياسة وأمور الدنيا، وأذا بي أعرف أن زوجه هذه اسمها « فوزيه رضا » هتفت في الحال :

- هل ثمة قرابة بينك وبين الشيخ رشيد رضا ؟

إحمر وجهها وتهلل بالبشر قالت بفخر :

إنه جدي !

وجدتني أبتلع غصة مريرة، مع ذلك قلت لها رغما عني :

- إذن فهل تعرفين قبر جدك ؟

اعتدلت في جلستها بأهتمام شديد، وبكت في الحال قائلة

- لا بكل أسف

قلت هل تحبين رؤيته ؟

قالت : أرجوك

قمنا، ذهبنا إلي الحوش، استدعيت عيد بخيت، عرفته بالسيدة فوزية، ففرح بها فرحًا كبيرا، وأطلعها علي قبر جدها، فكادت الصدمة

تقتلها، لكنها بسخاء كبير راحت تغدق علي عيد بخيت بكل ما في طاقتها من كرم، كي يعتني بقبر جدها الحبيب وأصبحت تزوره من حين لحين، وكل ما استطاعت فعله أنها قامت بسد هذا الشباك اللعين بالطوب، ويبدو أنها لم تجد من أسرتها حماسة للإهتمام بمصير هذه المقبرة.

فايزة أحمد

تدفعنا الكآبة إلي ترك العظماء في حالهم التعيسة وحظهم الهباب دائما علي رأي الشعب المصري؛ فإن سوء الحظ يلاحقهم في الحياة والموت. نحن الآن في قلب التقاطع الذي يخرط هذه الخرطة علي شكل الصليب. أما منا علي الطرف الآخر شيء يمثل ظاهرة غريبة لاندري كيف لم يحاول أحد تفسيرها: تلك هي، هذا المسجد الحديث البناء؛ الذي يأخذ شكل المسجد في إطاره الأعلي، من حيث المئذنة والقبة. أما إطاره السفلي فيأخذ شكل البيت ذو الباب المغلق علي الدوام !! المئذنة محاطة بعواميد النيون الخضراء، وينطلق منها صوت الأذان في جميع أوقات الصلاة وكثيرا ما ينقل الميكرفون المعلق في المئذنة أصوات أدعية جماعية أشبه بالأوراد لكن ألفاظها غير مفهومة علي الإطلاق. يؤم هذا المسجد ناس في غاية الغرابة، يتسمون بحب العزلة، وعدم فتح باب العلاقات مع أي أحد، فيهم الغرباء ذوو السحن والملابس الغريبة؛ وفيهم بعض من أبناء المنطقة. ولا يسمح بالدخول إلي هذا المسجد إلا

لمن هو معروف لديهم. فهذه أول مرة أري فيها المصلين يطرقون باب المسجد فينفتح لهم عن شخص يدقق في وجوههم قبل أن يسمح لهم بالولوج إلي الداخل، وقد يعتذر بلباقة وبألفاظ مضغمة غير مفهومة ثم يغلق الباب. في هذا المسجد تقام دروس دائمة؛ فإذا تلقفت واحداً من أبناء المنطقة المنتمين إليه وسألته عما كانوا يقولونه أجابك بأنها أدعية وعبادات صالحة !! وقد لفت نظر جميع المثقفين الذين يزورونني في المقهي إلي هذا المسجد الغريب؛ وكم حاولنا اقتحامه ولكن دون جدري، وفكرنا كثيرا؛ هل هم جماعة من البهرة الذين انتشروا في مصر الآن بصورة زاعقة وأصبحوا يقومون بما يشبه الإستيلاء علي بعض مساجد الدولة الفاطمية فيجددونها ويقيمون فيها إقامة دائمة ؟ هل هم جماعة من جماعات الطرق الصوفية المجهولة القطب ؟هل هم من الجماعات الأصولية المتطرفة ؟ الله وحده يعلم.

فلندعهم في حالهم. فهذه مصر طول عمرها، يستطيع أي إنسان ولو علي قدر يسير من الذكاء أن يفعل فيها ما يشاء وما يهوي دون أن يعترضه أحد. إنها بلد مضياف إلي حد مذهل، فكأنها أرض الغرباء دائما؛ فإذا كان جميع الأولياء أصحاب الأضرحة في مصر هم من أصول مغربيه؛ فإن مقابر المجاورين هذه تضم أعدادا مذهلة من العرب،الأتراك والفرس والرومان واليونان واليهود الذين دخلوا في الاسلام. كم طاب لي أن أقرأ اللآفتات الرخامية علي واجهات الأحواش

هذه التربة احدا من أصول مصرية خالصة. كل من وفد إلي هذه البلاد استبقته فيها حتي يتوحد بتربتها. أنظر إلي الأشجار الباسقة الجارمة الأفرع الطالعة من قلب الأحواش فأكاد أغبطها علي ماتتغذي به من سماد عضوي؛ إنها قرائح العظماء والقادة والحكماء في خلق جديد، إذا مر بها الريح تكاد تتكلم، تغني، تبث الأطيار شجنها، سعادتها بأنها مدفونة في هذه الأرض المباركة التي مجدها القرآن الكريم؛ ولعلها تبثها حزنها علي ماسبق أن فعلته بأبناء هذه الديار.

هذه مقبرة محندقة، داخل حوش يبدو كمقصورة في سفينة، يملكه لواء شرطة من قرية شبراخيت اسمه سلطان، والد الملحن المصري محمد سلطان. لقد بناها لواء الشرطة لنفسه ولأسرته، لكنها بقيت مدة طويلة بغير افتتاح رسمي.

ما أعجب تصاريف هذا الزمن. المطربة فايزه أحمد كانت من أعز أصدقائي، عرفتها منذ أول يوم جاءت فيه من سوريا إلي القاهرة. كنت ليلتها ساهرا مع الملحن العبقري الراحل محمود الشريف حينما جيء بها لكي يسمعها، فقرر في الحال أنها صوت نادر المثال، ؟ وصوتها نكهة جديدة بين أصوات النساء. ولم يمض وقت طويل علي بدء زيارتها للقاهرة حتي تلقفها الملحن محمد الموجي فقدم لها طائفة من ألحانه المصرية الجميلة، وكانت أغنية [ياامه القمر ع الباب] التي ألفها الشاعر الراحل مرسي جميل عزيز، هي العطر الفواح الذي تفجر في

الحقل الغنائي المصري؛ أحدثت دويا هائلا بين جمهرة المستمعين من الشعب المصري. كانت هذه الأغنية هي القاعدة التي انطلق منها هذا الصوت الصاروخي الفريد، ليصنع مجده الكبير، ويصنع معه مجدا جديدا لمحمد الموجي وكمال الطويل وبليغ حمدي ومحمد عبد الوهاب ومحمود الشريف ورياض السنباطي وزكريا أحمد وسيد مكاوي. لقد مكنتهم هذا الصوت من الكشف عن طاقات لحنية مدخرة.

في بحر سنوات قليلة أصبحت فايزه أحمد علي قمة الهرم الغنائي أعطاها الشعب المصري أكثر مما كانت تحلم به. لقد كان كل حلمها أن تغني - فقط - في إذاعة القاهرة؛ فإذا بمصر ترفعها إلي أعلي الدرجات، وإذا هي قد صارت نجمة متألقة يعد عشاق صوتها بالملايين. وكان لابد أن تثير غيرة المطربات المصريات وغيرهن من عربيات حاقدات.فبدأت تحاك حولها المؤمرات والفتن لتطفيشها. لكنها كانت قد عشقت مصر بقدر ما عشقها الشعب المصري، فلم تعد مستعدة لمغادرتها ولو للحظة قصيرة. أيا مذاك كنت أنا في مرحلة التنطيط في بلاط صاحبة الجلالة، وكنت ومازلت مغرما بفن الغناء وبأهله، قد أسافر وراء حفلاتهم إلي أبعد مكان في الأرض لواستطعت؛ لكنني كنت دائم الحضور لحفلات اضواء المدينة في عقد الستينات، أسافر وراءها إلي العريش وشرم الشيخ ودمياط والمنصوره وطنطا ودمنهور؛ أجوس بين الكواليس، أمارس غرامي بدراسة شخصيات الفنانين من خلال

سلوكياتهم في الكواليس، وكنت علي صلة وثيقة بهم جميعا، كبيرهم وصغيرهم علي السواء، يحلو لي التنقل من كالوس محمود شكوكو، إلي كالوس محمد الكحلاوي، إلي كالوس فايزه، فشاديه، فنجاة الصغيرة، فمحمد رشدي.. الخ. فيتاح لي رؤية بذور الأحقاد وهي تتكون في بعض النفوس آتية من علي خشبة المسرح، إذا دوي تصفيق الجماهير متعانقا مع تألق صوت من الأصوات، وأري كيف تنمو هذه البذور في الخفاء لتتحول إلي همزات شيطانية ناعمة، وكيف يوعز بها لصغار الموظفين وبلطجية الحقل الفني للقيام بشوشرة أو أفعال تبدو عفوية لكنها تضايق الفنان وتطفيء تألقه، إفساد الميكرفون، إثارة الضوضاء، التفوه بألفاظ مسمومة مسنونة توخز الفنان في لحظة دخوله إلي الجماهير.. الخ.

أشهد أن فايزه أحمد قد نالها من هذه الصغائر الكثير والكثير، ناهيك عما يدس لها في مبني الإذاعة بين الموظفين المسئولين عن وضع الأغاني علي خريطة الأثير، أو اصحاب البرامج التي تذيع الأغنيات؛ أو محرري الصفحات الفنية الصغار للتشنيع والتشهير والتسفيه تحت ستار النقد. ورغم أن فايزه قد تحملت كل ذلك بصبر وشجاعة وقوة احتمال؛ فإنهم مع ذلك قد نجحوا في إفساد جهازها العصبي، لدرجة الإنهيارات العصبية الحادة المتكررة. فلا يمر يوم بدون إثارة، ووجع دماغ، وقيل وقال، ومعاكسات في التليفون. وكانت المرحومة تضطر إلي

التعامل مع كل هذا بحدة وانفعال جلب عليها كثيرا من الأحقاد ضيعت عليها الكثير الكثير من فرص الكسب والتألق، خاصة بعد أن جيء لها بمطربة عربية اخري لكي تنافسها وتهزمها، والتف حولها لفيف من المتحمسين المؤثرين. وكان من الممكن أن يتم القضاء التام علي هذا الصوت الفريد الطازج الحساس لولا أن الجماهير تمسكت به وفرضته فرضا علي جميع الأجهزة. إلا أن هذا الجو العصبي القاتم كان له تأثيرا قويا علي نفسية فايزة أحمد أدي إلي مرض عضوي عضال.

علي أن أزمتها الحقيقية اشتدت بمجيء تلك المطربة العربية وانتشارها وتشعب علاقاتها. لم تكن رحمها الله تحقد علي نجاحها، فقد كانت تضم بين ضلوعها قلب طفل محب للحياة ولجميع الناس، قلبا عطوفا شديد الحساسية والتأثر؛ ما أسرع ماتبكي، ما أسرع ما تقدم ما في طوقها من مساعدة تسعد إنسانا؛ ذروة حبها كانت للفن الغنائي. لكن الأزمة تمثلت في أن المحيطين بهذه المطربة العربية المنافسة كانوا يضعونها دائما في موقف المقارنة والمنافسة، بل إنهم تمكنوا من تأليب كافة الملحنين الكبار عليها، فقلبوا لها ظهر المجن كما يقول التعبير العربي القديم، كلما انتهي أحدهم من لحن زين له الأشرار تسريبه إلي فلانة أو فلان بأجر أعلي، فلم يعد لديها ألحان جديدة تغنيها؛ فكانت تقضي الليل كله في بؤس وألم شديدين. في تلك الفترة لجأت المسكينة إلي حيلة ذكية؛ أعادت غناء ألحان عبد الوهاب القديمة، مثل أغنية

[قالولي هان الود عليه] وغيرها من الأغنيات التي وجدت في صوتها تألقا جديدا كأنها قد لحنت خصيصا لصوتها. إلا أنها لابد أن تقدم الجديد التام كلاماً ولحنا، فبدأت تستجيب للملحنين الشبان وتسمع ألحانهم. وهنا ألقي القدر في طريقها بملحن شاب أسمه محمد سلطان، كان يعمل محاميا تحت التمرين لكنه يعشق التمثيل والغناء، فتقدم إليها بلحن من كلمات محمد حمزه : أمريا قمر أمرك ماشي] ، فأعجبها فغنته. ولحظة أن اقترب منها محمد سلطان كانت أزمتها قد دخلت في طور جديد؛ إذ راح خصومها يرفعون في وجهها سلاحا خسيسا، هو أنها ليست مصرية، وأنها لهذا يجب أن ترحل. نشط محمد سلطان بواسطة أبيه في وزارة الداخلية، فنجح في أن يأتي لها بالجنسية المصرية؛ وكان الحب قد وصل بينهما إلي درجة التلاحم الصادق، فتزوجا ، لتبدأ معه فترة الإستقرار الحقيقية، فهدأت أعصابها، وأستأنفت حسن علاقاتها بالجميع، وبدأت الألحان تنهال عليها من الكبار مرة أخري. ومن أجمل ما خلفته في حياتي من ذكريات حميمة أنها في يوم الجمعة من كل أسبوع كانت تأتي بصحبة زوجها سلطان لتقضي يوما كاملا في بيتي المتواضع بحي المعادي الجديدة، نأكل العيش الفلاحي والجبن القديم والمش، ونقلب في الفولكلور المصري الذي أقتني منه كميات كبيرة لتختار أفكاراً لأغنيات جديدة. كانت تحكي لي الكثير من تفاصيل طفولتها المؤلمة، حيث كان أبوها الشيخ المتدين ضد

أن تغني، فكان يضربها ويكويها بالنار، ويحول بينها وبين الغناء، مما اضطرها إلي الرحيل بعيدا عن سطوته، فتكونت لديها عقدة كأداء، أصبحت تشعر بالإضطهاد، كأن الكون كله ضد أن تغني، فلا يزيدها ذلك إلا إصرارا؛ فأصبح الغناء عندها قرين الوجع والألم، وأصبح النجاح بالنسبة لها يفجر عندها براكين الخوف من مجهول قوي يحرمها من هذه المتعه. فإذا أضفنا إلي ذلك مالقيته من صنوف الإضطهاد الفعلي، أدركنا أنها لم تكن لتشفي تماما؛ وهذا بالضبط ماكان يعكر صفو حياتها، وهو السبب في زعزعة استقرارها في أواخر أيامها، والتصرفات الطائشة التي حدت بها إلي الإنفصال عن محمد سلطان والإرتباط بضابط شرطة انتهازي أذل كبرياءها وباع لها الطلاق بعشرين ألفا من الجنيهات، لتعود ثانية إلي سلطان تقضي معه بضع سنوات مليئة بالقلق الفاجع، حيث كانت الأمراض النفسية المتأصلة قد تحولت إلي مرض عضوي أدي بها إلي الموت ليستريح ذلك القلب النابض المتوجع أبدا، ويكون من نصيبها أن تحظي بهذه المقبرة المصرية البديعة المحندقة كمقصورة القبطان في احدي السفن، فكأنها بنيت خصيصا لها، أكاد الأن أسمع صوتها الدافئ يخرج من هذا الجدث مترنما بذلك اللحن العبقري الذي خطه يراع الشاعر بيرم التونسي وصاغه فارس النغم الشرقي زكريا أحمد : من يوم ماعرفت الحب امتع قلبي بكل نعيم والدنيا دي صبحت جنه وفيها حبيب القلب نديم.

إنتقال قصر العيني باشا

صدق أو لاتصدق فالحقيقة ماثلة، حينما أقول لك إن هذا القصر المنيف جدا ، المبني بأحجار صخرية؛ قد تم نقله في أواسط القرن الماضي من علي كورنيش النيل إلي هذه البقعة من القرافة فوق عربات كارو يجرها الخيل.

كان « كلوت بك » الطبيب الفرنسي الخاص بمحمد علي باشا قد تم أمره في الديار المصرية، يتمتع بثقة الباشا الكبير، فإنه يعالج أسرته بأسلوب علمي حديث. وقد اقترح علي الباشا ، أو اقترح عليه الباشا ، إقامة مستشفي عام كبير علي النظام الأوروبي يعالج فيه الشعب المصري علي نطاق واسع وبأحدث أساليب العلاج.

ويدأ التفكير في اختيار موقع مناسب للمستشفي. وأخيرا وقع الإختيار علي قصر العيني باشا أحد أثرياء المماليك. وكانت ملكية القصر آلت لإبراهيم بك الكبير في نهاية القرن الثامن عشر. وأثناء الحملة الفرنسية علي مصر جعله نابليون بونابرت مستشفي للجيش.

حلم محمد علي كان إنشاء مدرسة للطب، ومستشفي. وكان قد أنشأهما بالفعل في موقع في منطقة أبي زعبل، ورأي أن هذا القصر هو الأنسب؛ ولكن كان لابد من هدمه، لإقامة مبني جديد علي طريقة خاصة بنظم المستشفيات تتوفر فيه الغرف المجهزة للعمليات والإنعاش والإقامة والمعامل وقاعات الدرس. وبدأ العمل بالفعل؛ وكان ذلك حوالي عام ١٨٢٥م.

في تلك الأثناء كان ثمة رجل من عامة الشعب اسمه الشيخ علي الرقاد يمشي علي كورنيش النيل بين الكثيرين من المواطنين الذين شعروا نحو هذا القصر بالإشفاق. وتلك خصيصة مهمة جدا في الشعب المصري، أقصد العامة، إن علاقة وثيقة تربطهم بالأشياء الجميلة بوجه عام، وخاصة الأبنية ذات الطرز المعمارية البديعة. صحيح أنهم لا يسكنون مثل هذه القصور الفخمة ولايجربون رفاهيتها، لكنهم مع ذلك يحبون وجودها بينهم، والتطلع إليها، والإعجاب بها. مازلت أذكر دار الأوبرا يوم احترقت في غيبة ضمير من موظف كلب أراد التنكيل بعبد القادر حاتم احتجاجا علي عودته وزيرا للثقافة والإعلام، ونكاية في أنور السادات. رأيت بعيني مئات من عامة الشعب لم يدخل أحدهم دار الأوبرا هذه طوال عمره، ولا يعرف ما معني كلمة الأوبرا؛ ولكنهم مع ذلك استغرقوا في بكاء حار، حزنا علي احتراق هذه البناية الجميلة التي كانت تعطي ميدان الأوبرا شكلا جميلا.

الشيخ علي الوقاد ينحدر من أصول مغربية بعيدة، ولعله خليط من الدم المغربي والدم التركي. كانت صناعته شغل الخيزران: الكراسي، الكنب، الترابيزات، الطقاطيق، الأسّرة. وكان موهوبا في هذه الصنعة بصورة حققت له شهرة كبيرة ودخلا ماديا يكفل له حياة مستورة. ولاتزال بعض مشغولاته باقية الي اليوم في منازل بعض أحفاده. فالجدير بالذكر أنه أنجب مجموعة رجال: أحدهم والد الشهيد المعروف نبيل الوقاد؛ وأحدهم والد الكابتن محمود بكر لاعب الكرة القديم والمعلق الرياضي ورئيس نادي الأولمبي السكندري حاليا. وقد أنقسم أبناؤه إلي فرعين : فرع من أم سكندرية إهتمت بتعليم أولادها حتي أصبحوا الفرع الميسور؛ وفرع من أم قاهرية واصل أبناؤها العمل في مهنة أبيهم وبعض المهن الأخرى؛ ولظروف ما، أصبحوا الفرع الفقير. وصحيح أن الشيخ الوقاد كان في رواج مستمر؛ إذ يتلقي الطلبات المستمرة من العائلات الكبيرة، ومن الأجانب المغرمين بالمقاعد الخيرزانية؛ إلا أن الرواج مهما كان منتعشا فإن كثرة الأولاد تلتهمه أولاً بأول ؛ سيما وأن أولاده قد ورثوا عنه الخصوبة فأنجب كل ولد منهم قبيلة من الأولاد كانوا يعيشون كلهم من دخل الصنعة الوحيدة التي يتقنونها. أضف إلي ذلك أن صنعة الخيزران نفسها قد تراجعت في العصر الحديث في مصر، أمام انتشار أنواع حديثة من المقاعد الآلية الرخيصة.

ويبدو أن الشيخ الوقاد كان ميالاً للتصوف ورياضة النفس، مغرما بالهدوء وحب التأمل في ملكوت الله؛ خاصة أن الله قد أطال في عمره حتي رأي أولاده كلهم رجالاً كباراً يقومون عنه بمهمات الشغل، ويوفرون له وقتا طويلا يقضيه في التعبد والإستجمام. وكان قد بدأ يهتم بالدار الآخرة، ويبحث عن مكان يأوي جثمانه؛ ولأنه من الميسورين، ولأن الفرع الرئيسي لمصنعه كان في حي الجمالية، فقد اتجه بنظره إلي صحراء المماليك المتاخمة لحي الجمالية وجبل الدراسة، أسوة بعظماء مصر الذين جهزوا لأنفسهم مقابر في هذه المنطقة.إستحوذ الشيخ الوقاد علي مساحة تقرب من عشرة أفدنة؛ حوّط عليها، زرعها كلها بأشجار الفاكهة، بجميع أنواعها، النبق والخوخ والتفاح والمانجو والكمثري والبرتقال واليوسفي والرمان والموز والعنب. دق أكثر من طلمبة لجلب المياه الجوفية. وكانت جثث الموتي السابقين في هذه المنطقة منذ الفتح العربي حتي بداية القرن الثامن عشر قد تحولت إلي تراب خصيب زحف علي صحراء المماليك كلها. ففي بحر سنوات قليلة أصبحت أشجار الوقاد بستانا من أعظم وأبدع بساتين القاهرة، في تنوع أشجاره وكثافتها بديع تنسيقها؛ فقد كانت تلك هوايته المفضلة : بَسْتَنَة الأشجار، تنسيقها وتشذيبها وإروائها. صارت حديقته مضرب الأمثال في قاهرة القرن الثامن عشر.

كان الرجل إلي ذلك مستنيرا، وبحكم احتكاكه بالأجانب من التجار والزبائن والجاليات كان يعرف بعض مفردات من بعض لغات أجنبية تمكنه من إجادة التفاهم. غير أن حصيلته من المفردات الفرنسية كانت أكبر.

وحينما اندس بين من جاءوا يودعون القصر بنظرة أخيرة قبل هدمه، كاد قلبه يتفتت حزنا علي هذا البناء الأثري الجميل المتين، الذي ربما لايجود الزمان بمثله. رأي بعض المهندسين المختصين يشرحون لبعضهم البعض خطة الإزالة؛ ووجد بعض المقاولين الذين جاءوا لشراء القصر أنقاض. جعل يتبادل الحديث مع بعض المهندسين المعجبين بطراز البناء ومنظر بوابات القصر ومافيها من مشغولات زخرفية. وفهم من خلل الحديث أن هذه البوابات وهذه الجدران ـ بفضل التقدم العلمي الحديث ـ يمكن نقلها من مكان إلي مكان. فأضاءت الفكرة في رأسه؛ وفي الحال دخل في مزايدة الشراء فرسي عليه العطاء.

وطبقا للخطة قام المهندسون الفرنسيون بشق الجدران بالمناشير وتحويلها إلي شرائح صغيرة. وجاءت العربات الكارو فحملتها بطريقة فنية مدروسة؛ كل شريحة تحمل رقما. ثم تبعها المهندسون إلي مقر البستان في مقابر المجاورين، حيث أخلي لها مكان مناسب؛ وتم تركيبها علي نفس النسق الذي كانت عليه في قصر الكورنيش؛ مجموعة بوابات تنسلخ من بعضها البعض، تفضي إلي عمق البستان. وكان الشيخ الوقاد قد اشتري القصر بملحقاته وبعض محتوياته. وهناك حوض استحمام من المرمر لا يزال مرميا في قلب البستان حتي اليوم. وقام

الشيخ الوقاد ببناء مسجد صغير جدا داخل البوابة الثالثة الداخلية، ومن خلفه المقبرة التي تم دفن جثمانه فيها بعد ذلك بسنوات طويلة؛ بعد أن حقق الله أمنيته في الإستمتاع بالقصر والبستان سنوات طويلة هي سنوات شيخوخته المتطامنة.

لقد حفظ هذا الشيخ الصالح قطعة معمارية تمثلت فيها ثقافة عصر من أهم العصور في مصر الحديثة. المدهش حقا أن تبقي هذه البوابات حتي الآن وعلي امتداد ما يقرب من مائة وسبعين عاما دون أن يصيبها أي خلل أو اهتزاز؛ بل إستطاعت أن تصمد أمام هذا الزلزال الخطير الذي اجتاح مصر ودمر معظم مبانيها الحديثة.

علي مدي ما يقرب من قرنين من الزمان صار أحفاد الشيخ الوقاد أشبه بقبيلة كبيرة، معظم أبنائها من الفقراء المعوزين. وحينما اشتدت أزمة الإسكان في مصر واستحكمت اضطر عدد كبير من هؤلاء الأحفاد إلي السكني في هذا البستان؛ فجاء بعضهم وأقام في بعض حجرات القصر.فغار منهم آخرون فجاءوا واحتلوا بعض الحجرات؛ فلعب الفأر في عب الباقين فجاءوا كلهم واحتلوا بقية الحجرات. قامت بينهم الخلافات؛ ولم يكن مفرا من التقسيم، فاستقل كل واحد بمساحة معينة قام بالتحويط عليها وتعديل نظامها كي يتناسب مع احتياجاته؛ وجري تقطيع معظم الأشجار النادرة؛ وجري تشويه كبير جدا لهذا الأثر الخطير. ولولا أن البوابات قد أصبحت خاضعة لهيمنة هيئة الآثار لجري فكها وبيعها هي الأخري.وتلك هي أبشع نذالات الزمن الوغد.

الزعر يأكلون الجبرتي

من حسن حظي أن مكثت سنين طويلة مقيما في حوش الوقاد الذي كان قصرا وبستانا لا مثيل له بين مباني هذه المنطقة. وإني لمدين لجوه الساحر وأشجارنبيقه بكتابة أعمال أدبية ما كان يتاح لها الخروج من الصدر إلا في جو كجوه وعزلة كعزلته. كما أني مدين له كذلك بمعرفة الكثير من أسرار المنطقة وخفاياها.

أغرب ماعرفته أنني ذات يوم صعدت إلي سطح مسجده، ونظرت في اتجاه الأوتوستراد، فوقع بصري في قلب حارة ضيقة متعرجة، ماتكاد تبدأ حتي تختفي. وكان منظرها يبدو كأنه رسم علي ورق. إندهشت غاية الدهشة لاعتقادي بأنني قد أصبحت أعرف كل خرم إبرة في الحي، فكيف لم أر هذه الحارة من قبل؟! إنها تتفرع من حارة أعرض قليلا إسمها .حارةالعجوز، المتفرعة بدورها من شارع السوق. إستعدت في ذهني منظر حارة العجوز خطوة خطوة فلم أجد لهذه العطفة أي أثر في ذاكرتي. وهذا غريب جدا، فحارة العجوز بالذات لايمكن أن أتوه

فيها، لأنها مواطن صديقي وملهمي عم احمد حماد بائع السمك في مزلقان منشية ناصر، الرجل الأعجوبة، الذي يمتلك موهبة كاتب كبير رغم أنه لا يعرف القراءة والكتابة. وقد دخلت هذه الحارة مرات لاحصر لها لزيارة عم احمد في منزله.

نزلت من فوق السطح وذهبت مباشرة إلي حارة العجوز فدخلتها.أخذت أذرعها جيئة وذهاباعدة مرات بحثا عن هذه الحارة الصغيرة المتفرعة منها كبرق خاطف،فلم أجد لها أثرا. فعدت إلي حوش الوقاد وصعدت مرة أخري لإعادة النظر؛ فطالعني منظر التفريعة الغريبة القائمة بين عدة أسقف متجاورة. وقع ذهني في بلبلة، وقلت لابد أنه شغل العفاريت.

صديقي الوقادي- الذي يستضيفني في هذا الحوش، لاحظ انشغالي وحيرتي، فسألني ما الأمر، فأشرت له علي الحارة إياها. فضحك حتي استلقي علي قفاه، وقال لي :

- الأمر وما فيه أن هذه التي تسميها حارة ليست بحارة !

- فماذا تكون يا تري ؟

هكذا سألته. فقال بعد تردد :

- إن الله حليم ستار !!

- يعني ماذا ؟!

- لاداعي للفضايح !!

- هل تستفزني ؟!

- لا ! مستعد لأن أقول لك ولكن بعد أن أخذ منك وعداً!

- بماذا ؟

- بأن لاتكتب ما أقوله لك في الصحافة ! بل تجعله سرا بيني وبينك !

- أعدك بهذا

-أحب أيضا أن أنبهك إلي عائلة (...) هل تعرفها ؟

هذه العائلة التي ذكرها لي أعرفها جيدا، ولي فيها صديقان كبيران يجلسان معي علي المقهي، أحدهما تجاوز السبعين من عمره والثاني في حوالي الستين، وهما أبناء عم. فأما الحاج (م) صاحب السبعين عاما فإنه رجل مسن وفي غاية اللطف؛ لايمل من الحديث في الفارغة والملانة، ولا يكف عن تدبير المقالب الساخرة التي قد تسفر أحيانا عن نتائج مؤسفة، قد تؤدي إلي معركة دامية، لولا أن براعته في تدارك الأمور وفض النزاعات لاتقل عن براعته في حبك المقلب وسبكه. شغلته الحالية جزار في المذبح؛ ولأنه :فارغ القامة ضخم الجثة ميت القلب فإنه متخصص في الإيقاع بالجمال التي يُزمع ذبحها إذ أنها تحتاج لمكر وقوة، فالجمل يدرك المرقف حين يساق إلي الذبح فيركبه الهياج ويفعل مالاتحمد عقباه. أماالثاني- وهو ابن عمه واسمه من النوع الذي يمكن إطلاقه علي الجنسين الذكروالأنثي- فإنه يعمل في المذبح أيضا ولكن في تسويق الجلود بعد ذبح الذبائح.

هذان هما أكبر رجلين في هذه العائلة. وهذه المهنة الحالية جديدة عليها ،بدأت منذ قيام الثورة. أما قبلها فكانت شغلة معظم رجال العائلة هي السطو علي القطارالحربي الذي لايزال يمر من هذه المنطقة حتي الآن، يبدأ من مكان ما في سفح الجبل فيصل إلي حلوان. كان بحمل المؤونة للجيش الإنجليزي، والذخيرة، وكان لابد أن يهدئ من سرعته حينما يبدأ الدخول في هذه المنطقة، فيكون الرجال في انتظاره لابدين في دروه. وكالبهلوانات المدربة يقفز الواحد منهم إلي عربة من عربات القطار، ليدحرج الأجولة أو الصناديق أو اللفائف، رمي بها علي شاطيء السكة الحديدية؛ وإذ ينتهي من هذه المهمة يسارع بالقفز إلي الأرض، ثم يشرع في جمع مارماه، حيث يكون في انتظاره رجال أخرون بعربات اليد والترسيكلات والدراجات والدواب، فيقومون بنقل هذه الغنائم إلي مخابيء سرية، ليتم بيعها.وبهذه الطريقة تمكنوا من صنع ثروة لابأس بها. مع ملاحظة أن العمل الأصلي لأبيهم كان خفارة المقابر؛ وشأن خفراء المقابر لابد أن يختار حوشا من الأحواش التابعة لخفارته ليقيم فيه. علي أنه - فيما سمعت - قد اختار فأجاد الإختيار بمكر ودهاء شديدين.

قلت لصديق الوقادي :

- نعم أعرف هذه العائلة فماذا بشأنها ؟

قال وقد عاد إليه تردده :

- لاتُظهر أمام أحد منهم أنك عرفت شيئا مما سأقوله لك !

- إطمئن !

قال : - هذه التي تظنها حارة هي قبر تم تهريبه بصنعة لطافة

- كيف ؟ وقبر من هو أولا ؟

قال :

- قبر رجل مهم في التاريخ إسمه الجبرتي !

- الجبرتي ؟! عبد الرحمن الجبرتي؟! المؤرخ الشهير ؟!

- نعم هو

- ولكن كيف تم تهريبه ؟!

- لأن الحكومة نايمه في العسل كعادتها دائما ! ويظهر أنها لاتعرف من هو الجبرتي ! ولاتعرف شيئا عن هذا القبر ! مع أن الرخامة الكبيرة المبنية في الشاهد مكتوب عليها : هذا قبر المغفور له الشيخ عبد الرحمن الرجبرتي المؤرخ المعروف.

شبت النار في عروقي. قلت :

- ولكن لماذا يهربونه ؟!

قال ضاحكا :

- لأنه يقف لهم كاللقمة في الزور! إنه يحتل مساحة كبيرة كما تري! وهم قد استولوا بوضع اليد علي ثلاثة حيشان كبيرة إنقرض أصحابها الذين كانوا من عليه القوم! كل حوش يزيد علي أكثر من فدان ! إن أحداً في أيامنا هذه لايستطيع البناء بهذه الطريقة السخيفة !

وأصحابنا هؤلاء أرادوا دمج الحيشان الثلاثة في بيت واحد ! فاعترضهم قبر الجبرتي ! وهم واثقون أن الجبرتي لن يسأل عنه أحد ! لكنهم أذكياء ! يقولون ربما وقعت الطوبة في المعطوبة ذات يوم وانتبهت الحكومة وجاءت تبحث عن قبر الجبرتي فلا بد أن يثبتوا حُسن نيتهم ! فماذا فعلوا؟ دمجوا الحيشان من الخارج فمن براها الأن وهو يمر في الحارة لا يخطر بباله أي شك ! فمنظر البيت من الخارج منظر بيت واحد! وقاموا بالتحويط علي قبر الجبرتي من الداخل بما يشبه الحارة! حتي إذا جاء من يسأل أدخلوه إلي القبر وأظهروا أنهم قاموا بحماية القبر من الضياع ! ولربما كافأتهم الحكومة بتحسين مدخل البيت وتعينهم حراسا علي القبر بشكل رسمي! وهذا بالطبع شيء مؤقت فالقبر ضائع لامحالة!!

قلت لصديقي الوقادي:

- ولكن من أدراهم بأن هذا المدفون في هذا القبر شخص ذو قيمة في البلاد؟ إنهم ناس من أهل القرون الوسطي كما يبدو من عقلياتهم وتصرفاتهم؟!

قال :

- هل نسيت أن الراديو والتلفزيون يذيعان عن الجبرتي دائما ؟ كما أن هؤلاء الناس عندهم أولاد في المدارس يعرفون الجبرتي! وربما تندهش إذا قلت لك أنني رأيت عندهم كتاب الجبرتي.

وجدتني أضحك من الأعماق ضحكا ساخرا؛ فالزعر والحرافيش الذين طالما ندد الجبرتي بسلوكاتهم الخرقاء، قد انتقموا منه الآن شرانتقام.

برقوق والبرقوقية

لعل هذا المَعْلم الأخير في حي قايتباي من أهم المعالم وأخطرها في مصر علي الإطلاق من حيث الجمال الفني، والمنظر البديع الذي يسر النفس حقا ويملأها بكثير من البهجة والعزة والفرح. أعني جامع برقوق؛ الذي يحضر لزيارته طوائف لاحصر لها من جميع أنحاء العالم، يقف الجميع أمامها مبهورا ذاهلا.

ومع ذلك فإن هذه التحفة العظيمة لاتلقي من الحكومة المصرية أدني اهتمام!..

ويبدوا أنها قطعة فنية سيئة الحظ لأن التاريخ لم يتوقف عندها. فقد بحثت في معظم المصادر التاريخية في عصرها فلم أجد لها أثرا بين الجوامع أو المساجد؛ علي الرغم من أن المقريزي - ومن بعده علي مبارك - أرخ كل منهما لكل زاوية وعطفة، وترجم لكل قطعة حجر في الطريق؛ إلاجامع برقوق، أروع وأكمل بناء معماري أثري إسلامي في مصر. ذلك أنها، رغم المئذنة السامقة، ليست محسوبة بين الجوامع أو المساجد أو حتى الزوايا.

وقد تبين لي أثناء البحث أنها حملت وزر صاحبها، فقد كان برقوق من أسوأ السلاطين في العصر المملوكي المصري. وقد غطي المقريزي فترات طويلة من حكم مصر، كما غطي مساحات أطول من أرضها، سواء في كتاب [السلوك]، أو في كتاب [الخطط]؛ فكان يفيض في الحديث عن الشيء أو الشخص مجتهدا في تقديم أكبر قدر ممكن من المعلومات الخاصة بالتاريخ والجغرافيا والإقتصاد. إلا بالنسبة لبرقوق؛ لاحظت أنه يبتسر الكلام يكاد يضن بالحديث عن الرجل، مما يعكس كرها واحتقارا له ولكل أفعاله وأفاعيله؛ ولولا أنه ملتزم بأمانة المؤرخ لترك العنان لرأيه الشخصي. ويبدو أن شيئا كهذا قد حدث؛ لأن ابو المحاسن ابن تغري بردي - تلميذه وناقل عنه - قد راجعه في كثير من النقاط حينما أعاد الكتابة عن سلطنة برقوق؛ ليس دفاعا عن برقوق، بل تصحيحا لبعض الملابسات لكن في إطار من الكراهية لذلك السلطان الخسيس النذل؛ الأمر الذي يوحي بأن المقريزي كتب عن هذا السلطان بقرف واستخفاف وقلة حماس. وعن ابن تغري نأخذ تعريفه لهذا الرجل:السلطان الملك الظاهر أبو سعيد سيف الدين برقوق بن آنص العثماني اليلبغاوي الجاركسي القائم بدولة الجراكسة بالديار المصرية؛ هو السلطان الخامس والعشرون من ملوك الترك بالديار المصرية والثاني من الجراكسة. جلس علي تخت الملك في وقت الظهر من يوم الأربعاء تاسع عشر شهر رمضان سنة أربع وثمانين وسبعمائه الموافق له آخر يوم

هاتور وسادس تشرين الثاني، بعد أن اجتمع الخليفة المتوكل علي الله أبو عبد الله محمد والقضاةُ وشيخُ الإسلام سراج الدين عمر البلقيني وخطب الخليفة المتوكل علي الله خطبة بليغة ثم بايعه علي السلطنة وقلده أمور المملكة. وكان طالع جلوسه علي تخت الملك بُرج الحوت والشمس في القوس متصلة بالقمر تثليثاً والقمرُ بالأسد فصل بالمشتري تثليثاً وزحل بالثور راجعاً والمشتري بالحمل متصل بعطارد من تسديس والمريخ بالجوزاء في شرقه والزهراء بالعقرب وعطارد بالقوس.

وأصله من بلاد الجاركس؛ ثم أخذ من بلاده وبيع بمدينة قرم فاشتراه خواجا عثمان بن مسافر جلبه إلي مصر فاشتراه منه الأتابك يلبغا العمري الخاصكي الناصري في حدود سنة أربع وستين وسبعمائة أو قبلها بيسير وأعتقه وجعله من جملة مماليكه، واستمر بخدمته إلي أن ثارت مماليك يبلغا عليه وقتل في سنة ثمان وستين وسبعمائه، فلم يعرف إن كان برقوق ممن هو مع أستاذه يبلغا أم كان عليه. ولماقتل يبلغا وتمزقت مماليكه وحبس أكثرهم حبس برقوق هذا مع من حبس مدة طويلة. ثم أفرج عنه وخدم عند الأمير منجك اليوسفي نائب الشام سنين إلي أن طلب الملك الأشرف مماليك يبلغاإلي الديار المصرية حضر برقوق هذا من جملتهم وصار بخدمة الأسياد أولاد الملك الأشرف جنديا ولم يزل علي ذلك حتي ثار مع من ثار من ممالك يبلغا علي الملك الأشرف شعبان في نوبة قرطاي وأينبك وغيرهما في سنة ثمان وسبعين وسبعمائة وقتل الأشرف.

ثم لما وقع بين أينبك وقرطاي وانتصر أينبك علي قرطاي أنعم أينبك عليه بإمرة طبلخاناه دفعة واحدة من الجندية، فدام علي ذلك نحو الشهر، وخرج أيضا مع من خرج علي أينبك من اليلبغاوية فأخذ إمرة مائة وتقدمة ألف وكذلك وقع لرفيقه بركة. ثم صار بعد أيام قليلة أمير آخور كبيرا ودام علي ذلك دون السنة واتفق مع الأمير بركة علي مسك طشتمر الدوادار ومسكاه بالفعل، وتقاسما المملكة وصار برقوق أتابك العسكر، وبركة رأس نوبة الأمراء أطابكاً. فدام علي ذلك من سنة تسع وسبعين إلي سنة اثنتين وثمانين ووقع بينه وبين خشداشه بركة وقبض عليه بعد أمور وحروب، وصفاله الوقت إلي أن تسلطن.

وكان السلطان برقوق من أشد السلاطين المماليك شرها في جمع المال، فيستولي علي أموال الناس بغير حق، وبغير ذنب، يكفي أن ينقل إليه أحد خاصته خبرا عن ثروة أحد التجار أو أحد الموظفين، فيأمر في الحال بالإستيلاء عليها. وفي عهده كثرت المصادرات والمصادمات وعمت الفوضي.

كذلك كان من أعنف السلاطين، ميت القلب والضمير والشعور. وهو السلطان الوحيد الذي رفع السيف علي الخليفه يريد قتله، وكان الخليفه حينذاك هو المتوكل، لمجرد أن أحدهم وشي بالخليفة. ولم يتورع عن سجن خليفة المسلمين في الإسطبل وتعذيبه وتمريغ كرامته في التراب. يقول ابن تغري بردي : فاشتد حنق الملك الظاهر وسن السيف ليضرب عنق

الخليفة، فقام سودون النائب وحال بينه وبين الخليفه. واستدعي القضاة ليفتوه بقل الخليفة فلم يفتوه وقاموا عنه، فأخد الخليفة وسجنه بموضع في قلعة الجبل وهو مقيد.

وأما هذا الجامع العظيم، جامع برقوق الذي يقف حتي الآن شامخا فوق جبل المقطم، فقد اتضح أنه مدرسة، ولهذا لم يذكر في كتب التاريخ بين الجوامع والمساجد وحتي حينما ذكره المقريزي كمدرسه ذكره في ثلاثة أسطر فحسب، ولم يتكلم عنه بإفاضة كعادته في الكلام علي بقيه الآثار.

وقصة هذه المدرسة أن السلطان برقوق استبدل خان الزكاة - الذي كان قائما في موقع هذه المدرسة - من ذرية الملك الناصر محمد بن قلاوون بقطعة أرض، وأمر بهدمه وعمارة مدرسة مكانه، وأقام السلطان علي عمارتها الأمير جاركس الخليلي أمير آخور، الذي كان مغرما بإقامة الأبنيه؛ فالجدير بالذكر أنه هو الذي هدم التربة المعزية وأقام فوقها خان الخليلي الذي سمي باسمه، لكي يدر دخلا يذهب لفقراء مكه. ويقول الدكتور محمد رمزي : هذه المدرسة هي بذاتها المدرسة البرقوقية التي أنشأها السلطان برقوق فبدأ في وضع أساسها يوم ٨ ذي القعدة من سنة ٧٨٦ هـ وأتم بناءها مستهل ربيع الأول سنة ٧٨٨ وكما هو ثابت بالنقش في عصابة ممتدة بأعلي حائط وجهة المدرسة. ثم تكرر إثبات هذا التاريخ في عدة مواضع منها، مذكور فيها بعد البسملة: أمر

بإنشاء هذه المدرسة المباركة والخانقاه مولانا السلطان الملك الظاهر سيف الدين والدنيا أبو سعيد برقوق وكان الفراغ منها في مستهل ربيع الأول سنة ٧٨٨ هـ. وذكرها المقريزي في خططه باسم الخانقاه الظاهرية فقال : إن هذه الخانقاه بخط بين القصرين فيما بين المدرسة الناصرية ودار الحديث الكاملية،أنشأها الملك الظاهر برقوق في سنة ٧٨٦ هـ. ولم يتكلم عليها تفصيلا بل إن هذه المدرسة - يقول الدكتور رمزي - التي يقال لها اليوم جامع السلطان برقوق لاتزال قائمة وعامرة بالشعائر الدينية بشارع المعز لدين الله الذي كان يسمي هذه المنطقة بشارع النحاسين وشارع بين القصرين بالقاهرة. وهذا الجامع من أجمل وأبدع مساجد القاهرة في البناء والزخرفة،

ويقول ابن تغري بردي : ثم في يوم الأربعاء حادي عشرة نزل الأميرجاركس الخليلي الأمير آخور إلي المدرسة الظاهرية بعد فراغها وهيأ بها الأطعمة والحلاوات والفواكه. ثم ركب السلطان من الغد في يوم الخميس ونزل من القلعة بأمرائه وخاصكيته إلي المدرسة المذكورة، وقد اجتمع القضاة وأعيان الدولة، فمد بين يديه سماطا جليلا، أوله عند المحراب وآخره عند البحيرة التي بوسط المدرسة، وأكل السلطان والقضاة والأمراء والمماليك، ثم تناهبت الناس بقيته، ثم مد سماط الحلوات والفواكه وملئت البحرة التي بوسط المدرسة من مشروب السكر، ثم بعد رفع السماط أخلع السلطان علي الشيخ علاء الدين علي السيرامي

الحنفي وقد إستدعاه السلطان من بلاد الشرق واستقر مدرس الحنفية وشيخ الصوفية وفرش له الأمير جاركس الخليلي السجادة بيده حتي جلس عليها ثم خلع السلطان علي الأمير جاركس الخليلي شاد عمارة المدرسة المذكورة وعلي المعلم شهاب الدين أحمد بن الطولوني المهندس وركبا فرسين بقماش ذهب. ثم خلع السلطان علي خمسة عشر نفراً من مماليك جاركس الخليلي ممن باشروا العمل مع استاذهم وأنعم علي كل منهم بخمسمائة درهم. ثم خلع السلطان علي مباشري العمارة. ولما جلس الشيخ علاء الدين السيرامي علي السجادة تكلم علي قوله تعالي : (قل اللهم مالك، الملك) الآية. ثم قرأ القاريء عشرا من القرآن ودعا. وقام السلطان وركب بأمرائه وخاصكيته وعاد إلي القلعة، بعد أن خرج من باب زويله، فكان هذا اليوم من الأيام المشهودة.

الحي الثاني

سبع مداخل إلي الباطلية

المنطقة التي تهبط رأسيا من جبل الدراسة حتي شارع فؤاد أو ما يسمي بوسط المدينة، مرورا بحي الأزبكية، وتمتد أفقيا من حدود قلعة صلاح الدين حتي حي العباسية، تسمي القاهرة، وكانت في الأصل ضاحيه، إختطها القائد جوهر الصقلي ليلة دخوله مصر غازيا بأمر مولاه المعز لدين الله الفاطمي معد، حيث حضر بصحبته لفيف من المهندسين المغاربة ومعهم تخطيط مبدئي شرعوا في تنفيذه بمجرد وصولهم، إختطوا جامعا كبيرا هو الجامع الأزهر، وقصرا كبير سمي بالقصر الشرقي الكبير أو قصر الخلافة الفاطمية، وكان يحتل المساحة التي تبدأ من شارع صلاح سالم الحالي حتي نهاية حي خان الخليلي، وهذا الحي الأخير كان مقر الطربه المعزية، أو تربة الزعفران، حيث أتي الخليفة معه برفات أهله وأعاد دفنهم فيها، وكانت هذه سنة متبعة.

فكل غازٍ جديد يدخل مصر يبني له ضاحية خاصه يسكنها مع حاشيته، إبتداء من الفسطاط، ثم العسكر، ثم القطائع وحينما تدول دوله

الغازي، يجور الزمان علي ضاحيته، فما تلبث حتي تصبح مسكنا للعامة وهذا ما حدث لضاحية القاهرة، فمنذ أن دخل صلاح الدين الأيوبي إلي مصر وقام بتصفية الدولة الفاطمية، استباح حرمة الأسرة نفسها، فنكل بها شر تنكيل، صادر كل أموالها وممتلكاتها، وعزل رجالها عن نسائها، فاستبيحت الضاحية تماما، وتحول ميدان بين القصرين - الذي يفصل بين القصر الشرقي الكبير، قصر الخلافة، والقصر الغربي الصغير، قصر الحريم - إلي سويقة يؤمها الباعة بالبطيخ والفاكهة والملابس المستعملة، وأصبح الجامع الأزهر مرتعا لذوي العاهات والمجاذيب والمتسولين، رغم بقائه كمدرسة عاليـة للعلوم الدينية.

إستقر في القاهرة السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، وابنه الملك العزيز عثمان، وابنه المنصور محمد، ثم الملك العادل أبو بكر بن أيوب، وإبنه الملك الكامل محمد وانتقل من القاهرة إلي قلعة الجبل، فسكنها بحرمه وخواصه، وسكنها الملوك من بعده.

صارت القاهرة مدينة سكني بعدما كانت حصنا يعتقل به ودار خلافة يلتجأ إليها، فهانت بعد العز، وابتذلت بعد الإحترام.

علي أن الهوان والإبتذال كانا كامنين في القاهرة منذ تأسيسها، وكانت حارة الباطلية هي عنوان الهوان والإبتذال، وهي حارة ملاصقة لمبني الأزهر الشريف، تلتف حوله وتكاد تبتلعه، وكأنها تحقيق للنبوءة التي اذيعت يوم بناء القاهرة، يوم السبت لست بقين من جمادي الآخرة

سنة تسع وخمسين وثلاثمائه حيث أصبح الناس ففوجئوا بالأسس محفورة، وجلس البناءون في انتظار فأل حسن كي يسرعوا في البناء، وكان الفلكيون المغاربة قد استقروا فوق قمة المقطم بأجهزتهم يدرسون حركة الأبراج، بحيث إذا دخل برج معين في مدار برج معين أعطوا الأمر بالبناء في الحال، وكانت المشكلة أمام المنجمين هى أن أمرهم حين يصدر بالبدء في البناء يكون علي العمال أن يبدأو في الحال دون أن يفصل بين صدور الأمر والبدء الفعلي ولو ثانيه واحدة.. فكيف تأتي لهم تحقيق ذلك ؟ وضعوا قوائم تشبه خشبات حراس المرمي في كرة القدم في مربع يبلغ كل ضلع من أضلاعه ألفا ومائتين من الياردات.. ثم علقوا أجراسا علي الحبال من قائم إلي أخر، فحينما يتفق العلماء المنجمون علي حسن الطالع يشدون طرف الحبل من عندهم، فتدق الأجراس. فيبدأ العمال العمل في الحال، وبعد قليل دقت الأجراس فبدأ العمل، وما كاد العمل يمضى علي قدم وساق حتي فوجىء العمال بوفد جاء يجري لاهثا يأمر بالتوقف عن العمل، ذلك أن غرابا حلا له الوقوف علي الحبل الممتد، ثم غادره، فاهتز الحبل بشدة فقرعت الأجراس ولحظتها لم يكن الطالع سعيدا علي الإطلاق، لأن كوكب المريخ - القاهر - كان في صعود، وهذا الغراب الأحمق هو الذي أعطى الأمر بالبناء، وهكذا وقع الجميع في حيص بيص، فالفأل سيء في الحالين، إذا استمروا مع سوء الطالع، أو إذا أوقفوا بعد البدء، ولكن جوهر الصقلي

أراد أن يتفاءل بالتشاؤم الحادث، فقال: ليكن كوكب القاهر في صعود، فلنسم المدينه الجديدة باسم القاهرة، ورغم تفاؤله فإن المنجمين توقعوا أن تعيش المدينه طول عمرها في غم وهم ونكد وقهر عظيم.

وبالفعل ظلت القاهرة تخرج من أسر إلي أسر حتي هذه اللحظة، تغلب عليها الغزاة من كل جنس وملة، وراح السكان يلتمسون الأنس المصطنع في أكسير الحشيش تمدهم به حارة الباطلية.

ويوم اختط جوهر المدينه لمولاه، اختطت كل قبيلة من جيوشه خطة عرفت بها لا تزال تحمل اسمها حتي اليوم، فلا شيء يضيع في مصر مطلقا وتلك ميزتها ومأساتها في نفس الوقت: فزويلة بنت الحارة المعروفة بها، واختطت جماعة من أهل برقة حارة البرقية، وإختطت الروم حارتين.

وكان للجامع الأزهر في عصره الفاطمي الزاهر أثره السلبي في الحواري المتاخمة له يضاهي أثره العلمي، ذلك أن صيغه الردح المصرية الشهيرة « جري إيه يا عو..ووو..مر » أصلها من الجامع الأزهر، فلقد كان الخطباء الفاطميون علي منبره العتيد لا يكفون عن مهاجمة الصحابه وخاصة عمر بن الخطاب، إذ ينفعل الخطيب انفعالا حارا وهو يشوح بيديه مرددا عبارات مطوطة بنغمه الهزء والاستخفاف والسخرية، من قبيل - مثلا مثلا « فكيف هذا يا عوومر ؟ من أين جئت بهذا الكلام يا عوومر ؟ خسئت يا عوومر » ويا عومر، تحولت العبارة علي ألسنة نسوان الحواري إلي صيغة الردح يتعاركون بها، وشيوع هذه الصيغة بين نسوة هاتيك الحواري إنما هو فيض من السخرية المرة والهزء بالخطباء الفاطميين وكأن الواحدة منهن تريد أن تحط من شأن زميلتها فتكتفي بتذكيرها بانحطاط الخطباء علي المنبر، بقولها - فحسب - يا عوووومر !!

المدخل الهديم

لم تعد حارة الباطلية هي فحسب الحارة التي تمتد من الجانب الأيسر للجامع الأزهر حتي تنتهي علي بقايا جبل الدراسة الذي أصبح مجموعة من أكوام القمامة، إنما أصبحت حيا كبيرا جدا، يستوعب عددا كبيراً من الحوارى الضيقة والعطفات والأزقة، حيث تمتد شرقا حتي باب زويله بما في ذلك الغورية وحوش أدم - خشقدم - وحارة الروم ودرب البرقية والكحكيين، ومنطقة فاطمة النبوية بمسجدها الشهير، وشارع جامع أصلان الذي هو امتداد لها إلي جامع الصالح طلائع الذى كان معدا في الأصل ليدفن فيه رأس الحسين لولا أن النحس أحاطه في مسألة توصيل المياه إليه حيث فشلت كل الوسائل، فصرفوا النظر عنه إلي مسجد الحسين الحالي، وكانت أرضه في الزمن الزاهر مقرا لخزانة البنود الملحقة بقصر الخلافه الفاطمي

الحشاشون الحوافون كانوا يفضلون دخول الباطلية من أعلاها، من فوق هذا الجبل التعيس المنهزم كبيوت هذا الحي العتيق، التي تبدو

كأنها آيلة للسقوط من مئات السنين، بل أن بعضها ساقط بالفعل لكنه متساند علي بعضه البعض، وعلي هديم مرتفع، ولو تأملت في الجدران الصدئه المتآكلة الهرمة لراعتك جواهر معمارية لا مثيل لها في عصرنا ولا يوجد من يقدر علي صنعها في هذا الزمن، بلكونات محندقة، تراسينات نحاسيه، مشربيات كالعلب السحرية بارزة، زخارف منحوته علي البوابات، عمائر حميمة يتكون بعضها من سبع طوابق تتصاعد منها روائح الرطوبة والعرق ومياه الحموم العطنه، مخلوطة بروائح احتراق التبغ والصنان، ونكهات الحشيش الطازج، والخضروات البايته، وروائح العطارة النفاذة، مهرجان هائل من الروائح يزكم الأنوف الحساسة لكنها ماتلبث حتي تفقد حساسيتها بعد أقل من جولة في الحي وتتوق نفوس أصحابها إلي قعدة علي مقهي من هذه المقاهي الصغيرة الفارشة كراسيها علي الأرصفة وفي قلب الحواري وفوق الكيمان.

الدخول من الجبل مأمون إلي حد ما، وسهل، وقليلاً ما تتمكن الحكومة من الإمساك بزبون، لان الطريق مفتوح للحى في منافذ متعددة، وثمة أماكن للإختباء، وعلي طول الجبل يلتقيك عشرات من الصبيان كل منهم يحمل كيس الحشيش أو كيسه من العبك ملآنه بالقطع الملفوفة في أحجام مختلفة من ربع قرش إلي نصف قرش إلي قرش، ومن أنواع متعددة يميز بينها لون ورق السوليفان، لأن الأصفر بكذا والأحمر بكذا والأخضر بكذا، هذا هو السوق الهامشى، الطياري

يتم فيه اصطياد الزبائن الغشيمة، ليسكها الصبى في البيعة، أصنافا رديئة بسعر الأصناف الجيدة، ولكى يتقن البيع فإنه يرهب الزبون باستمرار: بسرعة يا أفندى، الحكومة هنا، خلصنا، إرجع من الطريق الفلاني.. الخ.

جبل الدراسة قد لحقه الهوان منذ التصاقه بحي الدراسة، كان اسمه جبل اليحموم أو الجبل الأحمر، مطل علي القاهرة من شرقيها الشمالي، قال القاضى القضاعي : اليحاميم هي الجبال المتفرقة المطلة علي القاهرة، من جانبها الشرقي ؛ وتنتهي هذه الجبال إلي بعض طرق الجب، وقيل لها اليحاميم لاختلاف ألوانها، واليحموم في كلام العرب الأسود المظلم

وقال ابن عبد الحكم عن سعد بن عبيد، إنه لما قدم مصر وأهل مصر قد اتخذوا مصلي بحذاء ساقيه أبي عون التي في العسكر، فقال : مالهم وضـــع مصلاهـــم في الجبل الملعون وتركوا الجبل المقدس (يعني المقطم) ؟

فهو إذن جبل ملعون من قديم الزمن، مثلما حي الباطلية ملعون من الحكومة معرض لهجماتها ليل نهار، ولكنه حي محبوب من الكافة، اذ هو مصدر روقان المزاج وهو مقترن في الأذهان بكل ما يتصل بروقان المزاج، وله في النفوس مدلولات جنسيه، فطلوع الجبل في أذهان العامة يعني اعتلاء النساء في بهجة الأنفاس المعطرة بالدخان الأزرق والأفيون كترياق أسود، وأنواع متعددة من الخلطات الشعبية يصنعها خبراء الحي من توليفه من العطارة مع جوز الطيب ليأكلها الكييف كالشيكولاته

فتصيبه بالتهيج الجنسي وتؤدي الي تأخير في عملية القذف، وأنواع أخري من الادهنة، خاصة ما يسمي بحجر جهنم، وهو نوع من الأحجار كاللادن تسيح في قليل من الماء ليدهن بها رأس العضو فتخدره.

ولكن، لماذا سمي حي الباطلية باسم الباطلية ؟!

التاريخ يؤكد أنها حارة قديمة نشأت مع العصر الفاطمي، والعامة الذين ينطقون اسمها محرفا : الباطنيه، يشيعون حولها الأساطير، من قبيل أن سكانها الأوائل كانوا من الباطنيين، أصحاب فلسفة الباطنية، التي تؤمن بأن الله لن يحاسب العباد يوم القيامة إلاَّ بِنَاءً علي ما يبطنون بصرف النظر عما يظهرون وهذا تخريف من تخاريف العوام، وأما الحقيقة فيوردها المقريزي في خططه علي هذا النحو:

حارة الباطلية عرفت بطائفة يقال لهم الباطلية، وكان المعز لما قسم العطاء في الناس، جاءت طائفة فسألت عطاء، فقيل لهم : فرغ ما كان حاضرا، ولم يبق شيء، فقالوا : رحنا نحن في الباطل.. فسموا الباطلية، وعرفت هذه الحارة بهم.

وفي سنة ثلاث وستين وستمائه احترقت حارة الباطلية، عندما كثر الحريق في القاهرة ومصر، واتهم النصاري بفعل ذلك، فجمعهم الملك الظاهر بيبرس، وحملت لهم الأحطاب الكثيرة والحلفاء، وقدموا ليحرقوا بالنار، فتشفع لهم الأمير فارس الدين أقطاي أتابك العساكر علي أن يلتزموا بالأموال التي احترقت، وأن يحملوا إلي بيت المال خمسين ألف دينار.. فتركوا

وجري في ذلك ما تستحسن حكايته، وهو أنه قد جمع مع النصاري سائر اليهود، وركب السلطان ليحرقهم بظاهر القاهرة، وقد اجتمع الناس من كل مكان للتشفي بحريقهم لما نالهم من البلاء فيما دهوا به الناس من حريق الأماكن لا سيما الباطلية فإنها أتت النار عليها حتي حرقت بأسرها.

فلما حضر السلطان، وقُدِّم اليهود والنصاري ليحرقوا، برز ابن الكارزوني اليهودي - وكان صيرفيا - وقال للسلطان : سألتك الله لا تحرقنا مع هؤلاء الكلاب أعدائنا وأعدائكم، أحرقنا ناحية وحدنا.

فضحك السلطان والأمراء، وحينئذ تقرر الأمر علي ما ذكر، فندب لاستخراج المال منهم الأمير سيف الدين بلبان المهراني، فاستخلص بعض ذلك في عدة سنين وتطاول الحال فدخل كتاب الأمراء مع مخاديمهم، وتحيلوا في إبطال ما بقى، فبطل في أيام السعيد بن الظاهر.

وكان سبب فعل النصاري لهذا الحريق حنقهم لما أخذ الظاهر من الفرنج ار سوف وقيسارية وطرابلس وبا فاو أنطاكية.

ومازالت الباطلية خرابا، والناس تضرب بحريقها المثل لمن يشرب الماء كثيرا فيقولون : كأن في باطنه حريق الباطلية.

ولما عمر الطواشي بهادر المقدم داره بالباطلية، عمر فيها مواضع بعد سنة خمس وثمانين وسبعمائة.

تلك هي حارة الباطلية كما قدمها المقريزي.

ولكن لأن التاريخ يلعب دائما في الجغرافيا، كما أن الجغرافيا كثيرا ما تحرك التاريخ، أماما أو خلفا، فإن حارة الباطلية قد اتسعت في

العصور الحديثة فاستوعبت كل ما حولها وما يتفرع من حواري ودروب، فاذا كانت الدروب والأزقة المتفرعة منها تعتبر في الأصل جزءاً لا يتجزأ من جغرافيتها البريدية، بمعني أى أن خطاب يرد إلي أحد في درب من هذه الدروب لابد أن يكتب علي مظروفه : متفرع من حارة الباطلية، إذا كان ذلك كذلك : فإن انتشار تجارة المخدرات في حالة الباطلية،وتحولها إلي سوق حقيقية بكل ما تحمله الكلمة من معني، وتضخم نشاط معظم التجار، وتفريخ أعداد لا حصر لها من الصبيان المساعدين للتجار، كل ذلك أدي إلي زحف التجارة المحرمة علي المنطقة الأزهرية كلها، التي سبق أن حددناها آنفا، فأصبحت الجماهير تطلق اسم الباطلية علي هذه المنطقة كلها، وكأنما اسم الباطلية قد أصبح مرادفا للحشيش والأفيون، لدرجة أن الصحف المصرية حينما تريد القول إن منطقة من المناطق أصبح ينتشر فيها بيع الحشيش، والمخدرات، فإنها تقول في مانشتاتها : لقد صارت المنطقة الفلانيه باطلية أخري، كمدينه السلام مثلا، أو منطقة الدويقه العشوائية في قلب جبل المقطم، فهذه الأخيرة قد رحل إليها معظم الصبيان الذين كانوا يساعدون كبار تجار الباطلية حينما أصرت حكومة الرئيس مبارك علي مطاردة كبار التجار.

وثمة عوامل جغرافية ساعدت علي أن تكون هذه المنطقة مأوي لتجار المخدرات، أهمها خطتها المعمارية القديمة التي كانت طابعا مميزا لعمارة المدن الإسلامية في العصور الوسطى، فهي حارة ضيقة، والبيوت

متكاثفة بشكل يقيم الألفة والتضافر بين سكانها، ثم إنها متلولبة، وفي هذا الصدد يقول المعماري الراحل حسن فتحي إن الشوارع والحواري في المدن الإسلامية القديمة كانت تتلولب هكذا لتزيل الملل عن نفس السائر فيها لطولها الشديد، بحيث أن الماشى خلالها يفاجأ كل حين ببروز يعترض امتداد بصره موحيا اليه أن الحارة ستنتهي عنده بعد قليل، فما أن يصل إليه حتي يفاجأ بأنه مجرد منعطف إلي اليمين أو إلي اليسار هكذا الشكل اللولبي للحارة مع ضيقها - يصعب من مهمة رجال الشرطة عند مهاجمتها، فلا يدخلونها إلاراجلين، ومن منعطف إلي منعطف يكون خبرهم قد وصل إلي التجار فيحتاطون، ثم أن كثرة الأزقة والدروب المتفرعة من الحارة، التي غالبا ما توصل إلي بعضها أو إلي أماكن بعيدة، يعطى للهاربين فرصا كثيرة للإختباء أو الزوغان أو التخلص من جسم الجريمة، كما وأن كثرة الخرائب وانتشار الهديم بين كل عطفة وأخري يجعل منها مخازن مؤقته في اللحظات الحرجة، خاصة أن السقوط في إحدي هذه الخرائب أو الدخول إليها ليس يتاح بسهولة إلا لأبناء الحارة فحسب.

أهم هذه الأزقة والدروب التي استوطنها كبار التجار هي حارة الروم، وحارة الديلم، ودرب الأتراك، وحارة شق العرسه، وحوش آدم - خشقدم - وحارة زويلة، وحارة النبوية، وبعض هذه الحواري تنسب إلي حي الغورية جغرافيا، وإلي الباطلية عمليا وتجاريا.

عمر هذه الحواري يزيد علي الألف عام، فحارة الروم كما أسلفنا اختطها نفر من الروم المصاحبين لجيش جوهر الصقلي عند فتحه لمصر، يقول ابن عبد الظاهر، واختطت الروم حارتين، حارة الروم الآن، وحارة الروم الجوانية.

فلما ثقل ذلك عليهم قالوا : الجوانيه لاغير، والوراقون إلي هذا الوقت - يقول المقريزي - يكبئون حارة الروم السفلي، وحارة الروم العليا المعروفة اليوم بالجوانيه، وفي سابع عشر ذي الحجة سنه تسع وتسعين وثلاثمائه أمر الخليفة الحاكم بأمر الله بهدم حارة الروم السفلي، فهدمت ونهبت.

أما حارة الديلم فقد عرفت بذلك لترول الديلم الواصلين مع هفتكين الشرابي حين قدم ومعه أولاد مولاه معز الدوله البويهي وجماعة من الديلم والاتراك، في سنه ثمان وستين وثلاثمائه، فسكنوا بها فعرفت بهم، وهذا الرجل التركي - من عجب - حارب المعز لدين الله الفاطمي في دمشق وكل البلاد التي كانت خاضعة لسطانه، قادما من بغداد لإقامة الخطبة العباسية، وكانت الحرب حتي مات المعز فاستأنفها ابنه العزيز بالله نزار وبعد حصار وقتل عنيف جيء بهفتكين ورجاله أسري، فطيف بهم في القاهرة، ثم عاد العزيز بالله فأكرمه وخلع عليه وأجري عليه النفقات، فعاش في القاهرة معززا مكرما إلي أن مات في سنة اثنين وسبعين وثلاثمائه، فاتهم العزيز وزيره يعقوب إبن كلس أنه سمه

لأن هفنكين كان يترفع عليه، فاعتقله مدة ثم أخرجه !! ويبدو أن هذا هو قدر مصر العجيب : يكرم فيها العدو والصديق بنفس المقدار لأنها كما أسلفنا لا شيء يضيع في تربتها الخصيبه، ولكن كم من الباقيات فيها يلزمه الفرز الدقيق؟ صحيح أن مدرسة المؤرخين المصريين من أمثال المقريزي وابن تغري بردي وابن إياس والجبرتي والقضاعي قد سجلوا لكل شيء يستحقه من الرضا أو السخط، ولكن كم من المصريين، حتي المثقفين منهم، يقرأ هذه المصادر ؟!

وأما حارة الآتراك، أو درب الأتراك كما تشير اللافته الحكومية الزرقاء الباقية حتي هذه اللحظة، فهي - يقول المقريزي - تجاه الجامع الأزهر، وتعرف اليوم بدرب الاتراك، وكان نافذا الي حارة الديلم. والوراقون القدماء تارة يفردونها من حارة الديلم، وتارة يضيفونها اليها ويجعلونها من حقوقها. فيقولون تارة : حارة الديلم والأتراك، وتارة يقولون: حارتي الديلم والاتراك. وقيل لها حارة الاتراك لأن هفتكين لما غلب ببغداد، سار معه من جنسه أربعمائة من الاتراك، وتلاحق به عند ورود القرامطة عليه بدمشق عدة من أصحابه، فلما جمع لحرب العزيز بالله نزار كان أصحابه مابين ترك وديلم. فلما قبض عليه العزيز ودخل به الي القاهرة في الثاني والعشرين من شهر ربيع الاول سنة ثمان وستين وثلاثمائة كما تقدم، ترك الديلم مع أصحابهم في موقع حارة الديلم، وترك هتكين بأتراكه في هذا المكان فصار يعرف بحارة الاتراك. وكانت مختلطة بحارة الديلم لأنهما أهل دعوة واحدة، الاأن كل جنس علي حدة لتخالفهما في الجنسية، ثم قيل بعد ذلك درب الاتراك.

المدخل القديم

الدخول الي عالم الباطلية شائك وحافل بالمخاطر، لكنه مع ذلك شائق لما فيه من مغامرة محببة الي النفس، فهو عالم مليء بالمثيرات والمبهرات. صحيح أن العاقبة ربما جاءت وخيمة، ولكن هذا شأن كل المغامرات بجميع أنواعها. وقد تكون مغامرة الدخول الي الباطلية هي المغامرة الوحيدة التي يقوم بها ثلاثة أرباع الشعب المصري كل يوم، سواء في عز مجدها في أوائل الستينيات وحتي أواخر عقد الثمانينيات، أو بعد تخريب سوقها والقضاء علي مظهره الخارجي. فهي الان قد آبت في الظاهر الي مجرد حارة كأي حارة مصرية عتيقة. وانخفض عدد روادها الي حد كبير جداً، ولكن العمل قد أصبح يجري في الباطن بشكل سري دقيق، وقاصر علي التجار فقط. اللذين يدخلون ويخرجون كأي ناس عاديين لاشيء يميزهم عن غيرهم، يقابلون أباطرة الحي القدامي، الذين لايزالون يقيمون فيها رغم ما يمتلكون من قصور

وعمائر شاهقة في أرقي أحياء البلاد من أسوان الي الاسكندرية ومن الفيوم الي شاطىء البحر الاحمر.

لقد بقيت الحارة كمركز عتيق لايمكن الاستغناء عنه لكبار التجار، تتم فيه الاتفاقات ودراسة العينات داخل جحور لايهتدي اليها عباقرة الجن، في حين انتقل سوق البيع الي باطليات اخري خاصة في المناطق العشوائية مثل الدويقة والزيتون ومنشية ناصر وعزبة القرود. والواقع أن كل عاصمة من عواصم المحافظات كان ولايزال لها باطلياتها الخاصة، التي لاتقل شهرة ولا خطراً عن باطلية القاهرة. أشهر هذه الباطليات الاقليمية حي قحافة بمدينة طنطا وشارع الخبيزة بمدينة دسوق، والعشش بالمحلة الكبري، وإفلاقة بمدينة دمنهور، بل ان هناك قري بكاملها تعتبر مراكز حيوية لتجارة الحشيش والافيون بوجه خاص، مثل قري : كوم السمن، والجعافرة، والبكاتوش، والقناطر. تلك هي القري المشهورة، وثمة قري أخري لم تشتهر بعد، لان كل قرية تنتبه اليها الحكومة تنتقل بنشاطها الي قرية أخري، حتي اذا ما توهمت الحكومة أنها نجحت في القضاء علي مخازن القري استؤنف فيها النشاط من جديد.

ولكن تعالوا بنا ندخل باطلية القاهرة، سنجد أن لها العديد من المداخل المفتوحة علي بعضها البعض، والموصلة كلها إلي قلب الحارة بساحتيها الكبيرتين. يمكن أن ندخلها من فوق جبل الدراسة - اليحموم - حيث نترك مستشفى الأزهر الجامعي خلف ظهورنا ونصعد الجبل

فنمشى علي سطحه المستوي، سيخرج إلينا من الجحور والشقوق وبعض الأكشاك التي تبيع السجائر والمثلجات، بعض شبان، يعترض الواحد منهم طريقك في دحلبه ودودة، ليهمس في أذنك، أو ربما يصيح بأنه يحمل معه صنفا جيدا ورخيصا وما عليك إلا أن تري وتختبر كما تشاء، إذ يستطيع أن يجلسك بحذاء هذا الكشك ويسقيك عشر حجارة قبل أن تشتري، فإن أعجبك الصنف فأهلا وسهلا وإن لم يعجبك فيادار لم يدخلك شر وقد تفاجأ بمن يشير لك بالاقتراب، فما أن تقترب حتي يضع تحت أنفك مباشرة شريحة من الحشيش الأخضر الطازج نفاذة الرائحة، ويقول لك إنها في الداخل بسعر عال أما هو فيبيعها بسعر الحشيش الشعبي لأنه يرضى بالمكسب القليل وليس وراءه مصاريف يضيفها عليك لسوف يعجبك الصنف بالفعل، وتسترخصه بالقياس إلي سعره المعروف في الداخل، هذا إذا كنت لا سمح الله غشيما في الشراء وتجربتك في الشرب محدودة، ذلك أن هناك مستويات متعددة من الصنف، قد تتشابه في الشكل لكنها تختلف في القيمة، فأنواع الحشيش كما يحددها خبراء الكيف هي كما يلى : الحشيش الكبس وهو أرداء الانواع، لاسمه نصيب كبير في كيفه، اذ هو يصيب شاربه بعد قليل من الأنفاس بحالة من التتيس، والتبلد، يتوقف معها الدماغ عن الحركة ويتحول شاربه إلي كتله من البلاهة لهذا ربما سمي بالكبس لأنه يكبس علي يافوخ الشارب فيثقله ويصيبه بالكسل التام، لكن خبراء

البيع يقولون إنه سمي هكذا لأنه مكبوس بماكينات تجفيف تصنعه علي هيئه قوالب مبططة. وهو علي أكثر من مستوي، منه ما كان مجرد أعواد وأوراق تم تجفيفها وكبسها، ومنه ما كان أوراقا فقط، ومنه ما كان كناسه حيث اختلطت بقايا الزهور بهشيم الأوراق والعيدان فنتج عنها مستوي متميز من الحشيش الكبس، وذلك هو النوع الشعبي السائد، يشتريه، عامة الشاربين لأن سعره في متناول الجميع، حيث كان القرش منه - درهم ونصف - يباع بسعر يتراوح ما بين جنيه ونصف إلي ثلاث جنيهات، إرتفع في السبعينات إلي عشرين جنيها، ثم ارتفع الآن إلي خمس وأربعين جنيها، أما النوع الثاني من الحشيش فهو ما يسمي بالغبارة، وهو من الأنواع الجيدة، إذ يشاع أنه من القطفة الثانية للشجر، والقطفة الثانية عادة لا تكون صافية الخامة، إنما يشوبها الكثير من لحاء الشجر وربما بعض المدخولات من أصناف متعددة، لأن شجر الحشيش - أو زهر القنب الهندي - يشبه في الخصائص شجر القطن، فهناك قطن قصير التيلة وآخر طويل التيلة وهكذا، كذلك هنالك زهرة قنب تصفي الدماغ من الوش تضع له ما يشبه الفلتر فينطلق الذهن في صفاء وأريحية وبهجة تستمر لفتر طويلة ربما وصلت إلي عشر ساعات، وهنالك زهرة لا تعطى الصفاء التام كما أنها لا تستمر طويلا، ويتلعبك الذهن كلما انسحب مفعولها. النوع الثالث هو أرقي أنواع الحشيش، إذ هو مسحوق الزهرة فى أول قطفة، ولا يقبل الخلطة لأنها

تفسده وتحوله إلي ردىء كثير، ولهذا يفضل التجار بيعه كما هو بسعر مرتفع، فإذا كان القرش من الغبارة يبلغ الأن ستين جنيها أو ما دون ذلك بقليل جدا ، فإن القرش من البودرة لا يقل ثمنه من ثمانين جنيها إن وجد، وشاربه يعتقد أنه مهما غلا ثمنه يظل أرخص من الأنواع الردية، فالثمن في الواقع هو ثمن « الكيف » لا ثمن « الكم »، وربع قرش من البودرة قد يكفي الشارب المعتدل بضعة أيام، سيما وأنه خدوم بتعبير الشاربين، أى أنه مثل القطن الطويل التيلة، تستطيع أن تقتطع من القطعة الصغيرة ما تشاء من القطع الأصغر فالأصغر إلي مالا نهايه، فقطعة في حجم السمسمه لو ضغطتها بأصبعيك تنفرد إلي حجم قشرة اللب، بمجرد وضع النار فوقها تضع مهرجانا كبيرا من النكهة العطرة، وأنفاسها عميقة جذابة ما أن يبدأ الشارب شد النفس حتي يستطعم النكهة الشيقة فيشد بكل قوة رئتيه دون شعور بالإرهاق، ليخرج الدخان من المتخرين أزرق كثيفا، تاركا في الجمجمة أثار نغمشة كأن جيوشا من النمل تتحرك داخل العروق والعظام لتوسعها تبث فيها الحيوية والنشاط وسرعة البديهة، تدهن كل المرئيات بألوان زاهية براقة، وثمة نوع رابع من الحشيش الجيد يسمي بالزيت، هو الوحيد الذي يقبل به شاربو البودرة في حال غيابها، إن له عشاق كثيرون يفضلونه علي البودرة نفسها، ويتغزلون فيه بقولهم « بالصلا ع الزين » فإذا كانت البودرة تعبأ في صفائح، وبمجرد أن يكبش منها البائع قبضه تتحول في

يده إلي عجينه طريه، بفعل ما فيها من حيل، أو زيت، فإن الحشيش الزيت تكثر نسبه الزيت فيه لشدة نضجه علي الشجر، فيتحول إلي عجينه لدنه صلبه كالزلطة البنيه اللون، لكنها حين تطبق عليها اليد تستشعر الدفء فتلين، وهو مساو للبودرة في السعر، علي أن الكييفة العتاة، المخضرمين، الملطمين، يستريبون في هذا النوع لأنهم لا يضمنون خلوه من الغش، بل إنه يستوعب أكثر وأسهل ألوان الغش، كما أنه أكثر الأنواع خضوعا لعملية التصنيع، فالبائع الخبير بالغش يجيء بكيس واحد من الحشيش البودرة، وثلاث من القبارة، وحوالي خمس من الكيس المتميز، ويفرك كل ذلك في بعضه ويضعه في الخلاط فيتولى خلطه جيدا بتحويله إلي عجينه موحدة، يضيف إليها القليل من زيت حبه البركة، أو زيت الزيتون، ويكون الصبيان جاهزين لالتقاط العجينه وهي طريه، لتقطيعها فى أحجام متفاوتة، ربع قرش ونصف قرش وقرش وربع أوقيه - يعني قرشين، ويتم لفها في ورق السلوليفان الملون، بحيث تلف القطعه في ورقه كبيره تلفها جيدا لتمنع الرائحة من ناحية، وتزيد حجم القطعة في نظر المشتري من ناحية أخري، وهذا أفضل أنواع الغش لأنه في النهاية حشيش في حشيش، شبيه به غش الأفيون بطريقه مثلى، إذ يقوم البائع بقص حوالي ثلاثة أفرخ من الورق السوليفان الأبيض قصا ناعما يشبه الهشيم أو العهن المنفوش، يخلطها علي أقة الأفيون يعجنه فيها، فينفخ حجم الاقة إلي ما يساوي في التقطيع أربع

أقات، والافيونجية مثل الحشاشين يعرفون هذه اللعبه لكنهم يتسامحون فيها، فخير للأفيونجي أن يشعر تحت لسانه بورقه لزجه بعد ذوبان الأفيونه من أن يتناول قطعة افيون كبيرة مضافا إليها أصناف العطاره المؤذية للمعدة، علي أن هناك أنواعا أخري من الغش لا يكتشفها الزبون الغشيم، فالبائع الناصح الذي لا يملك ماكينة فرم أو كبس، ولا صبيان لديه، يجيء بكيس من الغبارة يضعها كالصاندوتش بين كيسين من الحشيش الرديء، ويلفها بفوطة من العبك، وبالمكواة الساخنة يضغط فوق اللفه بقوة فتتعجن الأكياس في بعضها، ثم يعود فيقطعها ويعيد ترتيبها ليضغط عليها من جديد، وهكذا حتي يصنع عجينه لدنة زكية النكهة يقوم بتجزيئها ليبيعها بسعر الحشيش الممتاز، وثمة طريقة يلجأ إليها نفر من الهليبة، إذ يجيء الواحد منهم بكيس من الغبارة، ويفرك فوقه عددا من أرغفة الخبز الناشف، يضاف إليها كومة من ورق شجر الكافور الناشف إذ أن رائحته أقرب إلي رائحة الحشيش، ويضرب كل ذلك في الخلاط مع قليل من زيت السمسم وأمثال هؤلاء هم أدق الباعة في مسائل التقطيع والتغليف، فالموازين مجحفة والتغليف محكم، لأن ثمة اعتقاد شائع بأن قلة حجم القطعة يعطي الثقه في إحتمال جودتها، قياسا علي أن الحشيش الزيت الممتاز تبدو قطعه أقل دائما في الحجم من قطع الأنواع الأخري لأنه ثقيل بطبعه، رِصدْ. كما يصفه الباعة، أما الأنواع الأخري فمنفوشة هشه، ثم أن التغليف المحكم

يمنع المشتري من فتح القطعة أمام البائع لاختبارها، ولقد يمكث نصف ساعة في محاولة فتحها دون أن يفلح وهذا ما لن يتيحه له البائع، وفي وسط هذا السوق الحافل ينشأ صبيان من « أولاد الزواني » كما يصفهم الزبون، ليس لديهم رأسمال يشترون به البضاعة، فيلجئون إلي صنعها بطرق جهنمية : توليفه من اللبان الذكر والحناء وورق الكافور وزيت السمسم مع قليل من الصمغ الخام ليغطى العجينة عرقا يمتط فيوهم أنه من الحشيش الزيت المعتبر، والزبائن المتودكون يغمزون لبعضهم البعض لدي عرض هذا النوع عليهم قائلين في لهجة ملفوفة ذات معني « صنع في مصر ».

الولد الذي يلتقيك علي جبل الدراسة واضعا تحت أنفك قطعة في حجم الكف زكية الرائحة سوف يستهويك بالقطع سيما أن السعر منخفض، فإذا بك تقول له هات قرشا، إذ أنك تري أن القرش هنا بثمن نصف قرش في الداخل، مالن تلاحظه أن الولد بمجرد تعريض القطعه المعتبرة لأنفك يعيد يده إلي داخل جيبه بسرعه لإشعارك بمدى الرهبة علي أساس أن كلا كما يلعب في غير المشروع، فحين تطلب منه القرش تخرج يده نفسها ولكن بقطعه أخري بنفس الحجم بنفس الشكل إلا أنها من نوع آخر ربما كان من أردأ الأنواع، ثم يقتطع ما يوازي الحجم المطلوب، وبخفة يد يفردها وينفشها فتبدو كبيرة تملأ العين، تأخذ وتمضى فرحا بالغنيمة، لكنك ما تكاد تفتحها في البيت حتي تفاجأ بالخازوق،

ففي أحسن الأحوال ستكتشف أنك أشتريت حشيشا مخزونا عطنا.

علي أيه حال فأنت معرض للغش في كل الاوقات إلا أنك بازدياد الخبرة وكثرة التردد علي المكان تتعلم أن تتجنب مواطن الغش، وأولها أن تصم أذنيك تماما عن نداءات الهيبيشه علي جبل الدراسة، ولا تلتفت إلي أحد منهم، وكن واثقا في مشيتك، رزين الحركة صارم الملامح، وإن استطعت الشخط والنطر والتكلم بعظمة فافعل، حتي يظنك الأولاد شخصا مهما مرهوب الجانب فيتقون شرك، أو يستثقلون ظلك، أما إن شعر الواحد منهم، إنك ضعيف وغشيم ومتردد فإنه لن يدعك حتي يبيعك ما يهوي بأي شكل، وكلما تمنعت عليه وراوغته كان انتقامه منك عظيما.

لمثل هؤلاء الصبيان أصدقاء مخربشون، غير أنهم نظفاء المظهر علي شيء من اللباقة وقوة الشخصية رغم أنهم لا يعرفون القراءة ولا الكتابة، يجلسون إلى بعيد يراقبون شخصيات الواردين، فإن أدرك الصبى البائع أن هذا الزبون غشيم يأتي إلي هنا لأول مرة، ولم يتمكن هو من البيع له لأنه مدلول علي بائع بعينه جاء يسأل عنه، فإن الصبى ما يكاد الزبون يعطيه ظهره حتي يوجه غمزه للأولاد النظفاء الجالسين إلي بعيد يترقبون، فإذا هم يحفظون شكل الزبون،ويترصدونه عند الخروج، يلاحقونه، يقطعون عليه الطريق : « اقف عندك يا أفندي أنت ! تعال هنا إيه اللي معاك ده ؟! » يتقمصون شخصيات ضباط شرطة ومباحث ومخبرين، يطبقون بقوة علي يد الزبون، يفتشونه تفتيشا دقيقا، يسقط صاحبنا بئر الرعب لا يدري من أمره شيئا لا يشعر أن جميع ما

ما في جيبه من نقود قد تم سلبها، ثم يصرون علي اقتياده إلي القسم، يقول المتزعم فيهم « هاته وتعالي » ثم يمضى ليختفي بعد خطوتين، في حين يقع الزبون في عرض الباقين راجيا أن يتركوه لوجه الله لأنه ولأنه ولأنه، ولربما صفعوه علي قفاه لزوم إتقان اللعبه، ثم يتركونه خرقة متهاوية، فيمضي إلي حال سبيله لا يفتح فمه بأى شيء مما حدث، فإذا فضفض لبعض اصدقائه الحريفة فإنهم سيضحكون، لأن الكثيرين قد حدثت لهم مواقف مشابهة في عهد الغشومية، حدث هذا ليس فحسب مع العامة، بل مع ناس من صفوة المجتمع المثقفين، فساعة الرعب في الواقع يتساوي فيها الأذكياء والأغبياء.

كثرة الحزن تعلم البكاء كما يقول المثل، ومن قرصته الحية يخاف من ذيلها، وهكذا يعتاد الزبائن المخضرمون علي عدم الإهتمام بهولاء الأولاد، ومنهم من يكتسب جرأه الدخول معهم في عراك بالمطاوي والبونيات والسنج، ومنهم أيضا من هو أكثر قدرة علي تمثيل دور الحكومة، فيداهم الممثلين قبل أن يدهموه، يهجم عليهم هجمة حكومية متقنه، خاصه إذا كان له بعض الأقارب أو المعارف في جهاز الشرطة، قد ينجح في تجريدهم مما معهم، وقد ينجح فحسب في جعلهم يلوذون بالفرار كالأرانب، وفي هذا منتهي المتعة له ولمن معه، أما الحكماء من الزبائن فإنهم يتخذون طريقهم الي ذلك الهديم القائم علي ناصية من الجبل، فيتسلقونه، ليصيروا بعد خطوات قليلة جدا في قلب أكبر ساحة في حارة الباطلية، وعندئذ فالخيارات أمامهم كثيرة.

المدخل العميم

في هذه الساحة - منذ سنوات قليلة مضت، كانت تتم أكبر وأخطر وأجرأ عملية مزاد في العالم كله، ذلك هو مزاد علني لبيع الحشيش، فارس هذه المزادات التاريخيه المهولة كان اسمه « بدر نافع » أتيح لكاتب هذه السطور أن يطلع علي ملفه عن طريق أحد سكرتيري النيابه من اصدقائه، فإذا هو ملف يبلغ ارتفاعه ما يقرب من المتر، فإذا ببدر نافع هذا أسطورة من الأساطير لا يشق له غبار، عدد القضايا المحررة ضده، والمحكوم عليه فيها بالسجن المؤبد، تفوق الحصر، لكن عدد الشهور التي يقضيها في السجن عادة لا تتجاوز أصابع اليد الواحدة فقدرته علي الهرب من السجن قدرة لا تتوفر لعتاة المجرمين، ولا يباريه فيها إلا الصحفي القديم « حافظ نجيب » الذي اشتهر بلقب اللص الظريف الشريف

لبدر نافع حيل لا تنفد، ذلك لقدرته علي إجادة التنكر بصورة لا يمكن

كشفها بسهولة إن لم يكن ذلك مستحيلا في الواقع، فالسجان الذي تم عليه في المساء بحضور المفتش لن يجده في الصباح، وهيهات أن يكتشف أن هذا المفتش الذي جاءهم في المساء لم يكن إلا بدر نافع نفسه، أما كيف حصل علي ملابس رسمية فهذه ليست مشكلة بالنسبة له، يستطيع شراء القماش وتخييطه داخل السجن لأن يده سخيه فهو ثرى وله أعوان خارج السجن لا حصر لهم لا يقلون ذكاء عنه، إن ملفه حافل بأحداث من هذا النوع، كما أن أذهان من يعرفونه مليئة بأساطير مدهشة، وكثيرا ماداهم البوليس مسكنه الذي يتغير ويتجدد من يوم إلي يوم، فيستقبلهم هو نفسه، ويشاركهم البحث عنه بكل صدق وثبات ومودة، فهو تارة صاحب المسكن، وتارة زائر عابر، كما أنه يعيش كل يوم في مكان جديد ببطاقة شخصية مختلفة ببيانات مختلفة رغم انه - ويا للعجب - لم يكن يعرف القراءة ولا الكتابة.

علي اتصال هو بمزارع الحشيش رأسا في بيروت وإيران وتركيا وكل بلاد العالم المتحشش، شبكة علاقات واسعة، أقامها علي فضيلة ربما كانت هي الفضيلة الوحيدة فيه : الأمانة علي حقوق الغير، يطمئن إليه المهرب فيسلمه من البضاعة أطنانا، وهو واثق أن أمواله عائدة إليه لا محالة بعد سويعات قليلة فالجدير بالذكر أن بدر نافع لا يملك شيئا يدفعه أو علي الأقل ليس لديه رأسمال يكفي لتسديد ثمن عشرة أطنان من الحشيش علي الترابيزة، فكل أمواله تجري في دول خارجية بعيدة

حتي لا تصادرها الحكومة، ويظهر بمظهر الفقير إلي الله تعالي، فإن صادرت الحكومة بضاعة رغما عنه - ونادراما حدث - فإن أصحابها يعلمون جيدا أن القدر هو الذي فعلها وأنه مظلوم فلا عليه وخير لهم أن يشتروا وده ليعوض خسارتهم في صفقات أخري تالية.

سيارة النقل تدخل إلي الحارة محملة بأطنان الحشيش، تتوقف في هذه الساحة، ليصعد إليها بدر نافع واقفا فوق الأجولة والكراتين والصفائح، يفتح الربطة، ليستخرج منها كيسا أو قرصا أو حفنه حسب نوعية الصنف، يصيح مناديا ببيان كاف عن الصنف ومميزاته وكميته الموجودة، جمع هائل من التجار الكبار واقفون، يفتح أحدهم المزاد، وفي مالا يزيد عن ربع ساعة علي الأكثر تكون الشحنة كلها قد بيعت واختفت في الحال، وحصل بدر نافع نقوده علي داير مليم، ثم كأنه فص ملح ذاب.

لم تستطع قوة في البلاد منع قيام هذا المزاد الشهير إلا موت بدر نافع المفاجىء في حادث مشبوه.

علي أن الساحة ظلت تشفي بالباعة. سوق بكل معني الكلمة، ترابيزات فوقها عدد من الأكياس المغلفة بالقماش ومنها المفتوح لإظهار العينة، والصنج والموازين، يجلس خلفها ولدان مخربشون فى أيديهم المطاوي قرن الغزال، وبعضهم يحمل الطبنجات في مكان بارز من ملابسه، أمام هؤلاء يتوقف تجار القطاعي من الأحياء الأخري

والقري البعيدة لتسويق بضاعة علي قد حالهم. يتفرجون علي العينات يفاصلون يساومون يسترحمون، ما بين الترابيزة والأخري يقف ولدان للبيع بالقطاعي السريع البخس، إبتداء من قطعة بخمسين قرشا وأنتهاء بأوقية.

ثمة غرز متنقلة يمضي بها أناس متودكون، عبارة عن صندوق كصندوق ماسح الأحذية، فيه حجارة مزودة بالتبغ المعسل، ومنقد نار مشتعلة، وجوزة شكلها رطيب مغر، مصفاة النار جاهزة، ما عليك إلا أن تناديه، وأنت واقف، تماما كما تنادي ماسح الأحذيه، ففي الحال يتربع تحت قدميك مجهزا عشرة حجارة تقوم ببصمها بتعميرة الحشيش التي تريد أن تختبر جودتها قبل أن تندب في بيعة كبيرة. البائع نفسه يعزمك علي حجرين لإغوائك.

كل شيء يمضي في سلاسة واتساق وبلا ضجيج، صحيح أنك تلمح عمق التوتر الخفي، وتشعر أنك تمشي فوق بركان يتأهب للإنفجار بين برهة وأخري ؛ لكن العمل لا يتوقف لحظة واحدة، لا مجال لكثرة الكلام، فكلمة ورد غطاها، ونظرة حمراء تحسم أى لجاجة، وزغدة في الجنب توقف أى تطاول، والصلاة علي النبي تتدفق في مجريات الحركة تصادر كل النوايا السيئة.

للشيخ « علي دبوس » بنك خصوصى علي ناصية الساحة، عبارة عن دكان مربع يحتوي علي بنك عريض من الخشب، ونفر من عياله المتعلمين رابضون خلفه، مهمة بنك الشيخ علي دبوس تجميد الفلوس

لناس، وفكها لآخرين مقابل عمولة قدرها واحد في المائة، صبيان تجار القطاعي يدخل الواحد منهم حاملا شكارة منتفخة، يدلقها علي البنك، جنيهات وأنصاف جنيهات وشلنات وبرايز. في الحال يتولي العيال مهمة العد في دربة هائلة، ليتولي أخرون تسليم الاوراق الكبيرة المجمدة. يقبل ولدان آخرون بالدراجات، يملئون حقائبهم بالفكة، يتجولون بها في أسواق الخضار حيث تشح الفكة باستمرار، وأسوأ فأل لدي البائع هو انعدام الفكة عنده أو عند زبونه.

نحن طبعا من الكييفه القراريين فنحن إذن وجوه مألوفه وربما معروفة والود قائم والدار أمان، فلنا الحق في التجول كما نشاء ولنا بعض الدلال علي بعض الباعة : هات حجرين يا فلان، وماله يا خويا، عيني، إقعد أشرب قهوة كمان، عند الشراء لا شأن لنا بالمعروض علنا في ساحة السوق، قد ندخل يسارا في عطفه مسدودة فنقف أمام باب عتيق في نهايتها، ساكن الطابق الأول جعل من ردهة البيت ورشة لجارة، نقف صائحين : سالخير يابو صلاح، فيترك المنشار شاب في حوالي الثلاثين من عمره اسمه منصور، يقبل عليك مسلما في حرارة،تستشعر يدك ملمس ورقة السوليفان المبرومة علي قرش، فهو لايبيع أقل من قرش، نوعا من الحشيش نصف الممتاز لكنه نقي مضمون النقاء بسعر مستريح. لنا أن نشتري منه،ولنا أن نواصل السير في الساحة مجنحين يميناً لندخل في جيب سحري علي ناصيتة دكان كان في الاصل لعتقي

يرتق الأحذية، يحتله الان سيد منفله ، ولد عنزه، في الاربعين من عمره، كان صبياً لمصطفي زقزوق ثم استقل بالبيع وحده فأصبح أكبر منافس له، يبيع بالقطعة، القطعة بعشرة جنيهات تكاد تقترب من حجم القرش، من نوع الغبارة الشعبية النقية.

هو ولد مفتح، مؤدب، لسانه حلو، وشيك، سواء في الجلباب أو البدلة، عربته المرسيدس الخنزيرة راكنة علي الناصية في انتظار مغادرته الحارة بعد منتصف الليل الي شقة سكنية فاخرة يمتلكها في مصر الجديدة ضمن عشرات من العمائر. يجيد القراءة والكتابة ويشتري جميع الصحف والمجلات فيفليها قراءة، يلم بأخبار جميع الفنانين، وتسعون في المائة منهم أصدقاؤه ولذلك فإنه يتسبب في ازدحام الساحة بعشرات من سياراتهم الفارهة: فالواحد منهم لايأخذ ويمشي بسرعة كغيره، إنما لابد أن يجلس في الدكان المجاور يشرب عدة عشرات من الحجارة، وبرشامتين أو ثلاثة، وربما قطعة أفيون تمسية من المعلم. لاعبو الكرة أيضا يجيئون له، فهو أهلاوي متعصب، لكنه مع اللعيبة فريق قومي. مفتون بشرائط الشيخ إمام عيسي الذي يسكن علي بعد خطوات منه في حوش أدم - حشقدم - في حارة شق العرسة، ويستطيع أحد ضيوف الشيخ إمام أن يرسل من طرفه مندوبا في أي لحظة ليجيء بالتمسية المجانيه، يستطيع سيد منفله نفسه أن يفوت علي الشيخ إمام قبل مغادرته الحي ليكمل السهرة بين رهط من المثقفين يستمع للشيخ ويشجع بحماسة كبيرة.

إذا لم يعجبنا سيد منفله فلندخل علي مصطفي زقزوق. نغادر الساحة ببضعة امتار، ثم نحود يساراً، لنصير في الحال في ذيل الطابور الذي يمتد من أول التحويد حتي باب البيت المواجه مسافة طولها نصف كيلو متر. ولابد أن نقف في طابور أياً كانت شخصيتك، فإذا بدرت منك بادرة استعلاء أو تذمر فأنت الجاني علي نفسك، قد تمتهن كرامتك، قد تضرب فلا يبين لك أصحاب، إلا إذا كنت تريد أن تشتري من البريمو فحينئذ يسمح لك بالتوجه مباشرة الي الولد الواقف بالكيسة بجوار الباب. وذلك أن مصطفي زقزوق يبيع ثلاثة أنواع من الحشيش :الزيت البريمو وكان القرش منه في أول السبعينات ثمنه إثني عشر جنيها.. والغبارة الشعبية بست جنيهات للقرش، والكبس المتميز بثلاثة جنيهات. وقد اعتاد الزبون شراء ربع قرش من البريمو للشرب علي الجوزة في خلوة، ونصف قرش من الغبارة الشعبية للشرب مع جماعة، وقرش من الكبس المتميز للف السجائر عل عجل.

مصطفي زقزوق يقف في عتبة الباب أحمر الوجه ممتليء الجسد بالصحة والعافية، يرتدي القميص والبنطلون من أفخر الانواع، في يده كرة من الحشيش الشعبي يقتطع منها بأسنانه، وأسنانه كالميزان تقتطع القرش دون زيادة أونقصان، ويزيد فوقه قطعة إكرامية. بجواره ولد ممسك بالغبارة الشعبية، وولد أخر في يده شكارة يلقي فيها بالفلوس. أمامه صبي يسقية الجوزة طوال وقفته من أول النهار الي أخره. يعامل

الزبائن بفظاظة لاحد لها، والجميع يتقي شره ويتحاش شراسته. يبدأ الطابور في التاسعة صباحاً فلاينفض الا بعد منتصف الليل، يبيع خمسين أقة علي الاقل كل يوم، يبيعها بسعر القطاعي، أي أن الربح في هذه الحالة مضروب في عشرة أو عشرين. إنه ذلك الربح الذي ينفخ أوداج الإنسان يمنحه الشعور المتضخم بالقوة المطلقة، فيعامل الزبائن - أياً كانت شخصيتهم - بفظاظة وغلظة وسوء أدب لا مثيل له، وهو ضامن أنهم سيعودون إليه لامحالة. يحلو له أن يترك الزبون واقفاً مادا يده بالفلوس. حتي ينتهي من شرب الحجر، ومسح فمه " وقد ينظر في الزبون بعينيه النذلتين نظرات احتقار متعمد، لمجرد أن الزبون نظيف المظهر أو معتد بشخصيته، وقد يصيح فيه قائلا: إتعدل ياروح أمك. فيقول هذا الزبون علي الفور مبتسما: حاضر يا عم مصطفى، فلقد اعتاد الزبائن تلاشيه.

ذات يوم أصر الكاتب المسرحي علي سالم، علي أن اصطحبه لرؤية هذا المشهد، ورغم أنه ليس من شاربي الحشيش فإنه تطوع أن يدفع ما نشاء من نقود، في سبيل أن يقف هو في الطابور ويشتري، ويمارس متعة هذا العمل، ثم يعطينا ما اشتراه حلالا علينا، وقد نبهته إلي ما يجب أن يتحلي به من سلوكيات، بهدف أن أخوفه لعله يتراجع، فما زادته تنبيهاتي إلاّ اشتياقا للمغامرة. وقفت إلي بعيد أراقبه ؛ وكنت قد لقنته صيغة الطلب وحفظها جيدا حتي لا يتلجلج فيصير محل شك

فتكون واقعته أسود من شعر رأسه : ربع من البريمو وواحد بسته وواحد بثلاثة، وأوهمته أن الأنواع الثلاثة تعطيه فرصة لمشاهدة الكثير من المعلومات، لسْذاجتي بالغت في الصفقه كى أفوز بها ويفوز هو بالتجربة التي تحرق شوقا لممارستها، ورغم معرفتي الجيدة بعلي سالم، إذ أنني الذي اكتشفته في أوائل الستينات، لم أكن أعرف أنه ابن بلد ملقط، ودمياطى أصيل، عملا بوصيتي كان قد جهز الفلوس في يده لكنه أطبق عليها، وحينما جاء دوره للوقوف أمام مصطفى مد يده، بكل ثبات قائلا : واحد بثلاثه جنيه !! فلما خرج لم يلمح عمق الصدمة في عيني، بل قال : سأخذ منه قطعة ألفها سيجارتين لأجربه، فقلت له صادقا : حلال عليك بحاله تشربه.

في عصر أنور السادات، في أواخره تقريبا تعرض مصطفى زقزوق للمصادرة مرة واحدة في حياته ضمن عدد من التجار والعجيب أن سبب المصادرة امتناعهم عن دفع ضرائب، إلا أن ما صودر من مصطفى لم يكن يبلغ عشر معشار ثروته التي تتحول باستمرار إلي عقارات وأراض وتحويلات في البنوك الأجنبيه، الأكثر غرابة أن المصادرة قد ألغيت بعد شهور قليلة بحكم قضائى.

كان مصطفى زقزوق في الأصل مكوجيا في حارة الباطلية في أوائل الخمسينيات لكنه تزوج بنتا من بنات الحاجة زهره، التي كانت معروفه بنشاطها في تجارة المخدرات، ومنذ ذلك التاريخ أصبح هو أشهر بائع

في البلاد، وأصبح « فرفور » واخوته من إبناء الحاجة زهره مجرد معلم يتفاوض مع المصادر البعيدة، ويتجول بسيارته الفاخرة في الملاهي الليلية، وأشتهر بأنه من كبار مشجعي فريق النادي الاهلي، وكان يظهر في أفراح اللاعبين، ويتبرع بالكثير عند الفوز في الماتشات المهمة وله أكثر من محل في الباطلية، فواحد علي ناصية العطفه، وواحد في مواجهتها، لا أحد يعرف ما مهمة هذين الدكانين، إلا أنهما مخصصان لجلوس المراقبين. [1]علي من يشتري الحشيش من الباطلية ألا يعود من نفس الطريق الذي دخل منه، هذا ما يؤمن به المتودكون، فخير للشاري أن يواصل السير ليدخل في أية عطفة تتابلة لكي يضيع في الزحام ويختفي بأسرع ما يمكن، وما أكثر المخارج للخارج من عطفة مصطفى زقزوق، لكن أسهلها وأقربها ذلك الدرب الذي يسمي درب الاتراك، حيث يوصله إلي حارة الكحكيين، ومنها إلي حوش أدم والغورية أو شارع الأزهر.

المدخل الحكيم

ثمة مدخل آخر من المداخل المهمة للباطلية له زبائنه الأصلاء، لأنه غير مطروق، وغير مبتذل وهو الآخر من جبل الدراسة، لكنه يبدأ من خلف مستشفى الحسين مباشرة، يمين ثم يسار، فإذا أنت في حارة سد عريضه، وعلي يمينك مقهي برصيف كبير، تليه مباشرة حارة ضيقة جدا، يليها مقهى آخر أشبه بالبوفيه تابع لنفس المقهى، وأما المواجهة التي تسد هذه الحارة فإنها ورشة لجارة كبيرة متخصصة في صنع تخت المدارس، والساحة الواسعة أمامها محتلة علي الدوام بصفوف وتلال من تخت المدارس المجهزة للدهن بالبوية فور أن يجيء المندوب المعاين ليتأكد من نوعية الخشب.

هذه المقهي يملكها المعلم حوده، وكانت في الأصل معدة لتحريق الحشيش، كغرز متميزة نظيفة المظهر لا يؤمها سوي نخبة من الحريصين علي عدم الإحتكاك بنوعيات متدنية من الحشاشين، علي شدة يقينهم من

أن الحشيش هو المشروب الوحيد الذي يفرض عليهم الصحبة بعبلها، فأنت معرض للجلوس مع أحط الناس في بعض الأحيان، جنبا لجنب، إنه يساوي بين البشر في إماكن الشرب علي الاقل، فوكيل الوزارة قد يجد نفسه جالسا مع أحد فراشي مكتبه دون أن يدري، ومن هنا تنشأ مثل هذه المقاهي المتميزة، يسير العمل فيها بمنهجين متلازمين، رفع أسعار المشروبات بشكل مبالغ فيه مع تمييز المشروب والإرتفاع بمستوي الخدمة ابتداء من نظافة ولباقة وحسن مظهر الولد الذي يسقيك وإنتهاء بنظافة الحجارة والجوز ونظافة المكان وأرضه مع تزويده بالمراوح، يلازم ذلك إدارة متشددة تتسم بالغلظة مع الزبائن ذوى المظهر البراق، وبهذه المناسبة فإنهم مدربون جيدا علي اكتشاف الجوهر الحقيقي للشخص تحت ملابسه الأنيقة، يعرفون من سلوكه من كلامه من مستوي الصنف الذي يشربه، وبناء علي استنتاجهم السريع البديهة يعاملون الزبون، إما بالإقبال عليه في ترحاب شديد والشروع في خدمته بحمية وحيويه، وإما بإهمال بشكل متعمد، فإن أبدي احتجاجه فإن طريقة احتجاجه ستبين ما فاتهم ملاحظته، فقد يقبلون عليه معتذرين بلباقة ذكية، وقد يطرودنه طردا صريحا.

وفي أوائل الخمسينيات وجد المعلم حوده أن زبائنه من علية القوم في أيديهم سخاء، يصرفون علي مزاجهم ما لا يمكن صرفه في أى وجه من الوجوه مهما عظم شأنه في حياتهم، وجد كذلك أن معظمهم يأنف من

الدخول إلي عمق الباطلية لشراء الصنف، ولا يرضون بأى صنف؛ قال لشريكه : لماذا لا نريحهم ونكون من الرابحين ؟ إنهما أصلا من عتاة الحشاشين، ويعرفون المصادر جيدا، وهكذا أصبح المعلم حوده تاجرا من وراء ستار أول الأمر يجيء الزبون ويسأل عن ولد يشتري له، فيقول له هات ونحن نبعث من يشتري لك، ثم يوافيه بالصنف بعد برهة طويلة، فلما اتسعت تجارته أصبح لا مفر من إعلانها، فالزمار لا يستطيع اخفاء ذقنه، تخصص المعلم حوده في صنف واحد هو البودرة الممتازة تحدد تبعا لذلك مستوي الزبائن، يطلب أعلي سعر فلا يناقش.

كل الناس قد تخفي الأسرار في الصدور إلا الحشاشين لا تتسع صدورهم لأى سر علي الإطلاق مهما كانت خطورة إعلانه، لا سيما إذا كانت هذه الأسرار متعلقة بالصنف أو بالمكان إنهم يجدون متعة كبيرة في ذلك، فأنت إذا اكتشفت مكانا سريا جديدا للشرب ذا مميزات خاصة فإنك في الحال تحب أن تختلي فيه بأحد أصدقائك الخلص، فما تلبث حتي تدعوه إليه، ولا تنسي أن تنبهه إلي ضرورة الإحتفاظ بسرية هذا المكان حتي يهنأ لكما الجلوس فيه بعيدا عن الواغش، صديقك سوف يلتقي في اليوم التالي صديقا آخر فأول شيء يبادر به أن يصيح في تشويق « أما اكتشفت لك حته مكان خرافي ! » ويصطحبه إليه، ولا ينسي هو الآخر أن ينبهه إلي ضرورة الإحتفاظ بسرية المكان، وسيوافقه الصديق، علي ذلك بحماسة كبيرة، لكنه ربما في نفس الليلة سيلتقي

بشلته الدائمة فيصيح في استقبالهم : « مفاجأة ! يلاپينا » وهكذا لا تدوم سرية أي مكان حتي ولو كان تحت الأرض، وكذلك الشأن بالنسبة للباعة، ما أن يكتشف أحد الحشاشين بائعا جديدا لديه صنف جيد حتي يتولي نشر أخباره في كل مكان. إنها خصلة تحولت إلي جبله، جزء من سلوك الحشاش لا يتجزأ، طقس من طقوس القعدة أن يتبارى الحشاشون في إظهار ما لديهم من تعميره ممتازة، فالتعميرة الممتازة هي البطاقة الشخصية لحاملها، هويته، بها يعلو في أنظار الأخرين ويكتسب أهمية ورهبة، لابد أن يتساءل الشاربون أثناء الشرب : منين التعميرة دى يا فلان ؟ من فلان الفلاني، هكذا يرد وهو يموسق إسم البائع في تفخيم كأنه أحد آلهة الأوليمب، بكم ؟ هذا هو السؤال التالي، يذكر السعر، ولابد ان يكون مرتفعا، فكلما ارتفع سعر التعميرة دل ذلك علي جودتها وخصوصيتها، لا سيما أن الحشاشين بطبيعتهم دائمو البحث عن الأكثر جودة. ذلك أن أدمغتهم قد نحست من كثرة الشرب ولم تعد تتأثر بسهولة. ثم إن الحشيش - كما أجمع مؤلفو كتاب الحشيش الذي أصدرته اليونيسكو منذ حوالي ثلاثين عاما بأقلام نخبة من نطس الأطباء في مختلف التخصصات - ليس يعتبر مخدراً كالأفيون بقدر ماهو عقار مبهج. ويؤكد شاربوه - بسلوكهم - أنه قَوّادٌ إلي البوح بصورة فائقة، فالحشاش بواح بطبعه. وليس صحيحا أن شارب الخمر إذا سكر يقول الحقيقة كما هو شائع. هذا ليس صحيحا علي الإطلاق؛ إنما

حديث المخمور مركب معقد يحتاج إلي عملية حسابية معقدة بدورها لاستخلاص الحقائق من الإدعاءات من الأخلاط الكبيرة. أما الحشاش فإنه لا يفقد وعيه مطلقا، وحيث يندمج في الحديث فبوعي وتجل ظاهرين، كما أنه بحجم شاربه، إذ يعرف الحشاش حجمه الحقيقي فلا تتضح شخصيته، كذلك فهو يرقق المشاعر؛ ولهذا فالموال الشعبي يقول : ياعم ياللي بتشرب حشيش، أصلك حسيس وأمير؛ في الجمع موزون علي كل الكيوف وأمير. كل ما في الأمر أنه يفقد الإنسان إحساسه بالزمن، ويستدرجه إلي استمراء القعده والتكاسل عن أي مشوار ملح،والتعود علي التأجيل المستمر؛ كما أنه يستنفد الطاقة الإقتصادية للناس ويجعلهم دائما أبدا في احتياج مهما ارتفعت دخولهم المادية. وهذه أسباب تكفي لمحاربته.

أصبح المعلم حوده تاجرا كبيرا يشار إليه بالبنان؛ تجيء له الزبائن من جميع أنحاء المدينة فتمتلئ الساحة بسياراتهم. فجمع ثروة طائلة لايمكن حصرها، صارت العمارة التي يسكنها من بين أملاكه الكثيرة. أصبح صاحب معرض للسيارات.

وبهذه المناسبة فإن كل تجار الحشيش لابد أن يكونوا أصحاب معارض للسيارات، لأن عملية استيراد السيارات تتيح لهم نقل الحشيش داخلها، في إطاراتها، في أماكن سرية فيها، وكان المعلم حوده حكيما، فلما رأى أنه قد أصبح معروفا، منع الشرب في المقهي،

وقصرها علي الشاى والقهوة والمعسل، ولابأس أن يشرب هو وأصدقاؤه في آخر الليل خلف النصبه بعد إنزال الباب إلي نصفه، ذلك أن الحكومة إذا لم تتمكن من القبض عليه متلبسا ببيع الحشيش فقد تتمكن من القبض عليه متلبسا بتحريقه في غرزته، أصبحت المقهي مركزا للبيع، يجلس الزبون ليشرب قهوته هامسا بطلبه، فما يكاد ينتهي من شرب قهوته حتي يكون أحد الصبيان قد غمزه بالطلب في سرية شديدة دون أن يلحظ أحد، فإن أمسكته الحكومة فصاحب المقهي غير مسئول لأنه ليس منوطا بتفتيش الزبائن قبل جلوسهم في مقهاه، أما الصبى الذي يوصل الطلبات فإنه طفل لا قيمة له، من آلاف المشردين في الحواري، الذين لا أهل لهم ولا مستقبل، لا شيء عنده يضحي به، وهو يبحث عن الرغيف والهدمة والسيجارة، فعشر جنيهات في اليوم له ثروة كبيرة لأن مثله في أى ورشه أو محل يتقاضاها في الشهر، وهو يستلم الكمية مقطعه ملفوفه، في كيسة كبيرة، يقوم بدفنها في أى هديم أي طاقة من طاقات الجدران العتيقة، ثم يعسكر في مراقبتها حتي يناديه الجرسون هامسا بالطلب الذي يكون قد قبض ثمنه مقدما.

فلنترك المقهي وندخل الزقاق المحازي لها، الشبيه بجيب سحري ضيق، ولهذا تدهشك كثرة محلات البقالة فيه، وأجولة الفحم المفتوحة بارزة علي أبوابها مع معدات الجوز والنارجيلات وبواكي المعسل، من هذا الجيب الضيق يتفرع علي يسارك بعد خطوات قليلة جيب صغير،

ضيق قصير، مسدود، فلندخله بقلب جامد بشرط أن تكون جيوبنا عامرة، لأننا سنلقي « سعيد السني » وما أدراك ماسعيد السني، شاب في حوالي الثلاثين من عمره، إشتهر فجأة في أواسط السبعينات وظلت شهرته كبيرة حتي أوائل التسعينات، وقد نبعت شهرته من طائفة الفنانين علي وجه التحديد

هو في الأصل صاحب محل لبيع الدجاج المذبوح في سوق العتبة خلف لوكاندة البرلمان، ذلك السوق العتيق المبني كوحدة معمارية متكاملة بشوارعها الداخلية لبيع الخضروات والفواكه واللحوم، في كل جناح من أجنحته أكثر من مقهي، وكل مقاهيه بلا استثناء هي غرز لسقيا الحشيش، فكل العاملين في السوق حشاشون أصلاء، وكذلك زبائنهم، ولما كان سعيد السني في الأصل من سكان حي الباطلية فإنه قد تربي في قلب الحشيش ورأى مكاسبه الطائلة، فتجارته هي الطريق المتاح لكل من يريد تكوين ثروة يبدأ بها مشروع حياته المستقبلية، ولكن بعد أن يتم تجميع الثروة تتحول تجارة الحشيش إلى مزاج شخصى، فهي منبع للثروة لا ينفد ولقد أصبح سعيد السني صاحب محل فى مكان حيوي يدر عليه دخلا محترما . لكنه في النهاية صاحب مصاريف ضخمة، وإنه حشاش قرارى في الأساس، ومتطلع لمجالسة نجوم المجتمع، ويقرأ الصحف ويشاهد التليفزيون والسينما، ويجد لذة كبيرة في أن يكون محل اهتمام من طائفة الفنانين الذين يشاهدهم علي

الشاشة، ومثلهم يدمن شراب الويسكي بأفخر انواعه، ويحب السهر في الملاهي الليلية كأى بيك من البكوات القدامي، ولن تتوفر له هذه المصاريف إلا من مصدر كتجارة الحشيش، فلا بأس أن يمارسها علي الهامش، يتخصص هو الأخر في الصنف الذي يهواه : الزيت البريمو، مشروب مشاهير الفنانين ولفيف من المثقفين، لأنه فيما يشاع يجلو أمخاخهم فيتوهجون أثناء التمثيل، وربما كان هو السر فى أن ممثلى الكوميديا عندنا ينفتحون علي المسرح بأى كلام طوال ثلاث ساعات أو أكثر.

لسعيد السني صبيان كبيران، واحد لفترة الصباح وآخر للمساء، أما هو فغائب علي الدوام لا يظهر حتي في محله التجاري إلا نادرا، ولأنه قد أصبح يسكن فى أرقي احياء المدينه فقد احتفظ بحجرة في بيته القديم في هذه الحارة فتح لها بابا علي الحارة فصارت أشبه بمندرة فلاحية، فيها كتب بلدي، تتدلي من سقفها مصابيح كهربية مدهونه باللون الأحمر، هي بمثابة غرزة شخصيه له فى أخر الليل، لا يفتحها إلا لأصدقائه المقربين من طائفه الفنانين الذين، أنهوا نمرهم في الملاهي، من العازفين والمطربين والكورس، والممثلين الذين يتأهبون للحاق بدخلتهم في المسرحيات التي يمثلون فيها ويلزمهم صبغ دماغهم بلون وردي قبل مواجهة الجمهور.

ولأننا لسنا من الزبائن الخصوصيين ذوي الأموال الكثيرة فعلينا أن نتجاوز عطفه سعيد السني ونمضى بضع خطوات، لنحود يسارا، ثم

يسارا. فيمينا. لنفاجأ بمهرجان طابور آخر ممتد. ينتهي فوق مصطبه حيث يجلس في الصدارة شاب ممسك بكرة كبيرة الحجم ككرة القدم من عجينة حشيش شعبي ممتاز ورخيص. بجواره فتي ممسك بالميزان، وفتى ممسك بشكارة الفلوس. يبدأ الطابور قبل الكسرة علي اليمين حيث نري في المواجهة اليسري مصطبتين عريضتين بالأسمنت بينهما فاصل عريض يؤدي إلي مدخل مسجد عتيق بين منزلين عتيقين. رجل كبير محترم يجلس باستمرار علي إحدي هاتين المصطبتين ومن خلفه المساند والتكآت، وباستمرار معه ضيوف شكلهم محترم جدا. جميعهم يلبسون الجلاليب الثمينة والعمائم البيضاء الكبيرة، ودائما هناك شاب مقع أمامهم علي الارض يمد نحوهم بوصه الجوزة ليسقيهم، الحجارة من النوع الكبير كأنها مناقد صغيرة، فيها قليل جدا من التبغ المعسل القص الحامي، والتعميرة في حجم زرار البالطو، وصينيه الشاي داخلة خارجة، تماما كدوار العمدة في القرية، إذا كنا في وقت الصلاة والمسجد مفتوح البوابة المرتفعة فوق الأرض بدرجات كثيرة فإن المسجد يظهر من الداخل في تشكيل بديع للغاية، بعمدانه وإيواناته إنه مسجد أثري عتيق جدا. عمره من عمر القاهرة تقريبا، ولابد أن أحد الصالحين قد ابتناه كزاوية خاصة في الزمن القديم، أو لعله كان مدرسة لتحفيظ القرآن الكريم، لأننا بحثنا عن تاريخه في كل من الخطط المقريزية والخطط التوفيقية فلم نجد له أي أثر. المهم أن هذا المسجد قد أصبح - تقريبا ملكية

خاصة لصاحب الدار الملاصقة له، المتصلة به بسراديب خفية تحتيه، ثم إن شكله من الخارج يشبه شكل البيت.

تلك هي أمبراطوريه أولاد البيطار - وهي عائلة كبيرة متشعبة، مرهوبة الجانب في الباطلية من زمن طويل، فتهامه البيطار وحسن البيطار من أشهر وأكبر عمالقة الباطلية، وملفاتهما لدي الحكومة متخمة بالأوراق والقضايا، وقد أمضى تهامه في السجن سنوات طويلة، وكذلك حسن، وكان السجن بالنسبه لكل منهما أشبه بفندق سياحي فلكوري المظهر، كل شيء ميسر فيه بشكل ربما أسهل من الخارج: نوم علي الحشايا والالحفة الساتان، طعام يومي من البيت فيه لحوم وطيور وفواكه، سجائر مارلبورو طازجة، حشيش وأفيون لعدل المزاج، فلوس بغير حساب غير مقطوعه ولا ممنوعة، المعلم خارج السجن معلم في السجن أيضا، له من المسجونين خدم وحشم وصبيان يعيشون في خيره، وتحت حمايته، كما أن تجارة المخدرات داخل السجن أروج منها خارجه، حيث يتعاقد المعلمون المسجونون مع بعضهم البعض ويتولي صبيانهم وأولادهم في الخارج تنفيذ الصفقات، وفي داخل السجن يتم تجنيد الصبيان واستقطاب الباعة الجدد، والمفرج عنهم في قضايا التحريات العابرة هم أنشط المراسيل وحلقات الوصل بين السجن وخارجه. ويؤكد الذين زاملوا تهامه البيطار في السجن أن السجن قد خدمه أكثر مما أضر به، ففيه اتسعت رقعة معارفه، وأنتعش نشاطه، وبفضله أصبحت عائلته فوق المنافسه في عالم الباطلية.

ورغم أن العائلة في الأصل من قرية (هورين) بمحافظة المنوفية، فإن تجذرها في حي الباطلية قد تم بسرعة قياسية، والمؤكد أن للموهبة الذاتية دخل كبير في نجاح هؤلاء، الذكاء الإجتماعى، حلاوة اللسان، الشهامة التي تأسر الناس، فعل الخير باستمرار، خدمة من هو محتاج للخدمة، حسن التعامل مع المسئولين بصفة عامة، اللباقة في حل المنازعات وفض الخناقات، إغاثه الملهوف، والوقوف بجانب الزملاء - حتي المنافسين - في وقت الشدة، لكل هذا أصبح لأولاد البيطار (دولاب) كبير شهير في طول البلاد وعرضها، أين منه دولاب مصطفى زقزوق الذي تقف وراءه الحاجه زهره وأولادها الذين هم مثل الورد، ويبدو أن السيدات في مثل هذه الأعمال لهن باع طويل، فإذا كان وراء كل عظيم إمرأة فإن وراء كل تاجر كبير هنا إمـــرأة أيضـــا، والحاجـة «فتنه» أم أولاد البيطار تقف هي الأخري وراء نجاح أولادها.

للحاجه (فتنه) أخت، لها هي الأخري ولد واحد يتفوق علي أولاد خالته رغم أنه شاب صغير السن، ذلك هو « سيد الفرماوي » أكبر تاجر أفيون في البلاد، يبيع بالجملة تشهد بكفاءته ملفاته في سجلات الشرطة، تلميذه وصبيه - حسن جابر - يرحمه الله - كان صديقا لي، يسهر معي كل ليلة في مخدع اتخذته للكتابه والقراءة في مقابر المجاورين علي طريق صلاح سالم، إقتطعه لي صديقي سمكري السيارات حسن ورده من حوشهم، وعن طريق حسن ورده تعرفت علي

حسن جابر، الذي كان مغرما بشرب الويسكي أثناء تدخين الحشيش علي الجوزة فيحكي عن مغامراته في المواني والمرافىء العالمية أثناء قيامه بتنفيذه مخططات سيد الفرماوي لجلب البضاعة، حكايات لها العجب، تكشف عن ذكاء خرافي خارق في عمليات التهريب، والضحك علي ذقون الحكومات، كيف خرج من هذا الميناء بخمسين أقة، وكيف دخل هذا المطار بمائتي أقة، وكيف انسلت من الأخطار انسلات الشعرة من العجين !!

ذكاء حسن جابر من ذكاء سيد الفرماوي، فالطيور علي اشكالها تقع وكان حسن جابر ضخم الجثة كفيل، جهير الصوت منطلق السجية، محبا للحياة يعيشها بالطول والعرض، ولا يفيق علي الاطلاق، يتمتع بقوة دافقة مبذولة في التحدي لكلِ القوانين والأعراف كان يجلس معنا ضابط شرطة شاب حديث التخرج مغرم بالثقافه، ويتجنب حسن جابر بقدر الامكان، فهو من نفس منطقة الجمالية ويعرفه جيدا وهو ضابط حسن السلوك علي خلق قويم مع ذلك يحلو لحسن جابر أن يتحداه باستمرار، وفي ليلة كان الضابط يجلس معي في العشة، ذات الجدران الخشبيه السميكة سمك البوابات العتيقة، في حين جلس حسن جابر وشلته خارجها، وكان سكرانا، وموغر الصدر من الضابط لشعوره إن الضابط يحتقره، فما كان منه إلا أن راح يهرج وينكت بنكات فيها تلقيح واضح علي الشرطة وعلي المثقفين فلما لم يستجب له أحد ضرب

قبضته في الجدار بقوة فنفذت قبضته كلها من الجدار دون أن يصيبها خدش واحد، وكادت أسنان الخشب الممزق تشق جنبي لولا ستر الله.

مات حسن جابر ميتة غاية في السهوله، كان في جولة بسيارته البيجو في المحلة الكبري وطنطا لتحصيل أموال المعلمه وفي شارع في طنطا احتجزته الإشارة الحمراء، فلما وجد إن الانتظار سيطول به في الإشاره وضع رأسه علي عجلة القيادة ليريح رأسه من دوار خفيف، لكن الإشارة فتحت ومضت كل السيارات الا سيارته، فذهب إليه عسكري المرور وهزه برفق، فوجد أن السر الالهي قد صعد.

أثناء ذلك كانت صورة مرسومة بالألوان علي لوحة كبيرة لشاب من أولاد البلد يرتدي الملابس الافرنجية، البذلة والكرافت يشوب رأسه الكبير صلع خفيف، يكاد يتطابق في الشبه مع صورة الرئيس السادات لولا أن الوجه يتدفق بالصحة والعافية، وقد علقت هذه الصورة علي واجهه مسجد محمد بك أبو الدهب في شارع الأزهر، ذي القبة الجميلة التي تصنع مع مئذنتي الأزهر منظرا تشكيليا معماريا بديعا جدا، وقد كتب تحت هذه الصورة، سيد الفرماوي يبايع الرئيس السادات، وكان الكثيرون من ركاب الحافلات يطالعونها كل يوم وهم يتساءلون : من يكون سيد الفرماوي هذا المهم الكبير ـ فاذ يبدو هذا التساؤل علي وجوههم، تنبعث علي الفورمن من وجوه أخري بسمات لطيفة فيها غمز لطيف، أولئك هم الذين يعرفون أن الساعد الأيمن لسيد الفرماوي قد تم

بتره يوم جاء الخبر من طنطا بموت شخص مجهول الهوية يدعي حسن جابر وفي جيبه بضعة ألوف من الجنيهات. ولقد ظلت صورة سيد الفرماوي علي الجدار تسفعها الرياح وتلسعها الشمس حتي كلحت وتهرأت وسافرت مزقها مع الهواء خلف الحافلات التي يعج بها شارع الأزهر، ومنذ ذلك التاريخ شحبت سيرة سيد الفرماوي، وقيل إنه قد دخل السجن وإن المدعي الإشتراكي قد تحفظ علي أمواله.

كان هو الممول الوحيد لتجار الباطلية بالأفيون الخام، وأحد صبيان أولاد خالته يجلس قرب المسجد السالف الذكر بكرة الأفيون صانعا طابوراً أخر يتقاطع مع طابور الحشيش من التعساء الجربانين الكحيانين عيونهم نائمة في بحر من العماص المتكلس، لحاهم وشواربهم مهوشة قبيحة المنظر، يتبلد الواحد منهم في وقفته علي استعداد لمواصلة الوقوف يوما كاملا في سبيل أن يشتري من هذا المصدر الحنون السخي، فما يشتريه من هنا بخمس جنيهات قد لا يستطيع شراءه من غيره بعشرين جنيها.

الطريف، والساحر في نفس الوقت، أن هذه العطفة الضيقة التي تحتشد بكل هذه الجموع الغفيرة في طابورين متقاطعين كالصليب، غير المارة العاديين الذين لا شأن لهم بشيء والمتوجهون إلي أعمالهم.. يمكن في لمح البصر أن يختفي كل هؤلاء كأن الأرض انشقت وابتلعتهم، فكيف يحدث ذلك ؟

الناضورجية عند أولاد البيطار انشط وأكثر من غيرهم عند الأخرين، فبين كل بضعة أمتار يقف ناضورجي ثاقب العينين، بينهم شاب أخرس ومع ذلك هو أكثرهم خبرة وذكاء في اكتشاف رجل البوليس حتي لو تنكر في زي سيدة. شاهدته بعيني ذات مرة يكتشف شيئا كهذا، وكنت صديقا حميما له إذ هو من حي قايتباى الذي أستجدعه، وأجيد التحدث معه بأسلوب الإشارات المدروسة، فلما سألته عن كيفية اكتشافه لضابط المباحث المتنكر في زي سيدة بملاءة لف ؟! فأشار إلي قدميه، شارحًا لي أنه لمح من تحت الملاءة حذاء رجاليا، فصــرخ صرخته في الحال.

الناضورجي حينما يكتشف رجل البوليس، أو يشم رائحته، أو حتي يتشكك في أحدهم، فما عليه إلا أن يصنيع فجأة كأنه يخاطب شخصا مجهولا، صيحة واحدة : ولد، كأنه ينادى علي أحد الولدان، ففي أسرع من البرق الخاطف ينزلق حامل الحشيش وحامل الآفيون وحامل الفلوس إلي باب سحري خلف المصطبة، أو يختفي في عطفه يبدو مدخلها كأنه مدخل بيت، في حين يتبعثر الطابوران في موجة دافقة ترتبك لثوان قليلة ثم ما تلبث أن تذوب وتتحول إلي مفردات تمشى هنا وهناك لا تلوي علي شيء

المدخل الحليم

مداخل الباطلية ليست مجرد منافذ للدخول فحسب، وليست تنويعا في المسالك تتيح للمتعاملين معها فرص الزوغان، إنما هي مستويات في طبقات الذين يتعاطون الحشيش، ذلك أن كل مدخل من مداخل الباطلية يقود إلي نجم من نجوم الصنف له مميزاته الخاصة يقصده زبائن من نوعية خاصة، ذلك هو الأساس وبعده تأتي مسألة تنويع المداخل والمخارج.

نستطيع مثلا أن ندخل إلي الباطلية من آخر الشارع الذي يحتل ناصيته مبني مديرية الأمن في باب الخلق، حيث تمضى حتي تتجاوز بوابه المتولي، وجامع الصالح طلائع، وبعد خطوات قليلة نحود في عطفة تؤدي إلي جامع فاطمة النبوية، فنعيرها إلي شارع جامع أصلان الذي يوصلنا بعد بضعة ياردات إلي الساحة الشهيرة في قلب حارة الباطلية.

غير أن الهوي لابد أن يميل بنا إلي جامع فاطمة النبوية، ليس فحسب لهذه الجاذبية الغريبة التي تشدك إلي مقاهيه وأزقته اللولبية

المشبعة بدفء الزحام اللطيف المتآلف، وإنما لأن حي النبوية قد أصبح مرادفا للمعلم «زيدان ابو كرش» أحد أشهر كبار باعة الحشيش في مصر، عدد زبائنه يفوق الحصر، وهم نوعيه شديدة الخصوصية من الحشاشين : رجال الأعمال، مساتير التجار، كبار الموظفين، بعض المقاولين، ولفيف من الوجهاء الذين يأنفون من الدخول إلي قلب الباطلية ناهيك عن الوقوف في طوابيرها.

فزيدان ابو كرش رجل في الأربعين من عمره، لا هو بالقصير ولا بالطويل، موفور الصحة أحمر الوجه، أبن بلد لكنه يرتدي القميص والبنطلون فيبدو كطلاب الجامعة من أبناء الذوات الذين يرسبون سنوات طويلة في الدراسة. لبق في حديثة، منفتح، عشرة، سخي، مؤدب، موهوب في اكتساب ثقتك وصداقتك من أول نظرة، حيث يخيل إليك أنك تعرفه من زمن طويل، لعله كان زميلك في الدراسة، أو أحد أقاربك، في سحنته شيء يدعوك للسلام عليه، في عينيه دعوة مستمرة تقول لك : تفضل الشاي، فإن ألقيت عليه السلام فأهلا سعادة البيه تعالى اشرب قهوة والله ! وهو يعنيها بالفعل حتى ولو كان يراك لأول مرة، فألف مقهي حواليه لدرجة أن الكراسي تختلط ببعضها علي الأرصفة وفي امتدادات الأزقة لا يميزها عن بعضها سوي أسماء أصحابها المحفورة علي مساند ظهورها، يجلسك علي أي كرسي، ففي الحال يجيئك النادل التابع للكرسي، تشرب قهوتك ونارجيلتك وبالسلامة

فالمعلم قد دفع الحساب، إلي ذلك فيده في جيبه علي الدوام داخله خارجه بالحسنة لكل من يتوقف أمامه يطلبها، وتبرعاته لفعل الخير في الحارة لا حصر لها، ثم إنه يتكفل بجهود كبيرة في إقامة مولد النبوية كل عام، يذبح عجلا أو عجلين لأهل الله، وقد ابتني عمارتين مهولتين لصق جامع النبوية جعل في الدور الأرضي فيهما مكتبا له وحظيرة لسياراته المكتوبه باسماء زوجه وأولاده، يعرف القراءة والكتابه بالكاد، وجلسته المفضله علي كرسي في مواجهة العمارتين في قلب الحارة، حيث يقعي أمامه ولد يسقيه الحجرين بالجوزة، رغم أن زجاجة الوسكي مختفية تحت الكرسي، ناهيك عن سهراته الحافلة في احدي شقق هاتين العمارتين.

الولد « بمبه » صبيه ولد سفروت ضئيل الحجم كالممثل عبد السلام محمد بالضبط، عجوز الملامح والنكته، حكيم، مليء بالخبرة والتجربة، مبحوح الصوت محترق الشفتين من فرط التدخين المستمر، سواء كنت صديقا للمعلم أو زبونا جديدا فإن بمبه يلتقيك بمجرد وصولك، يلاغيك، يشجعك علي أن تتقدم بطلبك دون أن تتلعثم أو ترتبك، إذا كنت زبونا جديدا فأنت قادم علي حسن سمعة المعلم، إذ أنه يبيع تعميرة واحدة بمستوي واحد لا يتغير مطلقا، إجتذب بها كل زبائنه في مطلع حياته، أيام كان يجلسك بجوارة علي أحد المقاهي ويغيب عنك برهة ثم يعود فيغمزك في الكتمان بالطلب لامن شاف ولا من دري ، الأمر الذي شجع هذه النوعيات المتعددة من الزبائن النظفاء علي الإستقرار عليه.

أهم خصيصة بني عليها سمعته هي الإستقرار علي صنف معين لا يحيد عنه، ولا يطمع في رفع سعره مهما تقلبت الأحوال في الباطنية، وإذا كانت بعض المطاعم تشتهر بأكلات معينة لصاحبها « نفس » في طبخها يميزها عن غيرها في المطاعم الاخري ويجعل الأكلين يتكالبون عليها، فإن هذه الخصيصة تنطبق علي حشيشة زيدان ابو كرش، فيها نفس .. هكذا يقول شاربوها بالحرف.

هي حشيشة لا تتغير ولا تتبدل، وإذا كان معظم التجار يبيعون أصنافا متعددة، وتتقلب بهم الأحوال بين المستويات الواردة عليهم من السوق، فتارة يبيعونك تعميرة ممتازة وتارة يبيعونك تعميرة رديئة فاسدة، فإن زيدان أبو كرش يقوم بصنع تعميرته بحرفنة دقيقة لا يباريه فيها أحد إنه خبير في التصنيع والطبخ، شرط ألا يغش، فهو يخلط البريمو علي الممتاز علي المتميز، فكيسين من الغبارة الشعبية الزاعقة، علي نصف كيس من البودرة الهبو، علي نصف كيس من الزيت، يضرب ذلك في الخلاط، فتتخلف عجينه ذات نكهة فواحة زاعقة تقول بمجرد فتحها أنا الحشيش الأصلي من أعلي صنف، والزبون الجديد المتشكك المقروص بوجع المبلغ الباهظ الذي يدفعه في ربع قرش لا يصبر حتي يعود إلي بيته فينزوي في عطفه قريبة ويفك ورق السوليفان ليطمئن، فلا يكاد يرفع الورقة حتي تهب الرائحة الزكية طافحة كاسحة فيتهلل وجهه بفرح طفولي ويسرع باعادة لف الورقة في غبطة كأنه يخشى عليها من الحسد.

يتوقف نجاح المعلم علي قدرته في اختيار صبيه قبل كل شيء، وهو في العادة إما أن يتولي تربيته بنفسه وفي هذه الحالة يتعين عليه استلقاطه طفلا صغيرا جدا، ثم يروح يغدق عليه بسخاء، ويحنو عليه حنو الاب علي الإبن، يطعمه مما يأكل، ويكسوه مما يلبس، يعوده علي الأمانه فلا يخونه، فإذا كان في نفس الولد شيئا من الأمنيات حققها له، وألبسه ملابس الرجال مبكراً، حتي يتشرب الولد طباع سيده وينطبع علي الوفاء والولاء له، وإما أن يكون الصبي من لحمه ودمه وكلما كان طفلا صغيرا يكون أفضل، ذلك أن النظام المملوكي هو أعمق الفترات التاريخيه تأثيرا وتجذرا في الشخصيه المصريه، خاصه في الأحياء الشعبيه العتيقه المسماة بالأحياء الوطنيه، هنا نجد الشخصية المصرية مملوكية صرفه، حتي أبناء هذه الحارات الذين يصيبون قدرا من التعليم العالي والثقافة تري أخلاقهم مملوكية، فإذا قدر للواحد منهم أن يكون صاحب منصب حكومي فإنه بشكل تلقائي ينصرف الي تربية مجموعة من المماليك التابعين له، والآلاديش، ولابد أن تجد أن بعض مماليكه يحاول هو الأخر أن يكون له ولو مملوكا واحد، تتجلي هذه الأخلاق بصورة فاقعة بين تجار المخدرات، ربما لأنها أقرب الي السلطنة.

« بمبه » كان مملوكا بمعني الكلمة لزيدان أبو كرش ، هو الساعي والناضورجي، والمسئول عن المخزن السري، وعن كل صغيرة وكبيرة في حياة معلمه، حتي مصاريف بيته يتكفل هو كل يوم والحساب يجمع في

نهاية المساء. ولا غرابه فزوج المعلم هي نفسها أخت بمبه، كان يحلو لي أن أتفرج علي بمبه ونحن جلوس علي مقهى نجيب في شارع جامع آصلان، والمقهي عبارة عن هذا الشارع نفسه لأنها مجرد دكان صغير يتسع بالكاد للنصبه، فالكراسي مرصوصة في الشارع علي الجانبين، تفصل بينها طقاطيق نحاسيه محندقة علي قد صينية الشاى، والنارجيلات مرصوصة أمام الجالسين، كل نارجيلة فوق طاستها خمس حجارة مزودة بالتبغ المعسل، وثمة ولد ممسك بصفاة مليئة بفرط النار كحب الرمان، يروح ويغدو بها، يغترف منها بمعلقة الشاى ويضع فوق الحجارة، ومن حين إلي حين تقبل سيارة مرسيدس، أو عربة نقل، فيخيل إليك أنها ستحشر، أو ستدوس هذه النارجيلات، لكنها بدربة شديدة تزحف مارقة، أقول كنت أحب التفرج علي بمبه وهو يمارس المعلمة بدوره علي رجال أضخم منه حجما ويحاول استقطابهم بصنعة لطافة ليكونوا من مماليكه، الأكثر طرافة أنه يجد الكثيرين ممن يشعرونه بأنه أستاذهم، وتلك أيضا من خصائص الشخصية الشعبية المصرية، فتأصل النظام المملوكي في المجتمع المصري - دون كافة الأنظمة التي مورست عليه - زرع في شخصية الأحياء الشعبية هذا الذكاء الإجتماعى المتوارث : لقد أصبح المواطن في الأحياء الشعبية يدرك أنه لكي يعيش فى أمان الله لابد له من حماية، كالغريق الذي يتوهم أن القشة يمكن أن تكون سندا، لهذا فما أكثر الذين يوهمونك أنهم رجالك وأتباعك ومحاسيبك إذا

كنت في موقع مهم، يفعلون ذلك بإتقان شديد وأحيانا بموهبة فطرية، حتي إذا ما بطلت أهمية موقفك انفضوا عنك تماما، ليبحثوا عن سند آخر.

غير أنه إذا كانت هذه خصيصة في الشخصية الشعبية المصرية فإن كل إنسان مع ذلك ليس بقادر علي الإستفادة منها رغم أنها مبذولة، إنما تحتاج لموهبة فطرية أصيلة في الشخص لكي يستطيع الإحتفاظ بماليكة في لحظات عسره وشدته، وهذا ما لم يكن في طبيعة « بمبه » حتي بعد أن تهيأت له الظروف الملائمة بموت « زيدان أبو كرش » فجأة نتيجة هبوط في الدورة الدموية بعد إدمانه شم الهيروين والكوكايين، ورغم أن بمبه قد ورث المعلمة، وزبائن المعلم، وسر الطبخة، فإنه لم يستطع أن يكون معلما ابدا، ذهبت ذات يوم من أواخر الثمانينات أمارس الصعلكه الحميمه في حي النبويه الحميم، وأقدم واجب العزاء في موت المعلم زيدان الذي كنت أحبه واستلطف شخصه المريح، فالتقاني بمبه، واصطحبني إلي منزله في نفس الحاره فوق مقهي مجيب، فإذا به كان تزوج من سنيوره ذات جمال مذهل لا يحظي بها أفرس الفرسان، شيء لا يمكن وصفه، فعرفت أنه يحاول استكمال عدة المعلمنيه، وأراد أن يغريني بصنف يبيعه لعلني أنبه اليه أصدقائى من الشريبة، فلم يعجبني، كان شكل التعميرة هو نفس شكل تعميرة معلمه، لكنها تفتقد نفس المعلم، وكان شكل بمبه مثيرا للرثاء، صار جلدا علي عظم، صار من الواضح أنه هو الآخر يدمن الشم بفظاعه،

وربما ليستكمل أيضا مقومات شخصية المعلم، ولكن هيهات، بعدها بأيام قليلة كنت أشتري فحما من حي الفحامين لكي استخدمه في نارجيلتي التي تؤنس وحدتي في حوش القرافة، فالتقاني لجيب صاحب المقهي، وأول شيء بادرني به قوله : البقية في حياتك في بمبه قتله شم الهيروين ، ففزعت، لا حزنا عليه، بل لطيران قلبي خلف تلك السنيورة الشبيهة بالمهرة الأصيلة، التي لا شك سيحظي بها مملوك ميسور الحال هو في الغالب غير جدير بها.

المدخل الغشيم

لندخل الآن من المدخل الأساسي، المدخل الغشيم، الذي يسلكه كل من جاء إلي الباطلية لأول مرة، أعني به المدخل المحازي للجامع الأزهر. ولو أن هذا الممر وحده في بلد آخر علي شيء يسير من الوعي الحضاري لأصبح من البقاع الساحرة في البلاد، فعلي يسارك جدار مبني الازهر العتيق يمتد في أعماق بعيده، وعلي يمينك مبني من نفس الطراز الفاطمي، مساو له في العمر تقريبا، ومن الواضح أنه كان فيما مضي جزءا من بناء الجامع الأزهر، لعله أحد أجنحة السكن المعدة للطلبة الغرباء، أو لعله كان خاصا بالادارة، أو ربما كان قصرا منيفا لواحد من رجالات الدولة في العصر الفاطمي، مبني بكتل الحجارة المنتزعة من الآثار الفرعونية البائدة حافل بالبوابات والشرفات والمشربيات، لكنه كالح مغبر، مبقع بالبطش والرطوبة والعفن، تحتله أسر من الباعة السريحة والبلطجية.

بانتهاء جدار هذا المبني العتيق، مع تحويده الي اليمين في حارة الباطلية، تصافح وجوهنا علي الناصية اليسري للتحويدة بنايه عتيقة كانت فيما مضى آية في الجمال المعماري، قبل أن يجور عليها الزمان النذل ليوقعها تحت رحمة الدهماء، وقساة القلوب من حكام غليظى الأكباد، كانت سبيلا مشهورا ذا تاريخ حافل، والأن هي بوتيك حقير يبيع ألوانا من السجاير والعطور والحلويات والخيوط، ولا أحد يعرف كيف يتم لمثل هولاء المحظوظين الإستيلاء علي مثل هذه التحف المعمارية وامتلاكها وإجـراء التعديلات فيها بما يشوهها ويفقدها معالمها.

دعنا نجتاز هذه البناية القائمة علي ناصية عطفة علي اليسار، تتخذها المقهي المواجهة مكانا إضافيا لها تنشر فيه كراسيها ونراجيلها. وأنا مالي، تعبير مصري أصيل وعريق، في الاصل كان يتردد علي الألسنه بهدف الإدانه، والسخرية من سلبيات المسئولين، لكنه أصبح شعارا وحكمة يتذرع بها كل من يتخذ موقفا سلبيا حقيرا من الأمور : وأنا مالى، بل الأشد خطورة من هذا شعار جديد بدأ يتردد علي الألسنة - بهدف السخرية أيضا : هي كانت بلد أبونا ؟! ذلك لأن الحكومات المتعاقبة كان جلّ همها تحييد الشعب وإغراقه في السلبيه، وقد كان، ومن هنا فأي بلطجي جريء صفيق يستطيع أن يفرض نفسه قيما علي الناس، ولأن الشعب المصري لا يعنيه مطلقا من يحكمه، فقد بات لا يعنيه من أمر مصيره شيئا، الدليل علي ذلك هذا المدخل المباشر

للباطلية، والذي سميناه بالفشيم، إذ لا يسلكه إلا الذين لا يعرفون جغرافية المنطقة جيدا، ومعظمهم جاءوا الي الباطلية مدفوعين بما سمعوه عنها، فنظرا لخبرتهم الضئيلة في شراء الحشيش، وخوفهم من المغامرة في اقتحام بائع سري، فإنهم يلجئون إلي البائع المباشر والقائم علنا في السوق حيث البضاعة ملقاة علي الترابيزات عارية من الأغلفة، هؤلاء الزبائن يستطيع أي بلطجي أن يلعب، ليس فحسب باعصابهم بل وبمصائرهم لو أراد، إنهم من السهل اكتشافهم لأي بلطجي، فهم لشعورهم بالخوف والمغامرة يتلفتون حولهم في كل خطوة، يبدو عليهم الانزعاج من أى حركة، وجوههم ممتقعة، خطواتهم غير متماسكة، لا سيما عند الخروج وهم يحملون ما اشتروا، فمشتري الحشيش دائما ابدا يبقيه في قبضته المضمومة حتي يصل إلي شاطيء الأمان، لا يضعه في جيبه أبدا، تحسبا لأى مفاجأة، حتي إذا شعر بالبوليس يفتح قبضته تاركًا القطعة تسقط تحت قدميه فإن يأتي بها الضابط من الأرض غير أن يستخرجها من جيب الزبون، هنالك فرق جوهري عند المحاكمة.

البلطجي الذي يراقبهم من مربضه علي المقهي يعرف أنهم يفكرون هكذا وهو ابن حرام يجيد التمثيل، لم يفعل شيئا صاخبا كل ما في الامر أنه يصطاد عينى أحدهم فيسلط فيه عينيه بقوة ذات معني، بنظرات إرهابية واضحة توحي بأنه في الموقف الأعلي، حتي إذا ما اقتربت الضحية نهض واقفا في حركة مسرحية متقنة، واتجه نحوها في

عزم وتصميم وتهديد مسلطا عينيه الناريتين في عيني الضحية، ففي الحال تكون الرسالة قد وصلت، وتكون قبضة الضحية قد انفكت تلقائيا وأسقطت القطعه في الأرض ثم انخرطت في السير بسرعة، فينحني هذا عليها ويلتقطها ويختفي في الحال، غير أنه لديه من الحيل ما يمكن أن يخلصه إذا فوجىء أن ضحيته علي درجة من الوعي والقوة والتودك، حينئذ يستخدم موهبته التمثيلية : سرعان ما تتغير ملامحه حينما يري الضحية قد توقفت متصدية له، فإذا هو يقول : الأستاذ فلان الفلاني ؟ أى إسم يخطر علي باله بالطبع، وإذ تقول الضحية في تحد وتهكم : لا والله، يعتذر هذا بلباقة، موحيا إليه بشكل ما أن شخصا ما بهذا الاسم قد نصب عليه ذات يوم فظن أنه هو، ثم يمضى كل منهما إلي حال سبيله.

في مدخل الحارة الغشيم هذا، بعد اجتياز البناية التي كانت ذات يوم أحد الأسبلة، وعلي ناصية حارة الكحكيين التي تشق حارة الباطلية بالعرض، دكان غاية في الأناقة، مزخرف الواجهه، مدهون بالزيت الفاخر، وبه مكتب وبضع مقاعد جلدية وثيرة، ومكتوب علي لافتة في أعلي بابه عبارة : مقاولات اداوت صحية، إلا إن الدكان لم يسبق له ممارسة هذه المهنة في يوم من الأيام، ولا أية مهنة آخري، لكنك علي الدوام تري رجلا بلديا علي درجة عالية من الجمال والابهة وقوة الشخصية، يلبس الجلباب الصوف الثمين المعتبر، تحته صديري من

الحرير الشاهي، وفي قدميه حذاء أجلسيه لميع وارد الخارج، وفي معصمه ساعة رادو من الذهب الخالص، وفي بنصره خاتم ذهبي بفص من الياقوت الأحمر المبهج الشفاف، طويل الرقبة مفتول العنق وجهه صغير مدور يشه حبه الكمثري، لكنه كالبدر في تمامه أبيض مشرب بالحمرة، شارب أشقر متسق للغاية فوق شفته العليا مثل كليشيه بتوقيعه، والرأس بلا غطاء، مصفف الشعر القصير، متناسق الفودين بمقص حلاق ماهر من حلاقي وسط المدينة المشهورين يحلو له الجلوس فوق الرصيف العالى في فتحه الدكان، واضعا ساقا علي ساق في عظمه تلقائية فطرية، فيخيل لمن يراه أنه الملك فاروق متنكرا في زي بلدي

ذلك هو « الحسيني براهيم » أحد ملوك هذه الحارة المتوجين، له عزوة كبيرة تتكون من أولاد شقيقاته البنات، وهم رجال كالورد البلدي، جمالا وجدعنه وجسارة وشوكا حادا، وكذلك أولاد خالته، أصحاب محلات كثيرة للفول والطعمية والكباب، وبعضهم يملك سيارة نقل أو أجرة يقودها بنفسه، وللحسيني ابراهيم أكثر من زوجة، وولدين اثنين من زوجين مختلفين، وهو إلي ذلك دون جوان بمعني الكلمة، وعلاقاته النسائيه وغرامياته تشبه اساطير الف ليلة وليلة، ويشاع أن الكثيرين من المسئولين يتحاشونه خوفا من سطوته الجنسيه !! ذلك أن قصص غرامياته الكثيرة حكت من بين ما حكت وقوع زوجات بعض المسئولين في غرامه، ولا يستطيع العقل المجرد رفض هذه الشائعة لأنك أمام

جمال اسطوري أين منه جمال سيدنا يوسف بن يعقوب الذي راودته إمرأة العزيز عن نفسه،وإذا كان شمشون الجبار يستمد قوته من شعر رأسه فان الحسيني ابراهيم يستمد قوته من الاساطير التي تحاك حول تأثير جماله علي النساء، لا سيما أنه علي درجة عالية من الحياء، والادب، واللباقة، فرغم أنه لا يعرف القراءة ولا الكتابة فإنه يتحدث بلغة المثقفين تشيع علي لسانه عبارات فخمة عميقة المغزي منضبطة الايقاع سليمة المخارج والحروف لا تدري من أين استقاها، بل إن لغته بوجه عام أغني وأكثر حيويه من لغه الكثيرين من المثقفين، خاصة إذا تكلم في السياسة أو أحوال المجتمع أو أمور الحياه اليومية، فهو مؤهل بموهبة فطرية لأن يحادث أعظم الشخصيات إيا كان مستواها الثقافي، بثبات وثقه وثراء في المفرادات والأفكار النيرة الوجيهة والآراء المنطقية المدروسة، لدرجة أن أى نائب عام يحقق معه قد يتلجلج ويرتبك في مواجهة منطقه الحاد المغلف بالحرير الناعم، لهذا لم يحدث مطلقا أن تطاول عليه محقق، علي العكس فإن المحقق مهما علا منصبة سيحاول قدر الطاقة أن يتشبه بهذه الرصانه، أن يكتسب شيئا من هذا الأدب الجم، أن يرتقي إلي هذه المرتبة من الإحترام والمهابة، وأما إن تطاول متطاول من ذوي الألسنة الحادة بطبعهم، فإن التطاول سرعان ما ينخسف في مهدة فيظل صاحبه طوال الجلسة يقدم شتي ألوان الإعتذار، لأن الحسيني ابراهيم سيريه مركزه في التو واللحظة ربما بكلمة واحدة، ربما

بالاشارة، بغمزة. فللحسيني ابراهيم عيون وعسس في كل مكان، يجىء له بالأخبار من لم يزود، جميع المسئولين بجميع رتبهم ومواقعهم في جميع أنحاء البلاد يعرف كل شيء عن داخلياتهم وحياتهم الخاصة بل والسرية، أرقام هواتفهم وإن تغيرت كل يوم، ربما أسماء أمهاتهم وزوجاتهم وشقيقاتهم، حتى خلافاتهم العائلية، والجزاءات التي وقعت عليهم كما دونت في ملفات خدمتهم بالحرف الواحد، والأسباب التي أدت إلي نقل هذا ونفي ذاك.

إلا أن هذه الحصيلة الضخمة من المعلومات، التي ربما تعجز عن استقطاب مثلها وكالة المخابرات الآمريكية، إذا لم يتوفر لها عقل مستنير قوي لاستخدامها جاءت وبالاً علي من يملكها والحسيني ابراهيم يملك هذا العقل، فأبدا ابدا لا يشعرك بأنه جاسوس علي حياتك الخاصة، إنما هو يسوق إليك هذه المعلومات في الوقت المناسب باللهجة المناسبة، ربما نكتة، في خبر عابر بريء، في سياق حديث ذي شجون، في دردشة ودية لا تحمل أى قدر من الخبث، وأنت - كمسئول - تشعر أنه خبير بحياة رؤسائك يعرف عن خصوصياتهم مالا تعرفه أنت رغم التصاقك بمسئولك، فهو إذن لابد أن يكون لصيقابهم علي المستوي العائلى، ثم إنه يتحدث عنهم بود وأريحية وحب، بما يوحي بأن قلبه الكبير قد وسع جميع مشاكلهم، وأنه يرثي لهذا ويأسف لذاك، ويتفطر قلبه علي فلان.. الخ.. تشعر أنت في الحال بالإنكماش، تعرف حدودك، والمرجح

أنه سينسيك ما جئت من أجله، فإذا كان من المفروض أنك قادم لاجراء تفتيش في بيته فإنه وقد احتواك من أول وهلة سوف يظل يمعن في احتوائك يستقطبك في صفه، ولسوف يستدرجك لأن تحكي له مشاكلك الخاصة، ومتاعبك في الوظيفة، وأزماتك المادية، وحينئذ سيذهلك بسلوكه، ربما سحب دفتر الشيكات وقدم لك واحداً ببضعة ألوف من الجنيهات تفك بها أزمتك، في طريقة عرضه حسم واحترام ورهبة يصعب عليك تحديها أو مخالفة رغبته، فالصفاء في العينين وصفحة الوجه ينضحان بشهامة لا يمكن ردها وبرغبة حقيقية في ممارسة الاخوة مليئة بالدفء والحيوية يعز عليك مصادرتها.

أي قوة بعد ذلك تستطيع النيل من قوة الحسيني ابراهيم ؟؟ إنه آسرك لا محالة، ولابد أن يورطك في جميل لا تقوي علي رده، تكثر جمائله عليك حتي يسقط كل الحواجز بينكما بجميع أنواعها، تنتفي الخصومة، قد تفاجأ بعد فوات الأوان عادة - أنه فجأة قد أصبح صديقك الصدوق بل أعز الأصدقاء في حين أنه من المفترض أنك خصمه الذي عليه أن يكافحه، فجأة تراه قد أصبح يزورك في بيتك، أصبح نجما لامعا في محيط أسرتك، أليفا حميماً ربما فوجئت أنه حقق لجميع أولادك كل أمنياتهم التي حرموا منها نتيجة لضعف راتبك، فأسورة ذهبية ثمينة لزوجك، وعقد لابنتك، ودراجه لابنك الصغير، وربما سيارة جديدة لسعادتك خالصة الجمارك والرخص، بل ربما فوجئت أنه قد أصبح

يؤخذ رأيه في العرسان المتقدمين لأبنتك، وفي تفاصيل الفرح، واختيار النادي المناسب لإقامته، ربما أمتدت خدماته إلي ما هو أبعد من ذلك بكثير، وأبدا لا تشعر أنه يقدمها لك كرشوة، إنما تشعر أنه أخوك الذي لم تلده أمك، وأنت إذا قدمت له خدمة بسيطة فأنت تنسي أنها خدمة، لأنك تشعر أنه في غير حاجة إليها إذ هو نافذ إلي من هو أعلي وأهم منك بكثير مع ذلك فإنه سوف يشعر بالخدمة مهما تفه شأنها، ولسوف يقدم لك المقابل ذات لحظة فضلا عن كرمه المبذول أصلا قبل أن تخدمه، فإذا قدم لك الخدمة فإنها لابد أن ترفع مستواك في العمل وتأتي لك بترقية.

كثيرا ما كنت أقرأ في الجرائد القومية الثلاث نصف صفحة في ركن الحوادث عن وقوع شحنة ضخمة من المخدرات فى أيدى الحكومة نتيجة للجهود الساهرة علي الحدود تترصد عصابات التهريب، وأقرأ اسم الحسيني ابراهيم كأحد أفراد هذه العصابة أو تلك وراء هذه الصفقة المضبوطة، وأنه معروض علي النيابة، يتصادف في نفس اليوم أن أزور الباطلية لشراء التعميرة أو لمجرد التجوال الحميم في قلب المخاطر بحاسة روائي مفتون بالحياة والناس، فإذا بى أري الحسيني إبراهيم منجعصا علي كرسيه الجلدي واضعا ساقًا علي ساق، مساء الخير ياحسيني، تفضل، أصعد الدرج فيكون كالعادة قد استعد واقفا في استقبالي بترحاب وتبجيل عظيمين، شأنه مع كل الناس الذين يري بحاسته النظرية أن لهم اعتبار ما في المجتمع، هات كرسيا يا ولد،

أجلس، يجيء براد الشاي من المقهي المواجه للدكان، وهو بالمناسبة ملكه، باسم ابنه براهيم، يتمركز فيه ابنه الثاني أحمد لبيع الحشيش والأفيون بالقطاعي يقوم الحسيني بصب الشاي وتقليبه، ثم يبتسم شاربه الجميل وهو يقول في كرم خجول : تأخذ سنة أفيون ؟ ثم يمد أصابعه خلف شحمة أذنه، ليستل من تحت شعره ورقة سوليفان مبرومه، يفتحها، يعطيك بظفر إبهامه لحسة ثمينة، فإن أردت الشراء فإنه يشير لك علي المقهي، وفيما أنت ماض يلتقيك ابنه فيغمزك بالأمانة.

بيني وبينه ود حميم، لا أشبع من مجالسته، يسألني عن آخر قصة، كتبتها، يقول إنه ينوي أن يحدثني ذات يوم عن حكايات مريعة يجب أن أكتبها ليتعظ بها الناس، يقول انه فخور بنجيب محفوظ ابن حيه حي الجمالية، وأنه يعرف عنه الكثير ومن الذكريات الطيبة، وأنه - نجيب محفوظ - رجل ولا كل الرجال، أتذكر صحف اليوم الملقاة كلها علي مكتبه، أسأله في شيء من الاشفاق : صحيح ما حكاية ما نشر اليوم ؟ فإذا هو يبتسم مشوحا بذراعه الطويل المليء بكرات الشعر الأشقر، إنها قضية قديمة عمرها حوالي ستة أشهر !! فكيف إذن لم نقرأها إلا اليوم ؟ يقول « إنهم يحتفظون في الادراج بكثير من هذه القضايا يظهرونها عند اللزوم. عبر كلمات معدودة أفهم حقيقة الملعوب، فالحسيني ابراهيم هو - تقريبا - أكبر وأخطر ممول لحي الباطلية بكل ما يباع فيها من حشيش وأفيون، رأيته بعيني ذات مرة يقتحم طابور

مصطفى زقزوق مرتديا الجلباب السكروته السمني والمركوب الأحمر، دخل علي مصطفى، أخرج من سيالته اسطوانه تخينه مغلفة بالقماش بظفره نزع غرز الخياطة وفك طرفا من القماشة العبك، حرف الإسطوانه كاشفا شعرات قلبها، فتأملها مصطفى من بعيد بعين خبيرة ثم قال انها طيبة، وبحوار لا يفهمه سواهما لم يستغرق أكثر من دقيقة واحدة تم التفاهم علي السعر والكمية، أما أنا فقد فهمت أنها صفقة عابرة رمي بها الهوي عليه فلم يشأ كسفها، ذلك أنه لا يتعامل إلا مع الصفقات الكبيرة التي تقدر بالأطنان، ولا يحمل سوي عينات ضئيلة، فإبنه يبيع من هذه العينات المجانية فحسب، أما الحسيني فإنه كثير السفر إلي اماكن مجهولة ليتعاقد فحسب، وهناك بعد ذلك من يسلم ومن يتسلم في أماكن مجهولة أيضا، ثمة صفقات مضروبة بطبيعها يكتشفها قبل وصولها، كانت مخزونة تحت الماء فتعفنت ويريد أصحابها التخلص منها بأي ثمن، أو من صنف رديء أراد أصحابها تسريبها، مثل هذه الصفقات لاخير من ورائها ولا ينبغي الشفقة بأصحابها الغشاشين، فخير لها وللناس الغلابة أن يقوم بتسليمها للبوليس، ويتم ذلك بمهرجان كبير، ومحاضر البوليس لا يعنيها أن الصفقة مغشوشة أو متعطنة، إنما يعنيها أن القوة المهاجمة ضبطت شحنة سفينة كاملة، أو عشرين طنا علي الجمال في الصحراء.

وأنت جالس مع الحسيني ابراهيم يعطيك إحساس بأنه المسئول عن المياه في الباطلية، كأنه الرئيس فيها، إذ من المألوف أن يدخل أفندي محترم فيشكو للحاج سوء عملية الصرف الصحي في العطفة الفلانية، أو مشكلة انقطاع التيار الكهربائى، أو عدم وصول المياه إلي الادوار العليا، وهو يستمع ويقرر تبليغ الجهة الفلانية أو مكالمة فلان الفلاني، وقد تدخل امرأة لتشكو له خشونه طبع زوجها واعتدائه عليها بالضرب، فيطيب خاطرها ويعدها بأنه سينحل وبره، وربما يقول لها : قولي له روح كلم الحسيني، وهكذا

لا تزال القاهرة تتحدث عن فرح ابنته الشبيه بفرح قطر الندي، في ليلة من ليالي النصف الثاني من الثمانينات أحيطت جميع الأوساط في القاهرة علما بموعد زفاف ابنة الحسيني ابراهيم، ولأن صديقي ألف ميم يعرف أنني صديق للحسيني، فقد تعشم في سهرة حافلة من سهرات العمر، فالتقينا في قايتباى في أول المساء لنقوم - حسب تعبير صديقنا الشاعر حسن عقل - بتوطئة، يعني مجرد تبخير الدماغ بأنفاس خاطفة مهيئين أنفسنا للدخول في السهرة الثقيلة، كنا مجموعة كبيرة أنهينا التوطئة فاحلو مزاجنا فقررنا بدء المقدمة التمهيدية، علي أن يبدأ الفصل الأول في قلب الفرح، وقدرنا أن ذلك لن يكون قبل الثانية عشرة مساء بعد انتهاء الزفة، شرعنا في التحرك من قايتباى في الحادية عشرة، فإذا بنا نفاجأ بإن شارع الأزهر كله قد تم إغلاقه بالمتاريس علي

الضفتين ابتداء من تقاطع شارع بورسعيد حتي جبل الدراسة، وهذا أمر لم يكن ليتحقق لمخلوق مهما علا شأنه باستثناء رئيس الجمهورية وفي حالة طوارىء، لأن شارع الأزهر هذا شريان حيوي خطير جدا في قلب المدينة، وإغلاقه يعني تشتت جميع السيارات المتجهة إلي مصر الجديدة أو القادمة منها، ناهيك عن مصالح تجار حي الجمالية، ولو أن الحرس الجمهوري هو الذي قام بإغلاق شارع الازهر هكذا بالضبة والمفتاح فلربما اخترقه بعض الجمهور وتمرد عليه بعض الخارجين، أما أن يكون مغلقه هو الحسيني ابراهيم بفرح ابنته، فإن الجميع تقبلوا الأمر عن طيب خاطر، بل ان ركب العروس الذي تتقدمه راقصات من طراز سهير زكي وهياتم ونجوي فؤاد لم يمر أمام محل تجاري إلا واستوقفه أصحابه ونثروا فوق العروسين وعلي أفخاذ الراقصات أطنانا من الورود وأوراق البنكنوت الخضراء والحمراء، ويتلقي كل محل تحيته الواجبة رداً علي ما فعل، حوالي الساعة الثانية بعد منتصف الليل وفيما نحن وقوف أمام مسجد محمد بك أبو الذهب، وصلت طلائع الموكب يتقدمها الحسيني ابراهيم نفسه مرتديا جلبابا بسيطا جدا أغلب الظن أنه جلباب النوم، وطاقية بيضاء، وفي قدميه صندل، وفي يده العصا العوجاية، لايني يدفع بها جموع الصبية والشباب بعنف وقوة بدتا غريبتين عليه، فلما تقدمنا لتحيته أهملنا، وعاملنا باعتبارنا جمهوراً من الدهماء، فعزونا ذلك إلي شدة لخمته، وتعشمنا أننا في سرادق الفرح ربما نلنا حظنا من الترحيب اللائق، فانزوينا بعيدا كي لا تدهسنا الأقدام.

وفي حوالي الثالثة صباحا ذاب الموكب، فتوجهنا إلي السرادق في مدخل الباطلية في ساحة مستطيلة لصق الجامع الأزهر فإذا نحن إزاء سرادق مهول جدا، ولا موضع فيه لقدم، جميع تجار الباطلية احتلوا مدخله بالمسدسات والطبنجات رغم أن الحسيني لا ينى ينبه الجميع يحذرهم من مغبة ضرب النار، ثم فوجئنا بأن جميع فناني مصر بلا استثناء حاضرين في السرادق في مجموعات متقاربة، كل مجموعة لها جوزة خاصة بكامل معداتها فوق ترابيزة ناهيك عن القائمين بإحياء الفرح فوق المنصة من مطربين ومطربات وراقصات وعازفين، الحسيني ابراهيم يمر علي كل مجموعة فيرمي أمامها بقطعة حشيش كبيرة تقارب الأوقية، ونحن تعساء نبحث عن أى خرم إبرة ننحشر فيه دون جدوي، ظللنا واقفين لساعات طويلة علي أمل أن يخلو مكان أو ينتبه الينا أحد فيضمنا إلي مجلسه، ولكن السرادق يزداد بمرور الوقت ازدحاما وصخبا فانصرفنا محبطين وأقفيتنا تقمر العيش،وألف ميم بسب ديك الحاج وديك معرفته التي تؤخر

قبل أن يموت الحسيني ابراهيم بأيام قليلة كان ابنه أحمد قد وقع في قبضة الضابط المنتحر أغلب الظن لتصفيه حسابات قديمة.

المدخل الحميم

ملاذنا دائما هو مدخل حوش أدم - خشقدم - هو الأكثر حميمية وأريحية، إثارة للبهجة، ربما لوجود الشيخ إمام عيسي وأحمد فؤاد نجم بإعتبارهما مايخصنا في هذه المنطقة؛ فبفضلهما صرنا أصدقاء للحي كله كأننا من أبنائه، ويأمن تجار الحشيش جانبنا، فيتحدثون أمامنا عن أسرارهم وشئونهم الخاصة، ويبيعون لنا بالأجل أحيانا، وعلي سبيل الجدعنة أحيانا أخري، ويصارحوننا إذا كان الصنف غير مشرف، وحينئذ يخففون عنا وقع الصدمة بأن يجلسوا معنا لبعض الوقت يرصون لنا من تعميرتهم الخاصة، وأهي ليلة وتفوت ولاحد يموت.

في مصر يصعب عليك التفرقة بين التاريخ والأساطير ، إذ تبدو حقائق التاريخ - من فرط ما فيها من خرق - كأنها خيال العامة. كما أن خيال العامة كثيرا ما يختلط بالحقائق التاريخية. وقد اعتادت العقلية المصرية الشعبية أن تتعامل مع الأساطير باعتبارها حقائق ، ومع الحقائق باعتبارها أساطير. التاريخ والأساطير بمعني واحد، وحركة الجماهير

الشعبية في واد آخر، ولهذا كثيراً مايموت التاريخ وتبقي الجغرافيا، وتبقي عليها بصمات التاريخ؛ لكن الجماهير الشعبية التي لم يكن لها شأنا بهذا التاريخ ذات يوم سوي أنها تتحمل أوزاره وتدفع ثمن صراعات دموية بين أمراء وسلاطين ومماليك، سرعان ماتنسي ماكان؛ فاذا كان الذي كان لاتزال أسماء رموزه التاريخية محفورة في الجغرافيا؛ فإن الذاكرة الشعبية تعيد نطق الأسماء علي هواها. ولربما بقي جوهر النظام كما هو وإن تغيرت الأسماء؛ ولكن الأسماء والأماكن والناس تبدو في عصرها الراهن كأنها مجرد نفاية أفرزها التاريخ الاسطوري الأخرق المتلاطم. شارع حوش آدم هذا مثلا بقيت فيه الأبنية المملوكية بنفس أسمائها القديمة، مجرد خرائب يحتلها الدهماء والصياع والبلطجية وتطلق عليها أسماء محرفة. والناس أيضا خرائب تسكن في خرائب، لأن التاريخ القائم علي صراع فردي حول السلطنة لايفرز علي طول المدي إلا خرائب في خرائب؛ سيان أن يحدث هذا الصراع في العصر المملوكي أو في العصر الملكي أو في العصر الجمهوري؛ النتيجة واحدة في نهاية الأمر.

وأحمد فؤاد نجم يرسم لهذا الشارع صورة بديعة في واحدة من أجمل أغنياتة كلاما ولحنا؛ إذ يقول.

حارتنا مجاري وغموس.. مرايه وفانوس.. حجارة وكراسي. شباب علي النواصي.. دقون علي الكروش.. عرق علي القروش.. شقوق في

البيوت.. بيوت في الشقوق.. مساءً تموت. صباحا تفوق.. قديمه وغيبه « لبيبه وصبيه..في ضيق خرم إبره.. في نموط المحيط.. علي الذل صابره.. دا صبر الفويط.. أسانس البلاده..معسكر ولاده.. خسيسه وجبانه.. جريحه ومهانه.. ما تسمعش ندهة.. رنين الدفوف.. يتآكل ولادها.. حتولد ألوف.. مادام ضعنا فيها..ضروري نلاقيها..

حارتنا في الحوار
علم علي الصواري
لو قال فوقها الكناري
تتهز المشربيه

* *

ياحوش آدم يادارنا
يا ساكن حضن جارنا
سيدنا الحسين تبارك
شهيد الإنسانيه
مدد سيدنا وشهيدنا
ياقايل ومواعدنا
يكون عيدك وعيدنا
يوم طلعة شمس جيه

* *

ياحاره جوا حاره

يامجمع السهاري

من كل حي حاره

في الحضره الآدميه

مدد أنس الحبايب

مدد حاضر وغايب

مدد زين الصحايب

ياساده ياموجيه

* *

فيك العيدان هزيله

شايله الحمول ثقيله

ولاباليد حيله

ولا الأيام هنيه

سيدنا الدردير يا بابا

مدد يا بو الغلابه

فوق الحواري غابه

بتمص الآدميه

* *

صبحك صبايا صاحيه

هاللين من كل ناحيه
مدد ياسيدي يحي
توعدنا باللي هي
ياحارتنا يا ام شيله
هزي الهلال وهيله
قدامك يوم وليله
ع الفرحه والعيديه

تلك هي حارة حوش آدم، أجمل المداخل إلي حي الباطلية. وحوش آدم هو النطق العامي الشعبي لخشقدم. وخشقدم هو السلطان الملك الظاهر أبو سعيد الدين خشقدم بن عبد الله الناصري المؤيدي، وهو السلطان الثامن والثلاثون من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية، والأول من الأروام، تسلطن في سنة خمس وستين وثمانمائة للهجرة. ولابد أن اللسان الشعبي فيما تلاذلك من عصور لم يتقبل اسم خشقدم هذا، هو في نظره اسم بلا معني، والذاكرة الشعبية لاتحب التعامل مع أسماء بلا معني، فما لامعني له في نظرها فإنها تقوم بتعديله بحيث يصبح له معني. إنها مثلا تري شارعا باسم الخواجه الإنجليزي «كفرللي»، فحينما تقلب في الإسم تجده مكونا من مقطعين : كفر، واللي، فتقوم بتعديل تركيب الأسم ليصبح « اللي كفر » وبهذا يصبح له معني. الطريف أن البلدية حينما بدأت ترصد الشوارع لتكتب لكل شارع لافتة

زرقاء تعلق علي بابه قامت بتفصيح الإسم فكتبت.: شارع الذي كفر.كذلك الأمربالنسبة لشارع خشقدم، قامت الذاكرة الشعبية بتعديله فأصبح حوش آدم، وبذلك صار له معني.

يرتبط حوش آدم في الأذهان بكثير من البهجة بالنسبة لطوائف كثيرة من الناس، فبالنسبة للموسرين من أثرياء الإنفتاح ورثة أغنياء الحرب وملاك الأراضي حينما يزورون حي سيدنا الحسين لابد أن يعرجوا علي حوش آدم لأكل الكباب عند أبي هاشم، أشهر محلات الكباب في مصر كلها وهو في مواجهة حارة حوش آدم حتي أن القادم من داخلها يبدو له المحل كأنه امتداد للحارة، كما أن ترابيزات المحل وكراسيه تأكل جزءا من مدخل الحارة. وبسبب هذا المحل يكثر الزحام علي الحارة بصورة خانقة؛ فعلي الرغم من اتساع المحل من الداخل فإن أعداد الواقفين في الإنتظار داخل المحل وخارجه يجعل النوادل والخدم في ضيق يتصادمون؛ عائلات بكاملها تجشمت مشقة الإنتقال ورائحة كباب أبي هاشم النفاذة تملأ خياشيمهم تصيبهم بالجوع إلي الطعام مرتبطا بالجوع إلي الراحة الروحية المفتقدة.منظرهم جميعا بألوان ملابسهم الزاهية يثير البهجة. وأما بالنسبة للمثقفين عموما فحوش آدم يرتبط في أذهانهم بالشيخ إمام وأحمد فؤاد نجم. وأما بالنسبة للأرستقراطية الحشاشة، فإن حوش آدم يرتبط في أذهانهم بفاروق عبد الفضيل، بائع الحشيش المتفرد، المتخصص في أعلي وأرفع أنواع الحشيش، فحينما كان قرش

الحشيش البريمو العالي في عز الرخص بثلاث جنيهات كان هو يبيع القرش بإثني عشر جنيها. وكان صيت هذه التعميرة يلعب بخيال كافة الحشاشين فتداعبهم الأمنيات في تحشيشة واحدة من هذه التعميرة كل شهر، بشرط أن يشترك مجموعة من الأصدقاء في ربع قرش؛ ولابد أن تصيبهم الصدمة مع أول نفس، لإكتشافهم أن ماكانوا يشربوه من قبل لم يكن حشيشا بالقياس إلي هذه النكهة التفاحية التي تخلف في النفس صفاءا ومرحا كبيرين.

نظام البيع عند فاروق عبد الفضيل خصوصي هو الآخر وعمومي في آن، فأنت تذهب إليه في شقته في عمارة حديثة بعض الشيء في حارة خلف منزل الشيخ إمام مباشرة. تصعد إلي الطابق الثاني؛ تضغط علي زر الجرس في الباب المواجه. من العين السحرية سينظر فيراك فيعرف إن كنت معروفا لديه أم أنك دسيسة. إن تشكك بعض الشيء فيك نظرا لابتعادك عن زيارته وقتا طويلا فإنه يفتح لك الباب مع ذلك ويرقب تصرفك الذي سيكشف عن حالك؛ فإن كنت زبونا حقيقيا فإنك بمجرد فتح الباب تدخل محوداً إلي اليسار فتجلس في غرفة الصالون كأن البيت بيتك. عندها يطمئن إليك، فيدخل جالسا بجوارك علي الكرسي المذهب، ناظرا إليك بعينين مرحتين واسعتين في وجه كالفطيرة الحمراء برقبة قصيرة علي جسد ممتليء ربعة القوام. تمد يدك بالمبلغ، يفرّه فيعرف إن كنت تريد قرشا أو نصف قرش أو ربع قرش. يتركك ويغيب داخل

الشقة برهة طويلة، يكون خلالهاقد تنقل في جميع الحجرات التي تطل علي ثلاثة نواصي؛ فينظر من كل شباك نظرة يستكشف بها الطرقات - والمنعطفات ليتأكد مما إذا كان وراءك حكومة في ثياب مدنية؛ فهو يعرف جميع العاملين في مكتب المكافحة فردا فردا، ضباط المباحث والمخبرين في جميع أقسام البوليس. وإذ يتأكد أن الدار أمان، يدخل عليك بالطلب قائلا : إقعد اشرب قهوه، بلهجة من يقول. اتكل علي الله. في أحيان كثيرة لايكون هو موجودا، فتفتح لك زوجه، إمرأة جميلة كالبطة، شجاعه كشاطر من الشطار: بنظرة واحدة في عينيك تعرف ما وراءك فتلبي طلبك أو تعتذر بلباقه

لفاروق عبد الفضيل أخ يدعي سالم، وأخ أصغر يدعي توتو، وكلاهما يبيع تعميرة أقل أرستقراطية، لكنها متميزة بعض الشيء عن بقية التجار.فأما سالم فانه بقال، ودكانه مشهور في حارة حوش آدم. تدخل الدكان، تسأل عن سعر الجبنة والزيتون والحلاوة الطحينية، وخلال ذلك تهمس بطلبك السري : هات ربع قرش، فيفتح درج البنك السفلي،يسحب كيسا في طول الأصبع محشوا باللب أو الفول السوداني، يرميه أمامك علي البنك. إن كنت زبونا حقيقيا فأنت ستعرف أن طلبك مدفون في الكيس بين اللب والسوداني؛ وإن كنت غشيما ونظرت له في استنكار ففي الحال يسحب الكيس ويقول لك : معنديش اللي انت عايزه يا افندي ! حضرتك طلبت إيه؟ هم ؟ آه لاوالله

مالناش دعوه بالكلام ده ! حد الله مابينا وبينه؛ ثم ينصرف عنك إلي زبون آخر. أما الشقيق الأصغر توتو فإنه يتجول علي المقاهي، يقف علي النواصي في انتظار زبائنه المعروفين لديه.

المخرج الذميم

عجزت جميع الحكومات المتعاقبة علي مهاجمة حي الباطلية وإبطال تجارة المخدرات فيه. لدرجة أن وزير الداخلية سيد فهمي بعد حرب أكتوبر في أواخر السبعينات هاجم حي الباطلية بقوة مسلحة بالمدافع والعربات المصفحة والدبابات، فعاثوا في الحي فساداً، وقبضوا علي عدد هائل من المارة والسابلة، وبعض الباعة الغلابة من سيىء الحظ، وفي الصباح التالي حفلت الصحف بما نشتات غريبة تركزت كلها في مانشيت واحد بالخط العريض : العبور الثاني. والمعني أن الهجوم علي حي الباطلية كان في نظر الشرطة مساويا لعبور القوات المسلحة خط بارليف.

علي أن العبور الثاني كان من أسف مجرد مانشتات صحفية، لأن الحياة في الباطلية سرعان ماعادت إلي سابق عهدها بعد أيام قليلة، أقل من أسبوع واحد.

ولكن العصر الذهبي لحي الباطلية كان في أواخر عصر الرئيس السادات، حينما تقدم النبوي اسماعيل وزير الداخلية لعضوية مجلس

الشعب، فرشح نفسه عن دائرة الدرب الأحمر، ومنها حي الباطلية. ذلك أن النبوي اسماعيل من حي فاطمة النبوية، وحي الباطلية يعتبر مسقط رأسه ومرتع صباه. وقد تكفل كبار تجار الحشيش في الباطلية بمهمة الدعاية دون أن يتكلف النبوي اسماعيل مليما واحدا؛ أخذوا علي عاتقهم مهمة إنجاحه؛ ونجح بالفعل، فكان ذلك أزهي عصور الباطلية علي طول تاريخهما؛ حيث قام السوق في وضح النهار منتعشا مزدهرا، والترابيزات في كل خطوة، وتستطيع أن تقلب في الأصناف براحتك، وأن تخرج من الحي بحقيبة ملآنة بطرب الحشيش والأفيون دون أن يعترضك أي مخبر. وكانت عساكر الأمن المركزي التي سبق أن زرعها سيد فهمي في أزقة الباطلية لاتزال تأخذ دركاتها بانتظام، وكل عسكري ممسك بسيجاره محشوة بالحشيش؛ وكل العساكر عيونهم مغشلقة محشوة بزحم الحشيش الرديء. وبعض التجار الأذكياء كانوا يستخدمون هذه العساكر كمخازن متنقله، يترك كيس الحشيش في جيب العسكري نظير يومية مجزية يدفعها له، بالإضافة إلي قطعة يشربها.ظلت السوق قائمة علي قدم وساق إلي أن تم اغتيال أنور السادات، فكان ذلك نذير شؤم علي سوق الباطلية. كل التجار والحشاشين كانوا يحبونه، يعتبرونه من أنصار الحشيش والحشاشين، ويشيعون أنه يرحمه الله كان من محبي الصنف. لكن المؤكد أن السادات كان يشجع الكسب بجميع أنواعه، ويحب الأولاد الملحلحين

الكسبية، وأصحاب المشاريع الإستثمارية. وكان يكره الفقر والفقراء كراهية شديدة. فلما رحل بدأت الأوضاع تنقلب. وحينما انتهت عضوية النبوي اسماعيل في مجلس الشعب وخرج من الحقل السياسي تماما بدأت المتاعب الحقيقية.

قامت أزمة عنيفة بين التجار ومكتب المكافحة لعبت فيها المباحث العامة - بقيادة الضابط المنتحر - دورا كبيرا. سبب الأزمة أن الحكومة اكتشفت اختفاء أربعمائة طن حشيش من مخازنها في الإسكندرية كانت مجهزة لتسليمها لوزارة الصحة كي تستخلص من الجيدمنها مايدخل في صناعة الأدوية، وتقوم بحرق الباقي في الصحراء.هذا ما يحدث علي الورق بالطبع، وأن كان الحشيش المعد للحرق في الصحراء يأخذ طريقه إلي أماكن مجهولة.

دلت تحريات المباحث علي أن الكمية المسروقة تم تصريفها في الباطنية فقبضت المباحث علي جميع الرءوس الكبيرة في الحي. طالبوها برد الكمية، أو ثمنها، أو السجن المؤبد. لم يشفع للتجار أنهم دفعوا ثمنها بالفعل لمن باعها لهم، وهم مجموعة من الموظفين البسطاء فيما قيل أيامها؛ إلا أن الموضوع كان محاطا بغموض شرير. وقد حاول مندبو الصحف في وزارة الداخلية معرفة أي معلومات عن هذا الموضوع لكن دون جدوي. كل ما هنا لك أن أضطرابا شديدا قد حدث في حي الباطلية منذ ذلك التاريخ.

ولربما كانت هذه القصة محل شك، ولكن ألسنة الناس أقلام الحق كما يقول المثل القديم، والذين يتصلون بحي الباطلية يستمعون إلي القصة في كل خطوة. كما أن أهل التجار وأقاربهم وأصدقاءهم لم يكن لهم من حديث طوال الأزمة إلاهذه القصة؛ فهي إذن ليست وهمية كما أشاع بعض ضباط المباحث؛ والأرجح أنهم كانوا يدافعون عن سمعتهم؛ لكن البعض منهم - بدافع الغيرة والحقد علي الذين يتكسبون من مثل هذه العمليات - كانوا إذا سئلوا عن حقيقة القصة يجيبون إجابات مضغمة غامضة، أو يكتفون بالصمت.

غير أن كساد سوق الحشيش في الباطليه كان له وجها آخر، هو وقوع بعض السياسيين المحترفين تحت طائلة المدعي الإشتراكي ؛ إذ كان هؤلاء يقومون بتهريب الحشيش ضمن صفقات أخشاب.

لكن ثمة قوة جهنمية نصف مجهولة كان لها مصلحة في ضرب الحشيش لصالح السموم البيضاء التي مالبثت حتي أغرقت البلاد، فانصرف تجار الباطليه إلي تجارة الهيروين والكوكايين والكوداين والريتالين، فهي تجارة أسهل من تجارة الحشيش، وأربح، يمكن إخفاء كمية كبيرة تدر الملايين في جيب سري. ثم إن تعاطيها أسهل، فشارب الحشيش الذي لابد له من غرزة وجوزة ونار وتبغ وخادم يسقي، يستطيع الاستغناء عن كل ذلك بشمة واحدة تنقله في الحال إلي السماء السابعة، في أقل من جزء من الثانية.

وهكذا نجحت الحكومة في تحديد تجارة الحشيش ومحاصرتها، ولكن لصالح تجارة السموم البيضاء التي أصبحت شبه شعبية في كل حي من الأحياء. وقد لعب الإعلام المصري دورا كبيرا في التكريس لهذه التجارة من حيث أراد فضحها وكشف أسرارها، فكانت برامج التليفزيون تجعل من التجار المضبوطين ومن المدمنين نجوما يتحدثون في البرامج عن أدق تفاصيل تجارتهم في التجارة والتعاطي، فانتشرت بذلك خبراتهم بين الناس.، وعبثا تحاول الحكومة إيقاف هذا التيار؛ ذلك أن حجم البطالة مذهل وخرافي، ولابد لهذه الأعداد الوفيرة من العاطلين أن تجد مجالا تتكسب منه. وفي المقابل فإن معظم الفنانين يتعاطون هذه السموم البيضاء، والتجار الموسرين، وأصحاب الرأسمال الطفيلي، أي أن البلاد مليئة بالأموال الدنسة التي تذهب للرفاهية وعدل المزاج بسهولة؛ وطالما هناك الكثيرون ممن يبذلون المال الوفير لعدل المزاج فسوف يتزايد عدد المتاجرين في السموم البيضاء.

نجحت الحكومة في إغلاق سوق الحشيش في حي الباطلية، لكنها لاتدري أن سوق السموم البيضاء قائمة خلف الجدران، وفي الشقق الفاخرة على النيل، وفي النوادي، والسيارات المرسيدس. لقد تقوض عالم عتيق؛ ونشأ عالم أكثر حداثة، أغلب الظن أنه لن يتقوض إلا بعد أن تتقوض عقول كافة الأجيال الطالعة، الضائعة بين جحيمين تغذيهما البطالة وانسحاب الدولة من مجريات الحياة. جحيمان ماثلان : المخدرات والتطرف الديني الرهيب.

الحي الثالث

سيرة الأزبكيه

أينما توجهت في أرض مصر الشاسعة المترامية الأطراف فأنت لا تمشي علي أرض بقدر ماتمشي فوق طبقات من الأزمنة التاريخية؛ حيث تتراكم العصور والأحداث الحافلة؛ حتي ليبدو تاريخ مصر كجبل شاهق من هديم تنبت فوقه الكائنات مشبعة به وإن لم تعرف كنهه أحيانا، لكنها تحمله في السويداء كجوهرة ثمينة مكنونة.

كل بقعة من الأرض يمكن أن تغوص فيها، فتشدك الأزمنة الكامنة، فتري ناسا غير الناس وأحداثا غير الأحداث ومعالم غير المعالم تري أمما وممالك عروشا وأباطرة أنظمة وأنماط حياة مختلفة الألوان والأشكال وأنت بعد لم تغادر مكانك.

لم يكن غريبا إذن أن ينشأ عندنا علم تاريخ المكان المسمي بالخطط ذلك الذي نبغ فيه العالم المصري تقي الدين المقريزي، فكل متر مربع من أرض الكنانة يستحق كتابا كاملاً في التاريخ يلم بكل ما أقيم فوقه من أبنية وما دار فيها من أحداث.

علي سبيل المثال هذه المساحة التي تتجول فيها الآن لنصور بعض معالمها المعاصرة، يمكن أن نملأ مجلدات كاملة دون أن نقف علي كل تاريخها. فكل ملمح معاصر، كل معلم من المعالم يقف تحته عشرات بل مئات من المعالم الدارسة في الظاهر وإن بقيت راسخة في مكانها رسوخ الجذور الضاربة في أعماق سحيقة.

فهذه المساحة الحميمة، التي تبدأ من ميدان باب الحديد، أو ما كان يسمي قديما بقنطرة الليمون، مارين بشارع إبراهيم باشا حتي مسجد الكخيا؛ ومن هذا المسجد إلي أول شارع القلعة مارة بشارع عبد العزيز؛ ومن شارع القلعة إلي أول شارع الأزهر، فأول شارع الجيش والعودة منه إلي اتجاه قنطرة الليمون مخترقا حي الفجالة الذي كان فيما مضي مزارع للفجل والجرجير ويسمي أصحابها بالفجالة..

هذه المساحة يطلق عليها اسم حي الأزبكية، وكانت حتي وقت قريب جدا تسمي وش البركة - يعني بركة الأزبكية. وقد حملت في العصور الحديثة أسماء كثيرة : الأزبكية.. العتبه.. الأوبرا.. وش البركة.. ولكن الفضل يرجع لمبني المسرح القومي الذي بناه طلعت حرب للفرقة القومية، وأطلق عليها المثقفون اسم مسرح الأزبكية لأنه أنشيء داخل بقايا حديقة الأزبكية، وبفضله ظل اسم الأزبكية يتردد حتي اليوم.

وإذا كانت هذه الأسماء : الأزبكية والعتبة والأوبرا ووش البركة، تطلق كلها علي حي واحد هو الأزبكية، فإن لكل اسم فيها قصة وسيرة حياة أين منها سير الشطار والعيارين والأبطال.

هو أكثر الأحياء حميمية بالنسبة لجيلنا والأجيال السابقة من المثقفين؛ ولقطاعات عريضة جدا من الشعب المصري. ففيه تصب عربات النقل ألوفا من البشر كل يوم، ويخترقه تسعون في المائة من جموع الناس في طريقهم إلي العمل أو المنازل، وليس ثمة خط من خطوط المواصلات لايمر به أو يتمركز فيه. إنه أكبر حي تجاري في مصر، إضافة إلي أنه منفذ لعدة أحياء تتفرع منه وتصب فيه، فهو بمثابة السرة من جسد القاهرة المصرية.

هو حميم بالنسبة لجيلنا من المثقفين، فكل واحد منا ترك من نفسه أبضاعا كثيرة من الذكريات الحلوة المفعمة بالدفء، والأمنيات الخضر في هذا الحي : علي مبني المسرح القومي الذي شاهدنا علي خشبته شوامخ الأعمال المسرحية العالمية والمحلية، علي أيدي فيالق من عمالقة النص المسرحي والتمثيل والإخراج. لصقه من الخلف - مطلا علي الجانب الأخر من بقايا الحديقة مسرح الأزبكية الصيفي، الذي أعيد ترميمه وتعديله في أواسط الستينات ليكون مقراً لفرقه مسرح الطليعة التي هي في الأصل فرقة مسرح الجيب التي أنشأها وأدارها سعد أردش إبان عودته من بعثته في الستينات الأولي، لتكون حقلا للتجارب أو بمعني أدق للتجريب المسرحي في ميادين التأليف والإخراج والديكور والتمثيل، وهي المسؤلة عن تعريفنا بمسرح العبث أو اللآمعقول حيث أفتتحت أول عروضها بمسرحية [نهاية اللعبة] لصمويل بيكيت وإخراج

سعد أردش. وقد اقتطعت من مساحة مسرح الأزبكية الصيفي قطعة أرض أقيم فوقها مسرح للعرائس. أطياف من ذكريات الصبا تركناها علي أبواب وفي قاعات المسارح الثلاث ؛ وأطياف أخري علي سور حديقة الأزبكية. مامررت بمكتباته يوما إلا وطلعت لي صورتي من بين تلال الكتب القديمة التي عشقت التقليب فيها مع الرفاق والأساتذة بحثا عن كنوز الكتب الثمينة. في مواجهة السوردار الأوبرا المصرية، بواجهتها الحميمة المطلة علي ميدانها كبيت العائلة، تقف شامخة زاهرة منذ أن بناها الخديوي اسماعيل إبان الإحتفال العالمي بافتتاح قناة السويس، وكانت مؤهلة للبقاء لأجيال طويلة قادمة لولا أن امتدت إليها يد العدوان الآثمة فأحرقتها كتعبير عن سخط أحمق تجاه محاولة أنور السادات لضرب الثقافة المصرية حينما أغلق المجلات الثقافية وشتت الكوادر وأتي بسلطات جديدة قديمة عرفت بعدائها للثقافة. وصحيح أن الفعل الأحمق المجرم قيد في المحاضر الرسمية ضد الماس الكهربائي الآثم الذي بات يتربص بنا الدوائر في كل مكان دون مبرر منطقي مفهوم. صحيح هذا ولكن الإشارة إلي وجود فاعل ساخط أعمي البصيرة والضمير لايغيب عن فطنة المتابعين. المؤسف حقا أن حكومة ذاك العهد علقت علي الحادث الأليم بقولها : بركه ياجامع ! لقد كانت الدار معدة بشكل مؤقت بعمر افتراض لايزيد عن ستة أشهر والحمد لله أنها احترقت لنعيد بناءها من جديد علي نحو أفضل ! ولكن هيهات أن

تختفي دار الأوبرا من أذهان عامة الشعب، فإنهم وإن لم يدخلوها في حياتهم كانوا ينطقون اسمها بألفة وحميمية وسلامة نطق.

سكينا الذكريات العزيزة علي ذلك المبني ذي البواكي، الكامن خلف دار الأوبرا مباشرة، والذي لايزال قائما حتي كتابة هذه السطور.إنه مبني قهوة متاتيا الشهيرة، صاحبة الصيت الذائع في تاريخنا الحديث حيث كانت ملتقي الثوار، يجلس فيها السيد جمال الدين الأفغاني مع تلاميذه وعلي رأسهم الإمام محمد عبده : « يوزع الثورة بيمينه والسعوط بيساره ». والسعوط يعني النشوق، وهو مسحوق نباتي من عائلة التبغ يستنشقه المرء فينبه خلايا الأنف والدماغ بالعطس. هي مقهي من الطراز الفرنسي الذي انتشر في القاهرة في أواخر القرن الماضي وأوائل هذا القرن : المناضد عليها المفارش السميكة المزخرفة وحولها المقاعد في صفوف وأركان، والأرض مفروشة بالسجاجيد والمشايات، والنوادل رجال مهذبون علي غاية من الرقة، وفناجين القهوة التركية تلمع فوق الصواني النحاسية الفخمة، والنار جيلات العملاقة. ماوقع بصري علي هذه المقهي الآن إلا وشعرت بغصة في الحلق مريرة: لقد أصابها مايصيب علية القوم حينما يخونهم الحظ فيسلمهم إلي زمن وغد يجهل قيمتهم فيسقيهم الهوان ألوانا.

فلنته الآن جلستنا الكئيبة علي هذه المقاعد المتخلخلة بمناضدها غير المستقرة ذات المفارش المزينة الكالحة، وننجومن معاملة ذلك النادل

الأقرب إلي البلطجي: فلقد انطفأت في جميع أركان المقهي كل الفوانيس المبهجة: ولفظت الذكريات أنفاسها منذ وقت بعيد، فلم يعد أمامنا سوي المرور علي كازينو أوبرا فهو جزء لايتجزأ من صبانا وشبابنا الغض، حيث كانت تقام في طابقه العلوي ندوة نجيب محفوظ يوم الجمعة من كل أسبوع، حيث تجري المناقشات والحوارات بين مختلف الأجيال والتيارات والعناصر، في قضايا الأدب وأصداراته الجديدة في هذه الندوة تحسسنا خطواتنا في الطريق. واكتشفنا أنفسنا واتصلنا بالأجيال الرائدة اتصالاً وثيقا مثمراً، وتبلورت مفاهيمنا واتسعت رؤانا ونشطت أخيلتنا. آخر عهدي بهذه الندوة يوم فضها البوليس بالقوة؛ إذ كنا جلوسا مندمجين في مناقشة مجموعة قصصية جديدة لأحد الكتاب الشباب حينما فوجئنا بجنرال بكامل بزته العسكرية يقتحمنا ومن خلفه طائفة من الجنود، أخذ يستجوبنا واحداً واحداً ونحن في حيرة من أمرنا نرسل البصر المضطرب إلي أستاذنا صاحب الندوة، فاتجه إليه الجنرال في شيء من البرود والإستخفاف ينجمان عن جهله التام بحقيقة هذا الرجل الذي يستقبله واقفا في كياسة وهدوء وأدب جم. سأله الجنرال كما يسأل ضابط الشرطة متشردا: إسمك إيه ؟ بكل أريحية أجاب الأستاذ بأسمه الثلاثي: نجيب محفوظ عبد العزيز. وخيل الينا أن في هذا الكفاية، لكن الجنرال سأله: بتشتغل إيه؟ فبهدوء منقطع النظير أجاب الرجل في وزارة الأوقاف. ثم ابتسم؛ فتطوع الكورس الغفير

وشرح للجنرال حقيقة الرجل ومركزه وحقيقة الندوة لكن الجنرال كان بارداً كالثلج وهو يلقي في وجوهنا بالمادة القانونية التي تحرم إجتماع أكثر من خمسة أشخاص في مكان واحد. ثم أمرنا بالتفرق والإنفضاض. ولم يكن أمام الأستاذ إلا العلو فوق الموقف بمزيد من السخرية الحقيقية، حيث أمر النوادل بتفريق المناضد التي كانت مضمومة إلي بعضها في مستطيل كبيرة وأن يعود المكان إلي وضعه الطبيعي كمقهي، فجلس كل بضعة أفراد إلي منضدة روعي أن تكون بعيدة عن زميلتها بمسافة كافية لإثبات عدم وجود أي صلة بين بقية المناضد وبينها. فما أن استقر الوضع هكذا حتي رفع نجيب محفوظ يده حول فمه صائحا في الدكتور عبد المحسن طه بدر الجالس في ركن بعيد : « أيوه يادكتور عبد المحسن ! كنت بتقول البناء النفسي للشخصيات ماله ؟! » وانفجرت القاعة كلها بضحكة صاعقة شيعت الجنرال حتي آخر درجة في سلم الهبوط. ثم اتضح أن موكب الرئيس عبد الناصر كان ماراً من هاهنا فلزم تمشيط المنطقة لضمان أمنه وسلامته. بعدها حاول الأستاذ استصدار تصريح رسمي بإقامة الندوة دون جدوي، فانتقل إلي مقهي ريش في ميدان طلعت حرب، فلاحقته الأجهزة فانتقل إلي كازينو قصر النيل.

عطفة زمنية

فلنخرج الآن من كازينو أوبرا الذي حوله الفنان محمد صبحي مع زميله الكاتب المسرحي لنين الرملي إلي مسرح تعتليه فرقة من الهواة المدربين بمسرحية [بالعربي الفصيح] التي لفتت الأنظار بصورة فائقة قبل أن ينفصل هذا الثنائي ليذهب كل منهما إلي حال سبيله بمفرده. نترك أيضا سيدما أوبرا وهي من دور الدرجة الأولي؛ ونهرب من رؤية هذا البناء الكئيب السمج، ذلك الجراج المتعدد الطوابق الذي أقيم في مكان دار الأوبرا. نهرب كذلك من هذا الجسر الكالح المسمي بكوبري الأزهر الذي تسلق المباني وجثم فوق مبني البوستة القديم الأثري، ومبني المطافيء المجاور له، ولكننا سنصطدم بكل ما هو قبيح رث، حتي واجهة المسرح القومي خيم عليها ظل الكوبري بما يلقيه فوقها من تراب ودخان وعادم تنفثه ألوف السيارات ؛ سنغرق في ميدان العتبة في بحر من الضجيج والصخب تشعله السيارات وألوف من الباعة الجائلين والحرفيين المتنطعين. ناهيك عن شارع كلوت بك السيء السمعة.

الأفضل أن نهرب من المكان كله. أقصد أن نهرب من هذا العصر الراهن، إلي أزمنة آخري بعيدة تتنسم فيها عبق الأيام الحلوة

من أم دنين إلي المقس

تنطرح الأرض الزراعية شاسعة علي امتداد البصر محاذية لشاطيء النيل. علي الضفة الغربية مدينة منف القديمه - البدرشين حاليا - وعلي الضفة الشرقية، في الموقع الذي تشغله الآن محطة مصر القديمة علي خط مترو الأنفاق، يقع قصر الشمع، الذي لايزال جزء من أحد جدرانه قائما حتي اليوم علي تخوم المحطة تلتصق به إحدي الصيدليات المسماة بصيدلية قصر الشمع، وقد سمي بقصر الشمع لأنه كان يضاء بالشموع من جميع نواحيه الخارجية حينما تدخل الشمس في برج معين، فمن خلال هذه الشموع المضاءة يعرف الناس أن الشمس قد دخلت في هذا البرج لتبدأ فترة من عنفوانها. وكان القصر علي شاطيء النيل مباشرة.

من قصر الشمع ذاك، تنحدر الأرض الزراعية في خلاء لا يشغله سوي عدة كنائس وديارات للنصاري ومجموعات من البساتين وجبل يشكر.. حيث الجامع الطواوني الآن. فاذا مشينا من قصر الشمع في اتجاه عين شمس علي شاطيء النيل فاننا نري عديدا من البرك والقناطر

والجسور، مرورا بأرض اللوق وأرض الطبالة، حتي نصل إلي هذا المكان الذي نقف فيه، فاذا هو قرية صغيرة تكاد تختفي بين المزارع اليانعة وفي ظل البستان الواقع علي شاطيء النيل، واسمها قرية أ م دنين وفي قصر الشمع المذكور كان يقيم المقوقس، الحاكم الروماني علي مصر، أو بتعبيرنا المعاصر : المندوب السامي الروماني وممثل هرقل في الديار المصرية.

هانحن الآن في حوالي سنة عشرين هجرية، والمقوقس مستلق علي الحشايا في قصره محروسا بطاقم خاص يحيط بقصره، في بلهنية من العيش لايدري أن الجيوش العربية الإسلامية المغيرة علي مستعمرته الكبري قد دخلت الديار المصرية بالفعل، فاخترقت العريش إلي مدينة الفرما، حيث مدنية بورسعيد الحالية، ثم اخترقت كثيرا من البلدان والقري دون أن تلقي مقاومة تذكر، حيث كان القبط قد تلقوا تعليمات من أعيانهم يوصونهم فيها بعدم الإشتراك مع جيوش الحاكم المحتل في مقاومة الجيوش العربية الفاتحة، ذلك أن العرب إخوة لهم في الجنس والملامح تجمعهم وحده الأرض ووحدة التراث الوجداني والأسطوري، وقد آن الآوان لكي يحرروهم من قبضة هذا الغاصب الروماني.

بوصول الجيوش العربية بقيادة عمور بن العاص إلي قرية أم دنين اعتبر عمرو نفسه قد افتتح مصر وانتهي الأمر، فهاهو ذا قصر الحاكم علي مبعدة خطوات، وهي مسافة تكفي لإجراء المفاوضات وإجراء

المناورات بدلاً من الإقتحام الأهوج للقصر. وهكذا ضربت الجيوش العربية خيامها في قرية أم دنين هذه التي نقف فيها الآن، وجعلت تقتسم الغنائم، وتدبر لإقتحام القصر، وتأخذ في نفس الوقت قسطا من الراحة.

دارت المفاوضات بتبادل الوفود بين القصر وقرية أم دنين،وهي مفاوضات غاية في الطرافة والإثارة لامجال لذكرها هاهنا، إلي أن تم الإستيلاء علي القصر بحيلة سينمائية بارعة لايفلح في تنفيذها أعظم مخرجي السينما المعاصرين، وهي الآخري خطة طويلة لامجال لذكرها هاهنا. إلا أن قرية أم دنين منذ ذلك التاريخ تغير اسمها وأصبحت تعرف بالمقسم، أو المقس علي سبيل الإختصار، أو المقسي في النطق العامي.

هاهي ذي مصر قد أصبحت إيالة إسلامية، واختطت القبائل العربية مدينة الفسطاط بجوار قصر الشمع، في المكان الذي كانت تقام فيه فسطاط - أي خيمة - عمرو بن العاص. ثم توالت الحكومات الإسلامية علي إمتداد الأزمنة، وكل حكومة فاتحة تبني لنفسها ضاحية جديدة متاخمة للفسطاط، فبنيت مدينة العسكر، ثم مدينة القطائع التي توسطها جامع بن طولون، إلي أن جاءت الحكومة الفاطمية فاتحة بقيادة جوهر الصقلي فبنت القاهرة فيما بين القطائع والمكس، أي أم دنين سابقا، وجرت إعادة فتح الخليج الذي يربط النيل بالبحر الأحمر ليسهل الإتصال بين مصر ومكه، وبدايته علي النيل هي المنطقة المعروفة الآن بضم الخليج حيث يوجد مجري العيون وقد عرف باسم خليج أمير

المؤمنين، ثم الخليج الناصري : وخط سيره هو نفسه الآن شارع بورسعيد، الذي يمر بمسجد السيدة زينب - الذي كان فيما مضي واقعا علي شاطيء الخليج مباشرة - وبحي درب الجماميز وباب الخلق حيث يوجد علي جانبيه مبنيان مهمان متقابلان هما مديرية أمن القاهرة ودار الكتب القديمه، المتحف الإسلامي حاليا.

ومنذ أن جرت المياه في خليج أمير المؤمنين، جرت الحياة والحركة في قرية المقس - أم دنين سابقا - فاكتسبت القرية أهمية حيوية. ولم يكن أهلها يعرفون أن هذه الأهمية ستكون علي حسابهم، إذ أن قريتهم ستزال من الوجود تماما، وتحل محلها أبنية جديدة، ويشهد موقعها الإستراتيجي عصورا تاريخية جديدة،حافلة.

بركة بطن البقرة

خليج أمير المؤمنين كان يخترق بستانا هائلا اسمه البستان الكافوري، كان قد أنشأه كافور الإخشيدي في أرض الرملة، أو الحمراء القصوي كما كانت تسمي آنذاك، وهي الأرض الواقعة بين جبل يشكر والمعتين ؛ فلما ترك جوهر الصقلي وشرع في بناء ضاحية القاهرة أزال الكثير من أشجار هذا البستان ليقيم في أرضها القصر الشرقي الكبير والجامع الأزهر ؛ ثم جيء بالخليفة الفاطمي المعز لدين الله ليفتتح القصر ويقيم فيه فأصبح يسمي بقصر الخلافة أو القصر الشرقي الكبير تمييزا له عن القصر الغربي الصغير، وكان موقعه علي شاطيء الخليج، يكاد يختفي فيما تبقي من البستان الكافوري.

ساحل النيل الأعظم كان آنذاك بالمقس، حيث كانت المقس أشبه بثغر علي جانب كبير من الأهمية. ولأنها متاخمة للقصور المعزية فقد اتجهت إليها أنظار الخلفاء الفاطميين كأهم بقعة في ضاحيتهم السعيدة التي سميت بالقاهرة، فأقاموا فيها المنشئات الحيوية العملاقة. من أشهر تلك

المنشأت منظرة المقس. يقول المقريزي : وكانت هذه المنظرة معدة لنزول الخليفة بها عند تجهيز الأسطول إلي غزوة الفرنج، فيحضر رؤساء المراكب بالشواني وهي مزينة بأنواع العدد والسلاح، ويلعبون بها في النيل.

ويقول ابن الطوير : فاذا تكملت النفقة، وتجهزت المراكب وتهيأت للسفر، ركب الخليفة والوزير إلي ساحل المقس، وكان هناك علي شاطيء البحر منظرة يجلس فيها الخليفة برسم وداع الأسطول، ولقائة إذا عاد. فاذا جلس هو والوزير للوداع، جاءت القواد بالمراكب من مصر إلي هناك للحركات في البحر بين يديه، وهي مزينة بأسلحتها ولبوسها، وفيها المنجنيقات تلعب، فتنحدر وتقلع بالمجاديف كما يفعل في لقاء العدو بالبحر المالح. ويحضر بين يدي الخليفة المقدم والرئيس فيوصيهما، ويدعو للجماعة بالنصرة والسلامة، ويعطي المقدم مائة دينار والرئيس عشرين دينارا. وتنحدر إلي دمياط، وتخرج إلي البحر المالح، فيكون لها ببلاد العدو صيت رهيبه. فاذا وقع لهم مركب لا يسألون عما فيه سوي الصغار والرجال والنساء والسلاح، وماعدا ذلك فللأسطول. واتفق مرة أن قدم علي الأسطول سيف الملك الجمل، فكسب بطشة عظيمة فيها ألف وخمسمائة شخص بعد أن بعث عليهم بالقتال، وقتل منهم نحوا من مائة وعشرين رجلا، وحضر إلي القاهرة. ففرح الخليفة وركب إلي المقس، وجلس بالمنظرة للقائهم، وأطلقوا الأسري بين يديه تحت المنظرة من جانب البر. فاستدعيت الجمال لركوبهم، وشق بهم القاهرة ومصر، وهم كل اثنين

علي جمل ظهرا لظهر. وعاد الخليفة إلي القصر فجلس في المنظر للنظر في جوازهم. فلما عادوابهم من مصر، صاروا بهم إلي المناخات، فصح منهم ألف رجل، فانضافوا إلي من في المناخ. وأما النساء،الصبيان فإنهم دخلوا بهم إلي القصر، بعد أن حمل منهم للوزير نصيب وافر، وأخذ الجهات والأقارب بقيتهن، فيستخدموهن ويعلمونهن الصنائع، ويتولي الأستاذون تربية الصبيان وتعليمهم الخط والرماية، ويقال لهم الترابي. ومن استريب به من الأسري، ونبه عليه بقوة، أوقع به. والشيخ الذي لاينتفع به يمضي فيه حكم السيف بمكان يقال له بئر المنامة في الخراب قريب مصر. ولم يسمع علي الدولة قط أنها فادت أسيرا بمال ولا بأسير مثله.

وقد خربت هذه المنظرة. وكان موضعها برج كبير، صار يعرف في الدولة الأيوبية بقلعة المقس، مشرفة علي النيل. ثم هدم هذا البرج علي يد الصاحب الوزير شمس الدين عبد الله، وأقيم مكانه جنينة كبيرة.

وفي المقس دار للصناعة، ربما كانت أول دار للصناعة تشهدها مصر بهذا الحجم. ومن المؤكد أن بلاد الفرنجة قلدوا هذه الدار، لاتلك التي أنشأها محمد علي في العصور الحديثة وأطلقوا عليها بلغتهم : ترسانة، وهو النطق الأعجمي لعبارة : دار صناعة. قال ابن أبي طي في تاريخه إن المعز لدين الله الفاطمي قد أنشأ هذه الدار قبيل وفاته، وأنشأ بها ستمائة مركب لم ير مثلها في البحر علي مينا. ولكن

المسيحي المؤرخ يقول : بل إن العزيز بالله نزار إبن المعز هو الذي بني دار الصناعة التي بالمقس، وعمل المراكب التي لم ير مثلها فيما تقدم كبرا ووثاثقة وحسنا. وقال في حوادث سنة ست وثلاثين وثلاثمائة : وقعت نار في الأسطول وقت صلاة الجمعة لست بقين من شهر ربيع الآخر فأحرقت خمس عشاريات، وأتت علي جميع مافي الأسطول من العدة والسلاح حتي لم يبق منه غير ستة مراكب فارغة لاشيء فيها. فحمل البحريون السلاح، واتهموا الروم النصاري - وكانوا مقيمين بدار ماتك بجوار الصناعة التي بالمقس - وحملوا علي الروم، وقتلوا منهم مائة رجل وسبعة رجال، وطرحوا جثثهم في الطرقات، وأخذ من بقي فحبس في صناعة المقس.ثم حضر عيسي بن نسطورس، خليفة أمير المؤمنين العزيز بالله في الأموال ووجوهها بديار مصر والشام والحجاز، ومعه يانس الصقلبي وهو يومئذ خليفة العزيز بالله علي القاهرة عند مسيره إلي الشام، ومعهما مسعود الصقلبي متولي الشرطة. وأحضروا الروم من دار الصناعة، فاعترفوا بانهم الذين أحرقوا الأسطول. فكتب بذلك إلي العزيز بالله - وهو مبرز يريد السفر إلي الشام - وذكرله في الكتاب خبر من قتل من الروم وما نهب، وأنه ذهب في النهب مايبلغ تسعين ألف دينار. فطاف أصحاب الشرط في الأسواق بسجل فيه الأمر برد مانهب من دار ماتك وغيرها، والتوعد لمن ظهر عنده منه شيء، وتم ضبط الناس. وأمر عيسي بن نسطورس أن يمد للوقت عشرون مركبا،

وطرح الخشب، وطلب الصناع وبات في الصناعة، وجد الصناع في العمل. وأغلب أحداث الناس وعامتهم يلعبون برءوس القتلي، ويجرون بأرجلهم في الأسواق والشوارع، ثم قرنوا بعضهم إلي بعض علي ساحل النيل بالمقس، وأحرقوا يوم السبت. وضرب بالجرس علي البلد ألا يتخلف أحد ممن نهب شيئا أو جحده أو أخره، حلت به العقوبة الشديدة. وتتبع من نهب، فقبض علي عدة، قتل منهم عشرون رجلا ضربت أعناقهم، وضرب ثلاثة وعشرون رجلا بالسياط، وطيف بهم وفي عنق كل واحد رأس رجل ممن قتل من الروم، وحبس عدة أناس. وجد عيسي بن نسطورس في عمل الأسطول وطلب الخشب، فلم يدع عند أحد خشبا علم به إلا أخذه منه، وتزايد إخراج النهابة لما نهبوه، فكانوا يطرحونه في الأزقة والشوارع خوفا من أن يعرفوا به، وحبس كثير من النهابة. فلما كان يوم الخميس ثامن جمادي الأول ضربت أعناقهم كلهم علي يد أبي أحمد جعفر، صاحب يانس، فانه قدم في عسكر كثير من اليانسية حتي ضربت أعناق الجماعة، وأغلقت الأسواق يومئذ. وطاف متولي الشرطة، وبين يديه أرباب النفط بعددهم، والنار مشتعلة، واليانسية ركاب بالسلاح، وقد ضرب جماعة، وشهرهم بين يديه وهم ينادي عليهم : هذا جزاء من أثار الفتن، ونهب حريم أمير المؤمنين. فاشتد خوف الناس وعظم فزعهم. فلما كان من الغد نودي : معاشر الناس قد آمن الله من أخذ شيئا أو نهب شيئا علي نفسه وماله، فليرد من بقي عنده شيء من

النهب. وفي سابع جمادي الآخرة نزل ابن نسطورس إلي الصناعة، وطرح مركبين في غاية الكبر من التي استعملها بعد حريق الأسطول. وفي غرة شعبان نزل أيضا وطرح بين يديه أربعة مراكب كبار، من المنشأة بعد الحريق. واتفق موت العزيز بالله وهو سائر إلي الشام، في مدينة بلبيس. فلما قام من بعده ابنه الحاكم بأمر الله في الخلافة، أمر في خامس شوال بحط الذين صلبهم ابن نسطورس، فتسلمهم أهلهم، وأعطي لأهل كل مصلوب عشرة دنانير برسم كفنه ودفنه. وخلع علي عيسي بن نسطورس وأقره في ديوان الخاص، ثم قبض عليه في ليلة الأربعاء سابع المحرم سنة سبع وثمانين وثلاثمائة، واعتقله إلي ليلة الإثنين سابع عشرين. فأخرجه الأستاذ برجوان - وهو يومئذ يتولي تدبير الدولة - إلي المقس، وضرب عنقه. فقال وهو ماض إلي المقس : كل شيء قد كنت أحسبه إلا موت العزيز بالله، ولكن الله لايظلم أحدا. ثم حكي موقفا أليما..

ذلك أنه حينما ألقي السهام للقوم المأخوذين في نهب دار ماتك وفي بعضها مكتوب « يقتل » وفي أخري « يضرب » : أخذ شاب ممن قبض عليهم رقعة منها فجاء فيها « يقتل » فأمر به ابن نسطورس إلي القتل.فصاحت أم الشاب ولطمت وجهها، وحلفت أنها وهو ماكانا ليلة النهب في شيء من أعمال مصر، وإنما وردا مصر بعد النهب بثلاثة أيام. وناشدته الله تعالي أن يجعل ابنها من جملة المضروبين بالسوط، وأن يعفيه من القتل. فلم يلتفت إليها، وأمر بضرب عنقه. فقالت أمه :

إن كنت لابد قاتله فاجعله آخر من يقتل لأتمتع به ساعة. فأمر به فجعله أول من ضرب عنقه. فلطخت بدمه وجهها، وسبقته - وهي منبوشة الشعر ذاهلة العقل - إلي القصر. فلما جاء قالت له : أقتلته ! كذلك سيقتلك الله. فأمر بها هي الأخري فضربت حتي سقطت علي الأرض ميتة.

هذا ماحكاه ابن نسطور بنفسه وهو يمد عنقه تحت سيف السياف، فيالها من حكمة إلهية بالغة.

ومن المنشئات الشهيرة في المقس، جامع المقس. وكان لهذا الجامع نخل كثير. أنشأه الحاكم بأمر الله علي شاطيء النيل بالمقس؛ وأرقف عليه أحكاراً تدر عليه نفقة دائمة. وكان يحلو له الجلوس في المنظرة ومشاهدة هذا النخل. وفي سنة سبع وثمانين وخمسمائة انشقت زريبة من هذا الجامع في شهر رمضان لكثرة زيادة ماء النيل، وخيف علي الجامع السقوط فأمر بعمارتها. ولما بني السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب هذا السور الذي علي القاهرة، وأراد أن يوصله بسور مصر من خارج باب البحر إلي الكوم الأحمر، وكان المتولي لعمارة ذلك الأمير بهاء الدين قراقوش الأسدي؛ أنشأ بجوار جامع المقس برجا كبيرا عرف بقلعة المقس، وهو البرج الذي هدمه الوزير الصاحب شمس الدين عبد الله أيام السلطان الملك الأشرف شعبان بن حسين.

العصور كالمشاعل، والرجال هم زيتها الباعث الضوء فيها؛ وهم أيضا نتاج الأمكنة بقدر مايؤثرون في الأمكنة. والأمكنة كالبشر

تخضع للميلاد والموت كما تخضع لعوامل التألق وعوامل الإضمحلال حسبما ينطوي عليه باطنها من مواهب وامكانات. ولاشك أن أرض المقس هذه التي نجول في أزمنتها البعيدة والحديثة والمعاصرة، لديهامواهب طبيعية غزيزة تتيح لها الزهو والإزدهار في كل الأزمنة، بحكم موقعها الأستراتيجي من كل من النيل الأعظم والعاصمة المصرية معا؛ ولهذا لم يكن غريبا أن الشمس لم تغرب عنها قط، ولم تكن تلقي من الأهمال إلا بقدر مافي بعض الرجال من خور أو تخلف أو استبداد ؛ لكنها لم تكن تنزوي في الظل قليلا إلا لكي تسترد ازدهارها من جديد فتتألق علي صدر العاصمة المصرية. إن الفترات القليلة التي خبت فيها هذه المنطقة كانت نتيجة عوامل انتقامية طبقية، إذ يجيء وقت لامبرر فيه لإهمالها إلا الرغبة في ازدراء من كانوا ينعمون بها من قبل من الأرستقراطية الحاكمة؛ فورثة السلطان في بلادنا دائما أبدا مغرمون بمحو أثار السابقين عليهم سيما وان كانوا من الغرباء وما اكثر مايكونون، وبالأخص لأن السلطان في مصر كان يتداوله المحتلون الغرباء فكل وافد جديد يبتني لنفسه ضاحية جديدة.

إنزوت المقس في الظل بعد رحيل الحكم الفاطمي، ولكن لأنها تحمل في باطنها إمكانيات التألق فانها سرعان ما فرضت تألقها، خاصة عندما حفرت بها تلك البركة المسماة ببركة بطن البقرة. يحدد المقريزي موقعها وظروفها بأنها كانت فيما بين أرض الطبالة وأرض اللوق -

وأرض الطبالة هذه قريبة من أرض الفجالة الحالية يصل إليها ماء النيل من الخور - فم الخليج حاليا - فيعبر في خليج الذكر - أو الناصري أو شارع بورسعيد حاليا - إليها. وكانت تجاه قصر اللؤلؤه - من القصور الفاطمية - شارع بين القصرين حاليا - ودار الذهب في بر الخليج الغربي. كانت في الأصل بستانا كبيرا، فيما بين المقس وجنان الزهري، عرف بالبستان المقسي نسبة إلي المقس، ويشرف علي بحر النيل من غربيه، وعلي الخليج الكبير من شرقيه.

فلما كان في أيام الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله أبي هاشم علي بن الحاكم بأمر الله - يقول المقريزي - أمر بعد سنة عشر وأربعمائة بإزالة أنشاب هذا البستان، وأن يعمل بركة قدام المنظرة التي تعرف باللؤلؤة. فلما كانت الشدة العظمي زمن الخليفة المستنصر بالله، هجرت البركة، وبني في موضعها عدة أماكن عرفت بحارة اللصوص إذ ذاك.

فلما كان في أيام الخليفة الأمر بأحكام الله، ووزارة الأجل المأمون محمد ابن فاتك البطائحي، أزيلت الأبنية، وعمق حفر الأرض، وسلط عليها ماء النيل من خليج الذكر، فصارت بركة عرفت ببركة بطن البقرة، وما برحت إلي سنة سبعمائة.

وكان قد تلاشي أمرها منذ كانت الغلوة، في زمن الملك العادل كتبغا سنة سبع وتسعين وستمائه، فكان من خرج من باب القنطرة يجد عن يمينه أرض البطالة من جانب الخليج الغربي إلي حد المقس، ويجد بركة بطن

البقرة عن يساره من جانب الخليج الغربي إلي حد المقس. وبحر النيل الأعظم يجري في غربي بطن البقرة علي حافة المقس إلي غربي أرض الطبالة، ويمر من حيث الموضع المعروف بالجرف إلي غربي البعل، ويجري إلي منية الشيرج.. فكان خارج القاهرة أحسن متنزه في مصر من الأمصار.

وكما يحدث في مصر دائما، لامانع لدي أي نفر من المتسللين إلي دست الحكم من ردم نهر النيل نفسه في سبيل مكاسب شخصية؛ ففي عصرنا الراهن يسعي الكثيرون منهم لردم أجزاء من شاطيء النيل لإدخالها فيما يسمي بطرح النيل للإستيلاء عليها بوضع اليد واستثمارها في الزرع أو البناء أو إقامة الملاه والمشاريع التجارية. أمثال هؤلاء تعقبوا هذا النهر الصبور الأصيل طوال تاريخ احتلاله، فجعل يتراجع تحت ضرباتهم حتي آب إلي مجرد شرياني، وغداً أو بعد غد يتم خنقه بعد أن تم إخصاؤه؛ مالم يتهيأ له فراعين جدد يدركون قيمته ويقدرونها حق قدرها.

أقول كما يحدث في مصر دائما، خاصة لنهر النيل، أهمل شأن البركة ثم بدأت التعديات عليها. ذلك أن سكان القاهرة بالذات كانوا من جنسيات مختلفة جاءوا مع الجيوش الغازية واستوطنوا فلم يكن يعنيهم من مصير مصر كلها سوي ماينتزعونه لأنفسهم من مكاسب شخصية. أصبح الماء يفيض في البركة شيئا فشيئا فلا تجد من يطهرها من الطمي والأوشاب والترسبات، لاتجد إلا أكوام القمامة تلقي فيها

بغزارة، حتي آبت إلي كوم عرف في بعض العصور المملوكية بكوم الجاكي، تتفرع منه الكيمان والخرائب حتي باب اللوق، ولكن غربي الخليج كله ظل يعرف باسم منطقة بطن البقرة. ثم إن الخليج نفسه تم ردمه علي امتداد الزمن بفعل الإهمال تارة وبقرار سياسي تارة أخري حتي تحول في عصرنا إلي شارع بورسعيد الممتد من السيدة زينب حتي شارع الجيش والعباسية.

جامع أولاد عنان

بحثت في تجوالي المعاصر في هذه المنطقة العريضة المزدحمة بكثافة من البيوت والبشر والحافلات علي صورة يعجب الإنسان كيف تحتملها الأرض، بله أن تحتملها أعصاب المواطنين، أقول بحثت في هذا الكرنفال المتناقض المضطرم المضطرب عن معلم واحد بقي في الزمن الحاضر من عصور المقس أو بركة بطن البقرة فلم أجد، وكنت لا أزال أمارس هوايتي في التسكع بين بقايا أكشاك الكتب القديمة علي سور الازبكية، فوقعت يدى علي جزء من الخطط التوفيقية لمؤلفها علي مبارك باشا، وكان دليلي المكتوب في هذه الرحلة في الزمكان كتاب صغير وغاية في الطرافة عنوانه (في ربوع الازبكية) لمؤلفة الأستاذ محمد سيد كيلاني، وهو الكاتب المصري الوحيد الذي أنتبه إلي حيوية تاريخ هذه المنطقة الحميمة التي هى بمثابة السره من جسد القاهرة، وقد صدر هذا الكتاب عام ١٩٥٩، وكنت مفتونا به إلي أن قرأت خطط المقريزى وتواريخ ابن إياس وابن تغري بردي، فراجعت المعلومات الواردة

في هذا الكتاب علي هذه المصادر ففوجئت بالكثير من الإلتباسات التي لابد من توضيحها خاصة أن عامة القراء يمكن لهم الإطلاع علي كتاب كهذا بسهولة في حين لا تمكنهم ظروفهم من الإطلاع علي المصادر التاريخيه الكبري.

فحسب دليل الأستاذ الكيلاني، فإن كل معالم المقس القديمة قد اندثرت، أما الأثر الوحيد الباقي فقد نسبه إلي غير صاحبه، هذا الأثر هو بناء قام في عصر ازدهار المقس، ذلك هو جامع المقس الذي بناه الحاكم بأمر الله وبجواره المنظرة الشهيرة والبرج المسمي بقلعة المقس.

قادتني الخطط التوفيقية من يدى في شارع الجمهورية في اتجاه ميدان رمسيس أو باب الحديد، أوقفتني أمام جامع يعتبر تحفه فنية غاية في الفتنة المعمارية، قالت الخطط التوفيقية :

- هذا هو جامع المقس أو الجامع المقسى كما يسميه العامه في زماننا قلت في استغراب ودهشه :

- ولكن الجامع اسمه جامع أولاد عنان، طول عمرنا نعرفه بهذا الاسم من قديم الأزل.

قالت الخطط التوفيقية :

- نعم هو يسمي الان بجامع أولاد عنان ولذلك قصة يمكن أن أرويها لكم.

قلت للخطط التوفيقية :

- ومع ذلك فإن دليلى الآستاذ محمد سيد كيلاني يقول انه في الأصل جامع أزبك

قالت الخطط التوفيقية :

- جامع أزبك هدم مع قصوره الزاهرة، وسيأتي بيان ذلك بعد قليل ولكن إليك الآن قصة تحول جامع المقس إلي جامع أولاد عنانى

قلت : هات

قالت : إذا كنت تمتدح جماله هذا الظاهري فاعلم أن جماله القديم لم يكن له نظير من ناحية جمال الموقع، فقد كان واقعا علي حافة الخليج الناصري، الذي حفره الناصر محمد بن قلاوون مخترقا هذه الأرض التي كانت تسمي بأرض الطبالة، متجها إلي سريا قوس، وكان محاطا ببستان من النخيل

قلت : يقول الجبرتي ان الفرنساوية لما دخلوا مصر هدموا عدة مساجد ومن بينها هذا الجامع.

قالت : لقد تعرض للهدم والتجديد علي مدار الزمان عدة مرات، المهم أن في هذا الجامع ضريح محمد ابن عنان، ويجمل بي أن أحيلك إلي الطبقات للإمام الشعراني ليحيطك علما بقصته : قال الشعراني

كان رضى الله تعالي عنه من الزهاد العباد، وما كنت أمثله إلا بطاوس اليماني أو سفيان الثوري وكان مشايخ العصر إذا حضروا عنده كلاطفال في حجر مربيهم وكان يضرب به المثل في قيام الليل وفي العفه

والصيانه، وكانت له كرامات عظيمة، وكان وقته مضبوطًا لا يتفرغ لكلام اللغو ولا لشيء من أخبار الناس، ويقول : كل نفس ـ من التنفس ـ مقوم علي بسنَّه، وكنا ونحن شباب في ليالى الشتاء نحفظ الواحنا، ونكتب بالليل ونقرأ ماضينا وهو قائم يصلى علي سطح جامع الغمري، ثم ننام ونقوم فنجده يصلى وهو متلفع بحرامه والناس تحت اللحف لا يستطيعون خروج نشيء من أعضائهم، وكان يحب الإقامة في الأسطحة، كل جامع أقام فيه عمل له فوق سطوحه خصا أو خيمة، أقام في بدء أمره ثلاث سنين في سطح جامع عمرو لاينزل إلا لصلاة الجماعة أو لحضور درس الشيخ يحي المناوي، وكان يقول : حفظت القرآن وأنا رجل، ويقول، منذ وعيت علي نفسي لا أقدر علي جلوسى بغير طهارة قط، وكانت تصيبني الجنابة فلا أجد للغسل الا بركة علي باب دارنا في ليالي الشتاء فأفرق الثلج عن وجهها ثم أغطس فأجد الماء من الهمة ساخنا فيها، وكان رضى الله عنه يقول : مجالسة الأكابر تحتاج إلي الطهارة، وقال الشيخ عبد الدايم ابن اخيه، بعت مركب قلقاس من زرع عمي وجئته بثمنها أربعين ديناراً فصاح في فرفعتها من بين يديه، وجاءه شخص وهو في جامع المقسم أوائل مجيئه من بلاد الأرياف بالشرقية وقال له : أن جماعة يقولون : هذه الخلاوي التي فيها الفقراء لنا، فأمر بنقل دسوت الطعام الي الساحة التي بجوار سيدى محمد الجبروني وكمل طبخ الطعام هناك. وكان مدة إقامته في مصر لا يكاد

يصلى الجمعة مرتين في كل مكان واحد خوف الشهرة، وكان يكره للفقير أن يغتسل عريانا ولو في خلوة، ويشدد في ذلك ويقول : طريق الله ما بنيت إلا علي الأدب مع الله تعالي ، وكان لا يركب قط إلي أى مكان الا ويحمل معه الخبز والدقة ويقول إن الرجل إن حمل معه خبزا استشرقت نفسه للطعام، فإذا وجده أكله بعد استشراف النفس وقد نهي الشارع عن ذلك، ومناقبه رضى الله عنه لا تحصى، ولما حضرته الوفاة ومات نصفه الأسفل حضرت صلاة العصر فأحرم جالسا خلف الإمام لا يستطيع السجود، ثم اضطجع والسبحة في يده فوجدناه ميتاً، وذلك في ربيع الأول سنة اثنتين وعشرين وستمائه عن مائه وعشرين سنه، ودفن بجامع المقسم، وصلى عليه الأئمة والسلطان طومان باى، وصار يكشف رجل الشيخ ويمرغ خدوده عليها، وكان يوما مشهودا، إنتهي.

وهكذا تؤول ملكية الأشياء في مصر إلي ناس ما فكرو أبدا في امتلاك شيء، فهل كان الحكم بأمر الله الذي بناه، أو الشيخ عبد الله المقسي الذي جدده وبيضه أو بهاء الدين قراقوش الذي بني برجة، يعرفون أن هذا الجامع سوف يكون ضريحا لصوفي علي باب الله اسمه محمد بن عنان، فيحمل اسمه قرونا طويلة بل يكون دفنه فيه من أقوي أسباب استمراره قائما كل هذه القرون ؟!

من مؤسس الأزبكية
إلي مظاهرة البغايا

نحن الآن في عصر السلطان قايتباى، علي وجه التحديد حوالي سنة ٨٨١هـ - الموافق سنه ١٤٦٠م، الرجال حول السلطان كثيرون، من مماليكه ومماليك مماليكه ومماليك المماليك المشاركين في جهاز الحكم والذين تولوا السلطنة من قبله، لكن الوجوه اللامعه قليلة بين هؤلاء وأولئك، والوجوه تلمع آنذاك لسببين : الاشتهار بالمجد والسؤدد والشجاعة والعدل والإنصاف، أو بالفسق والضلال والجور.

من ألمع وجوه ذلك الزمان الأتابكي أزبك بن ططخ، أو يزبك في بعض الكتابات، وهو الأمير الذي اخذت الأزبكية اسمه من تاريخه حتي اليوم.

سألنا عنه الخطط التوفيقية فقالت : الازبكية المذكورة منسوبة للأمير أزبك الذي ترجمه إبن إياس فقال : كان أزبك هذا من أجمل الأمراء قدرا، وأعظمهم ذكرا، وكان وافر الحرمة، نافذ الكلمة، في سعة المال،

وكان أصله من معاتيق الظاهر جقمق، ويقال إن أصله من كتابيه الأشرف برسباى، واشتراه الظاهر جقمق من بيت المال، وأعتقه فصار من معاتيقه، وصاهره مرتين في ابنتيه، وتولي عدة وظائف جليلة بمصر، ومنها حجوبية الحجاب، ورأس نوبة كبير، ثم تولي نائب الشام في دولة الظاهر قايتباى سنة ثلاث وسبعين وثمانمائه وأقام بها مدة، ثم قاس شدائد ومحنا ، ونفي نحو أربع مرات، وسجن بالاسكندرية مرتين.

وكان كفؤاً للمهمات السلطانية والتجاريد، وقد سافر في عدة تجاريد، وكان يطلب الطلبات الحافلة، وصرف علي التجريد من ماله مالا ينحصر، وكان مسعود الحركات في سائر افعاله، ذا شهامة وعلو همة، وأظهر العزم الشديد في قتال عسكر ابن عثمان، ولم يجيء في الاتابكية بعده مثله، ومات وله من العمر نحو خمس وثمانين سنه، وخلف من الأولاد ولده الناصري محمد الذي من بنت الظاهر جقمق، وولده يحي، وصاهره قنصوه خمسمائه في إحدي بناته وماتت معه، فلما مات ترافع محمد ويحي بين يدى السلطان، فوضع السلطان يده علي تركته من صامت وناطق، قيل وجدله من الذهب العين سبعمائه ألف دينار، خارجا عن الترك والخيول والقماش والتحف، وخارجا عن جهاز ابنته التي ماتت مع قنصوة خمسمائه، وقد قوم ذلك بنحو مائه ألف دينار فحمل ذلك جميعه الي الخزائن الشريفة، ولولا الذي صرفه الأمير أزبك علي التجاريد وعمارة الازبكية ما كان ماله ينحصر، وكانت تركته

تعادل تركة سيلار نائب السلطنة. ومن أراد أن يعلم علو همة الأتابكي أزبك فلينظر ما صنعه من عمارة الأزبكية، وقد أنشأه في سنة إحدي وثماني وثمانمائة

ثم قال - يعني ابن اياس : ومما عد من مساويه أنه كان شديد الخلق صعب المراس، إذا سجن أحداً لا يطلقه ابدا، وكان عنده حدة زائدة وشح في نفسه، جريء اللسان مع تكبر وبطش، وقد فاتته السلطنة عدة مرات ولما مات نزل السلطان وصلي عليه في سبيل المؤمنين - وكان محله بجوار جامع المحمودية الكائن بالرميلة من الجهه الغربية للجامع - ودفن عند أستاذه الملك الظاهر جقمق، وكان يقال له أزبك الخازندار، أو ناظر الخاص

كان إذن - كما هو واضح - من كبار اللصوص مع احترامنا لنبله وشجاعته في الحرب مع عساكر ابن عثمان، فقد انحصرت شجاعته في البناء لنفسه، ومن بني لنفسه حصد الهشيم في النهاية، لقد أراد أن ينعم بشيخوخة رافلة في النعيم، بعد أن اعتزل العمل السياسي، فقرر أن يعيش كالسلاطين في قصور زاهرة، فنشن علي المنطقة المقس هذه، وقرر أن يبني فوقها قصوره بشرط أن يعيد حفر بركة بطن البقرة التي كانت قد تم ردمها تماما وصارت أرضا مليئة بأكوام القمامة.

قلنا من قبل إن البستان المقسي الكبير - غربي الخليج - كان يمتد فيما بين المقس وجنان الزهري، يعني من جامع أولاد عنان الي قنطرة باب الخرق، التي محلها الأن حارة النصاري المار بها شارع كلوت بك،

فلما هجرت البركة في زمن الشدة المستنصرية - زمن الخليفة المستنصر بالله - بني علي حافة الخليج أماكن عرفت بحارة اللصوص آنذاك، فجاء المأمون البطائحي وأزال هذه المباني وأعاد حفر البركة، ثم تلاشى أمرها في زمن الملك العادل كتبغا في سنة سبع وتسعين وستمائه، ليجيء الأمير أزبك بعد ما يربو علي قرنين من الزمان ليعيد خلقها من جديد علي صورة حضارية رائعة.

تعلق الخطط التوفيقة بقولها : ومن يتأمل في عظم بستان المقس وتحديدات المقريزي له يجد أنه لم يحفر كله بركة، إذ مساحته كانت تزيد علي أربعمائه فدان، ولا يتصور حفر جميع ذلك بركة، بل الذي حفر هو الجزء القريب من منظرة اللؤلؤة فقط، وبقي بعضه إلي ايامنا وباقية محله الآن المباني الموجودة علي حافة الخليج الغربية ما بين قنطرة الموسكي وباب القنطرة، ويدخل في ذلك ميدان القطن وشارع القنطرة وغيرهما، وأما باقي البستان فقد بقي علي أصله إلي إن ضاقت مصر بالسكان فصار يحكر شيئا فشيئا حتي آلت البركة الي القطعة التي بقيت في زماننا هذا، وكانت مساحتها تبلغ نحو ستين فدانا.

وذكر ابن أبي السرور البكري في خططه أن هذه البقعة استمرت خرابا إلي سنة ثمانين وثمانمائه في دولة الاشرف قايتباى، فحسن بال الاتابكي أزبك أن يعمر هناك مناخا لجماله، وكان سكنه قريبا منها، فلما أن عمر المناخ حلت له العمارة، فبني القاعات الجليلة والدور

والمقاعد وغير ذلك، ثم أنه أحضر أبقاراً ومحاريث، وجرف ما احتاج إلي جرفه من الكيمان، ومهدها وصارت بركة، وبني حولها رصيفا محيطا بها - يقصد كورنيشا بتعبيرنا المعاصر، وتعب في ذلك تعبا شديدا حتي تم له ما أراد، وصرف عليها أموالا عديدة نحو مائتي ألف دينار، ثم إن الناس شرعوا في البناء عليها - يعني حول البركة - فبنيت القصور النفيسة الفاخرة، والاماكن الجليلة، وتزايدت العمائر إلي سنة إحدي وتسعمائه، وصارت بلدة بانفرادها، وأنشابها الأتابكي أزبك الجامع الكبير بخطبة ومنارة عظيمة وأتقنه حتي صار في غاية الحسن والزخرفة ثم أنشا حول الجامع البناء والربوع والحمامات والقياسر، وما يحتاج إليه من الطواحين والأفران وغير ذلك من المنافع، ثم سكن أزبك في تلك القصور إلي أن مات، وكان عند فتح سد البركة يجتمع عنده الأمراء المتقدمون، وتأتي إليها الناس للفرجة أفواجا أفواجا، وكان لها يوم مشهود، وكان في كل سنة تضرب حول البركة خيام ويقع من القصف والفرجة ما لا يزيد عليه.

الجزء الخلفي لجامع أولاد عنان، وباب الحديد - أو ميدان رمسيس حاليا وهو جزء مما عرف بأرض الطبالة أصبح يسمي بـ « وش البركة » ثم أصبح الإسم يطلق علي المنطقة كلها عند بعض العامة.

وثمة أرض فضاء كانت قريبة من الرويعي علي تخوم البركة وكانت تستخدم في حرق الجير، فأطلق عليها العامة « وسعاية الجير » ثم إن

اللسان الشعبي يميل إلي الاختصار دائما، فاصبح يكتفي بكلمة « الوسعه » وكانت كذلك تطلق علي المنطقة كلها، إلا أن الإسمين : وش البركة، والوسعة، إكتسبا في العصور الحديثة شيئا من سوء السمعة حتي باتت كل منهما قرينة للدعارة، وسيأتي بيان هذا بعد قليل.

إلا أن سوء السمعه كانت بذرته قد ألقيت في المنطقة مع بداية الترف الذي أضفاه عليها الأمير أزبك، حيث كان يدعو الامراء والاعيان الي سرادقات ينصبها لهم ويقدم فيها الطعام والشراب والالعاب احتفالا سنويا بفتح السد عند مدخل البركة عل الخليج الناصري كل عام حينما يرتفع النيل.فبعد الطعام والشراب يجلس السادة لمشاهدة الرقص الشرقي الجماعي والفردي تؤديه راقصات محترفات وهاويات، ويستمعون إلي غناء الجواري وكأن عامة الشعب الفقراء يرون أن من حقهم الحصول علي نصيب من هذه الافراح، فينصبون خيامهم بين الأشجار علي شواطىء البركة ويقيمون مراقصهم وغنائهم، يظل الاحتفال الجماعي الصاخب قائما حتي مطلع الصبح تمارس فيه كافه أنواع الموبقات من سكر وعربدة ولعب وقمار واختلاط جنسي بجميع انواعه الطبيعيه والشاذة

إذا عبرنا بركة الأزبكية إلي الخليج الناصري إلي أرض الطبالة وجدنا بركة أخري لا تقل أهمية ولا شهرة عن بركة الازبكية وتدخل في موضوعنا موضوعيا وجغرافيا، باعتبارها جزء من تخوم المنطقة من ناحية ومتصلة بالموضوع من ناحية أخري.

سألنا خطط المقريزي عنها فقالت : هذه البركة من جملة أرض الطبالة عرفت ببركة الطوابين من أجل أنه كان يعمل فيها الطوب، فلما حفر الملك الناصر محمد بن قلاوون الخليج الناصري، إلتمس الأمير بكتمر الحاجب من المهندسين أن يجعلوا حفر الخليج علي الجرف إلي أن يمر بجانب بركة الطوابين هذه، ويصب من بحري أرض الطبالة في الخليج الكبير فوافقوه علي ذلك، ومر الخليج من ظاهر هذه البركة، فلما جري ماء النيل فيه روي أرض البركة، فعرفت ببركة الحاجب، فإنها كانت بيد الأمير بكتمر الحاجب المذكور، وكان في شرقى هذه البركة زاوية بها نخل كثير، وفيها شخص يصنع الأرطال الحديدالتي تزن بها الباعة، فسماها الناس بركة الرطلي نسبة لصانع الأرطال، وبقيت نخيل الزاوية قائمة بالبركة إلي ما بعد سنة تسعين وسبعمائه.

فلما جري الماء في الخليج الناصري، ودخل منه الي هذه البركة، عمل الجسر بين البركة والخليج، فحكرة الناس، وبنوا فوقه الدور، ثم تتابعوا في البناء حول البركة حتي لم يبق بدائرها خلو، وصارت المراكب تعبر اليها من الخليج الناصري، فتدورها تحت البيوت وهي مشحونة بالناس، فتمر هنالك للناس أحوال من اللهو يقصر عنها الوصف.

وتظاهر الناس في المراكب بأنواع المنكرات من شرب المسكرات، وتبرج النساء الفاجرات واختلاطهن بالرجال من غير إنكار، فإذا نضب ماء النيل زرعت هذه البركة بالقرط وغيره، فيجتمع فيها من الناس في

يومي الأحد والجمعه عالم لا يحصي له عدد، ثم لما تكدر جو المسرات، وتقلص ظل الرفاهية، وانهلت سحائب المحن من سنة ست وثمانة، تلاشى أمرها.

وفيها إلي الآن - تقول الخطط المقريزية، والأن يعني عصر كتابة الخطط - بقية صبابة، ومعالم أنس، وآثار تنبيء عن حسن عهد، ولله در القائل :

في أرض طبالتنا بركـــة　　مدهشة للعـين والعقـل
ترجع في ميزان عقلي علي　　كل بحار الأرض بالرطل

وفي مؤلفه التاريخي الكبير (بدائع الزهور في وقائع الدهور) يشير إبن إياس إلي أن منطقة بركة الرطلي هذه أصبحت - تقريبا - حي البغاء غير الرسمي، وغير المستتر في نفس الوقت، في مدينه القاهرة

وكان للسطان الغوري عدد هائل من الجواري، بعضهن لم يأت عليهن الدور كي يعاشرهن، وبعضهن لا يشبعن أبدا، فكن يذهبن سرا الي بركة الرطلي هذه ليمارسن الفسق علي هواهن وكان لابد أن ينكشف أمرهن، فجن جنون السلطان الغوري، فأصدر أوامره المشدده بإزالة جميع المباني القائمة حول بركة الرطلي، مع تحريم السكني في تلك الجهة، أزيلت دور اللهو من مراقص ومغاني وغرز للحشيش ومطاعم وحانات واستراحات، مما جعل أهل اللهو والفرفشة يترحمون عليها بحسرة، وينقل إبن اياس بعض ما قيل في نعيها من قصائد شعرية، من قبيل :

علي بركة الرطليّ نوحوا وعددوا　　لما حل فيها من نكال ومن خســر
وكان بها السكير في غاية الهنا　　يدير كئوس الراح في ليلة القدر

ومثلما حدث في عصرنا الحديث حينما انتقلت دور اللهو والكباريهات من شارع عماد الدين - وهو جزء من بركة الازبكية - إلي شارع الهرم، إنتقلت دور اللهو من بركة الرطلي الي بركة الازبكية، وكان هذا طبيعيا إذا أن بركة الأزبكية أصبحت موطن الأرستقراطية المرفهه المنحلة المتمتعة بقدر غير قليل من الحصانه، والقادرة علي الصرف والإنفاق، إن اللهو كاحتياج إنساني وأن إمكن ترشيده بالعمل الثقافي فإنه لا يمكن محاربته بأيه قوة غاشمة، اذا لابد أن يحتل مكانا علي الخريطة.

وهكذا انتقلت بيوت البغاء إلي بركة الأزبكية، البغاء المقنع، الذي يتخذ صورا وأشكالا عديدة.

أثمرت بذرة الفساد في الأزبكية، فظلت تنمو وتتضخم حتي إذا ما جاء العصر العثماني كانت هي قد أصبحت بؤرة فساد حقيقية، أصبحت داراً للبغاء بعد أن كانت مسكنا للأرستقراطية، فالفساد يأتي دائما من أعلي لينتشر في بقية أنحاء الجسد.

تصبح أخبار البغاء والفسوق مادة للمؤرخين في ذلك العصر، فَجِلّة هؤلاء المؤرخين كانوا علي يقين من أن مصر القاهرة إن هي إلا مسكن للأرستقراطيات الحاكمة علي امتداد العصور، وأى فساد ينتشر فيها

فإن أهل مصر الأصلاء أبرياء منه براءة الذئب من دم ابن يعقوب، حتي أحط المومسات اللآتى يتقلبن بالأجر في أحضان الطبقات الفقيرة كانوا كلهن من الجواري الحبشيات والأرمنيات والشركسيات والأتراك ومن مختلف الطبقات جئن إلي أرض مصر مع النخاسين أو كأسرى الحروب.

في حوادث سنه ٩٢٥هـ - ١٥١٩، يورد ابن اياس خبرا من أخبار يوم الثلاثاء من مستهل شهر رجب يقول : ثم إن الوالي قبض علي أمرأة يقال لها أنس في الازبكية تجمع عندها بنات الخطا اللاتي يعملن الفاحشة، وكان عليها مبلغ مقرر توورده كل شهر للوالي وكان امرها مشهورا فرسم ملك الامراء بتغريقها هي وامرأة اخري يقال لها بدرية، زوجة أحد من الناس يقال له البغيضى، كانت ماشيه في طريقة أنس هذه في جمعها البنات الخطا، فلما قبض الوالي علي أنس توجه بها الي قصر ابن العيني الذي في المنشيه وغرقها هناك بعد العصر، فاجتمع الجم الكثير من الناس بسبب الفرجة عليها وكان يوما مشهودا، فغرقت علي النداء والاجهار، واراح الله تعالي المسلمين وطهرت الارض منها.

والواضح من سياق ابن اياس أن الوالي أمر بإغراق المرأة ليس لكونها تنشر الفسق والفجور إنما لانها - لابد - قد تراخت في دفع الضريبة المقررة عليها، وإلا فلماذا لم يغرق بدرية هي الأخري ؟!

في شهر جمادي الأخر من العام المذكور أرسل السلطان سليمان جماعة من العسكر بصحبتهم شخص من العثمانيه يزعم أنه قاض من

قضاه ابن عثمان وعلي يده مراسيم من عند السلطان سليمان بأن يستقر في وظيفة يقال لها القسام، وموضوع هذه الوظيفة أن يكون متحدثا علي جميع الترك قاطبة الأهلية وغير الأهلية، ولا يعارضه أحد من الناس في ذلك، ويأخذ مما يتحصل من كل تركة العشر لبيت المال الاهلية وغير الأهلية، ومن مضمون مراسيمه أن لا أحد من المماليك الجراكسة وأولاد الأتراك قاطبة وأرباب الدولة والأصباهية والإنكشارية يعقد عقداً علي بكر أو ثيب الا عند القسام ويأخذ علي عقد البنت ستين نصفا، والثيب ثلاثين نصفا. فأخذ قسائم علي قضاه القضاه بذلك فاضطربت أحوال الناس ولم يتعصب أحد من قضاه القضاه لمنع ذلك عن المسلمين، وقد خافوا علي مناصبهم من العزل وتغافلوا حتي ضعفت شوكة الإسلام في أيامهم وإستطالت قضاه الروم عليهم وفي أواخر هذا الشهر حضر أولاق من اسطنبول في البحر المالح الي الإسكندرية، ثم قدم إلى مصر وطلع إلي ملك الأمراء وعلي يده مرسوم من عند السلطان ابن عثمان، فكان من مضمونه أن الواصل إلي الديار المصرية الذي يسمي سيدى جلبي هو أعظم قضاة السلطان سليمان وأكبرهم، وأن السلطان سليمان رسم *بإبطال القضاه الأربعة الذين بمصر، ويصير قاضى العسكر الذي هو قادم يتصرف في الأحكام الشرعية علي المذاهب الأربعة.. الخ الخ.

ويبدو أن قاضى العسكر هذا كان مشغولا بأمر نساء مصر انشغالا شاذا، فقد أشيع عنه قوله : قصدى أمشى نساء مصر علي قاعدةنساء اسطنبول مع ازواجهن، فإن عادتنا إذا دخل الرجل علي زوجته تعطيه نصف المهر الذي اعطاه لها، وأن الرجل لايقرر لزوجته لا كسوة ولا نفقة بل يكسيها في كل سنة جوخا وقميصا ويطعمها في كل يوم علي ما يختار من قليل وكثير، وتغزل وتكسي زوجها كل سنه، فلما سمع العوام ذلك فرحوا ودعوا لقاضى العسكر بسبب هذه الواقعة، واغتم النساء بذلك.

وفي يوم الخميس من شهر رجب من نفس العام نودي في القاهرة علي لسان ملك الامراء وقاضى العسكر، بإن لا امرأةتخرج إلي الأسواق إلا العجائز، وكل من خالف بعد ذلك من النساء تضرب، وتربط من شعرها بذنب أكديش، ويطاف بها في القاهرة.

بعد ذلك بأيام اتفق أن قاضى العسكر طلع الي القلعة، فوجد نسوة يتحدثن مع جماعة من الأصباهية في وسط السوق، فعز ذلك عليه، فلما طلع إلي القلعة قال للملك الأمراء إن نساء مصر أفسدت عسكر الخنكار، ولا بقوا ينفعون لقتال قط، وقص عليه قصة النسوة مع الأصباهية، فتغير خاطر ملك الأمراء علي النساء قاطبة، ورسم للوالي بأن لا إمرأة تخرج من بيتها مطلقا، ولا تركب علي حمار مكاري مطلقا ، وكل مكاري أركب أمرأة شنق من يومه من غير معاودة في ذلك، فباعت المكارية حميرها قاطبة واشتروا عوضا عنهاأكاديش.

ولم يكتف بذلك، بل حرم علي صناع الأحذية صنع أحذيه الحريم، وكان فيما يصفه ابن اياس أعور العين طاعنا في السن أجهل من حمار.

إلا أن أيامه في القاهرة لم تطل، فسرعان ما انتقل الي مكة.

ويوم سفره شهدت الأزبكية أبشع وأبهج وأخطر يوم في حياتها علي الاطلاق : خرجت نساء الأزبكية جميعهن شبه عاريات حافلات، مضين في شوارع القاهرة في مظاهرة تستقطب النساء في كل خطوة وهن يرقصن ويغنين في تبرج وخلاعة :

قوموا بنا نقحب ونسكر   قد خرج عنا قاضى العسكر

صارت المظاهرة النسائية السافرة تخترق الشوارع والطرقات والحواري في صخب هائل يصل فيه اللهو الي صورة جنونية مطلقة، نساء الازبكية المحترفات لهن انداد محترفات، وثمة اخريات لديهن الرغبة في الفجور ويمنعهن الحياء من اعلانها هؤلاء وأولئك إنضممن إلي المظاهرة العارمة وسط الرجال والشبان والصبيان. يبدأ العري برقصة مشهورة من رقصات الغوازي اسمها رقصة النحلة، حيث تتمثل الراقصة وجود نحلة تحت ثيابها تقرصها، فترد بتأوهات ناعمة مثيـــرة «النحلة أوه.. النحله أيوه» ثم تبدأ في خلع الثياب متقصمه لدي كل قرصة مفترضة، إلي أن تتعرى تماما، طافت المظاهرة بشوارع القاهرة ثم انتهت الي بركة الأزبكية حيث أبيح لكل واحد أن يفعل ما يشاء وهو موقن أن الجميع لاه عنه في فعله هو الآخر.

وبات الجميع ليلتهم تلك علي هذا النحو حتي الصباح، قيل إنهااستمرت بضع ليالى حمراء قانية.

ومن المعروف أن نساء الأزبكية هؤلاء كن من جنسيات مختلفة تم جلبهن خصيصا لمزاولة هذه المهنة.

وطوال العصر العثماني ظلت الأزبكية علما علي الفسق والدعارة، واشتهرت فيها بيوت وعاملات دخلت ودخلن في أدبيات تلك الفترة في شعر الهجاء والأغنيات الشعبية الإنتقادية، ومن أشهر البيوت بيت كويك، ومن أشهر العاملات شعيرا، وسعودا، وأن خزام وغيرهن كثيرات.

وحتي في الأزمنة الحديثة، أيام الإحتلالين الفرنسي والانجليزي، استمرت منطقة الأزبكيتعلي حالها ولكن في انكماش ومن وراء ستار، خاصة في درب طياب، غير أن بعض الشباب الوطنيين كانوا يستخدمون بيوت هذه المنطقة وعاملاتها للإيقاع بجنود الاحتلال الباحثين عن المتعة.

وعلي الرغم من زوال كل هذه الأزمنة البغيضة بأفاعيلها التي رفضها الشعب المصري فإن منطقة الأزبكية، أو ما يسمي بـ وش البركة، ظلت موصومة بالعار حتي يومنا هذا، فأن تذكر اسم شارع كلوت بك أو اسم وش البركة أو الوسعة فإن المستمع - من جيلنا علي الأقل - لابد أن يقشعر بدنه من هول ما كان يسمع عن هذه المنطقة في الأزمنة الخسيسة.

المجد للمجاذيب وأهل الهوى

لعل من أهم المنشئات الباقية في حي الزبكية، جامع الرويعي، وتجاهه ضريح الشيخ أحمد الرويعي، نفر كبير من العامة يتبركون بهذا الضريح ويلتمسون وساطته في حل ما تعقد من أمورهم، مع أن السيد أحمد الرويعي - وإن لقب بالشيخ - لم يكن في يوم من الأيام وليا، إنما كان رئيس التجار بمصر في القرن التاسع الهجري، لهذا كان ميسور الحال، وأي رجل ميسور الحال، في مصر كان يتجه نظره إلي بناء مسجد يلحق به ضريح له يستفيد من كثرة الصلاة حوله باستمرار، ولكن من المفارقات المؤلمة أن الفرنسيين أثناء الاحتلال حولوا مسجده إلي خمارة.

رغم سوء سمعة وجه البركة فإن عائلات الطبقة الأرستقراطية لم تكن لتتخلي عن هذا الموقع البديع ليستقل به رهط من الرعاع والأوباش وتجار الأعراض من كل ملة، فظلت القصور الضخمة ذات الحدائق

المورقة الوارفة تحيط ببركة الأزبكية من جميع الجهات، وخاصة من جهة وجه البركة، يقيم فيها عائلات لهم احترامهم ومكانتهم الإجتماعية والعلمية والحكومية.

من هذه العائلات عائلة الشرايبي، وكان قصرها في وجه البركة من أفخم وأضخم القصور في زمنه، وشأن معظم وجوه القوم في ذلك الزمان قام قاسم ابن محمد داده الشرايبي ببناء مسجد في شارع الرويعي، يعرف الآن ومنذ وقت طويل بجامع البكري، فلماذا سمي بهذا الإسم ؟

تم بناء هذا المسجد عام ١٧٢٦م - في قول - وسنه خمس وأربعين ومائه وألف للهجرة في قول آخر لعلي مبارك في خططه التوفيقيه.

وفي أوائل التسعينات من ذلك القرن شاع ذكر رجل مجذوب تماما يدعي علي البكري. يقول الجبرتي، أقام سنينا متجردا ويمشى في الأسواق عريانا كما ولدته أمه، ويخلط في كلامه، وبيده نبوت طويل يصحبه معه في غالب أوقاته، وكان يحلق لحيته وللناس فيه إعتقاد عظيم، وينصتون إلي تخليطاته ويوجهون ألفاظه، ويؤولونها علي حسب اغراضهم ومقتضيات أحوالهم ووقائعهم، وكان له أخ من مساتير الناس، فحجر عليه ومنعه من الخروج، ألبسه ثيابا، ورغب الناس في زيارته، وذكر خوارق كراماته ومكاشفاته، فأقبل الناس عليه من كل ناحية، وترددوا لزيارته من كل جهة، وأتوا اليه بالهدايا والنذور وجروا علي عوائدهم في التقليد وازدحم عليه الخلائق وخصوصا النساء فراج

بذلك أمر أخيه واتسعت دنياه، ونصب شبكه لصيده ومنعه من حلق لحيته فنبتت وعظمت، وسمن بدنه، وعظم جسمه من كثرة الأكل والراحة، وقد كان قبل ذلك عريانا شقيانا يبيت غالب لياليه بالجوع، طاويا من غير أكل بالأزقة في الشتاء والصيف، وقيد به من يخدمه ويراعيه في منامه ويقظته وقضاء حاجته، ولا يزال يحدث نفسه، ويخلط في ألفاظه وكلامه وتارة يضحك، وتارة يشتم، ولابد من مصادفة بعض الألفاظ، لما في نفوس بعض الزائرين، وذوي الحاجات، فيعدون ذلك كشفا واطلاعا علي ما في أنفسهم وخطرات قلوبهم، وسبب نسبتهم هذه - البكرية - أنهم كانوا يسكتون سويقة البكرية لا أنهم من البكرية، ولم يزل هذا حاله إلي أن توفي سنة سبع ومائتين وألف للهجرة، واجتمع الناس لمشهده من كل ناحية، ودفنوه بمسجد الشرايبي بالقرب من جامع الرويعي في قطعة من المسجد، وعملوا علي قبره مقصورة ومقاما يقصد للزيارة واجتمعوا عند مدفنه في ليالي وميعادات مع قراء ومنشدين، وتزدحم عنده أصناف الخلائق ويختلط النساء بالرجال، ومات أخوه أيضا بعده بنحو سنتين.

وهكذا الحال دائما في بلادنا العربية : الأبنية العظيمة يشيدها الصفوة الأجلاء، ويرث أمجادها المجاذيب والتافهون والدخلاء

ومن مشاهير سكان وجه البركة ذوي القصور الفخمة، الشيخ عبد الله الشبراوي، المتوفي سنة خمس وخمسين وسبعمائه والف للميلاد،

والذي تولي مشيخة الازهر في عصره، كان قد ورث عن والده ثروة ضخمة، فابتني لنفسه قصرا فخما بالقرب من جامع الرويعي، زوده بجميع ألوان العز والترف كأكابر الأمراء والأثرياء.

في عصره سقطت هيبة العلم بوجه عام، ولعله ذلك العصر الذي هجاه وهاجم علماءه الشيخ يوسف الشربيني في كتابه الهزلي الفذ (هز القحوف في شرح قصيد أبى شادوف) حيث انصرف جانب كبير منهم إلي اللهو والترف، فتخلفوا في مجالات العلم، واقتصر دورهم علي شرح المعلقات القديمة بألفاظ عتيقة، وقد أخذ عليهم الشربيني غيبوتهم في بلهنية من العيش فيما ترزح الشعوب العربية تحت نير الحكم العثماني والمملوكي والفرنسي.

ولم يكن الشيخ الشربيني متجنيا في هجائه رغم قسوته الناريه، فالجبرتي مؤرخ ذلك العصر - إبان الإحتلال الفرنسي - يدين رجال الازهر الشريف لهذا السبب نفسه، بل يدينهم أخلاقيا، إذ يقول بالنص في صفحه ٦٩ من الجزء الرابع « وارتكابهم - يعني رجال الأزهر - الأمور المخلة بالمروءة، المسقطة للعدالة كالإجتماع في سماع الملاهي والأغاني والقيان والآلات المطربة، وإعطاء الجوائز والنقوط بمناداة الخلبوص وقوله بمسمع من النساء والرجال وعوام الناس وخواصهم برفع الصوت الذي يسمعه القاصى والداني، وهو يخاطب رئيسة المغاني : يا ستي حضره شيخ الإسلام والمسلمين، مفيد الطالبين، الشيخ العلامة

فلان، منه كذا وكذا من الذهب، قدر مسماه كثير وجرمة قليل، نتيجة التفاخر الكاذب،والإزدراء بمقام العلم بين العوام وأوباش الناس الذين اقتداو بهم في فعل المحرمات الواجب عليهم النهي عنها كل ذلك من غير احتشام ولا مبالاة مع التضاحك والقهقهة المسموعة من البعد في كل مجمع، ومواظبتهم علي الهزليات والضحكات.. »

ولما كان عبد الله الشبراوي في ريعان الشباب فإنه دائم التجوال بين ملاهي الازبكية ومراقصها، ولم يكن يتورع عن الإضطجاع علي الحشائش بين الحسان والقيان، وفي الليالى المقمرة، فيما يذكر محمد سيد كيلاني - يجد مع اترابه جو ساحرا فاتنا للهو المرح واللعب - وللشبراوي ديوان شعر كامل ينضح بالإنحلال، ويعده المؤرخون علي قائمة من يسمونهم بأدباء وجه البركة.

من شعر الشبراوي :

ألا إن ديني فاعلموه هو الهوي　　وموتي شهيدا في الصبابة مذهبي

ومنه أيضا :

وأصبو إلي الوجه الجميل إذا بدا　　وأسخط من ذكر السلو وأغضب

وعشق القدود الهيف عندي عقيدة　　وطبع عليه قد ربيت.. ومذهب

قضى الله أن الحب أعلي فضيلة　　وأن الهوي أحلي نعيما وأعذب

ومنه كذلك :

عانقته فاسودت المقـل التي　　هي بلوتي واحمرت الوجنـات

وضممت قامته فخلت كأنهــا قد عجلــت لذاتهــا الجنــات

يا قلب إن زعم العوازل أنــه في الحسن يوجد مثله قل هاتوا

مازلت أجني من لذيذ خطابه تحفا لها مـن طيبه نفحـات

وبلغت قصدي حيث جاء لمنزلي هذا الغزال ورقـــت الأوقــات

ودنا يودعني فلا وأبـيك مـا بقيت لدي التوديــع في حياة

المصيبة أن هذا الشعر قد وجد سبيله إلي المغنين والمنشدين في ذلك العصر فذاع علي حناجرهم ذيوعا مدهشا، قبل أن يطبع في ديوان ينشر علي الناس، ويورد المؤرخون نصوصا كاملة منه، للتدليل علي ما وصل إليه الحال من تهتك.

يصل الشبراوي إلي قمة الفجور والفسق حين يجاهر في إحدي قصائده بما يلى :

أبدلت فيه تنسكي بتهتكي وأخذت مـن قول العدو بضـده

ولم يكن الشبراوي فريد عصره في ذلك، بل هناك أزهري أخر من أدباء وجه البركة يدعي إسماعيل الظهوري المتوفي سنه ١٧٥٩، يقول فى إحدي قصائده :

هل العيش إلا في ارتكاب مآثم أو العمر إلا في اقتناء محـارم

أو الغنم إلا في ارتكاب كبيرة أو السكر إلا في ارتشاف مباسـم

سقي الله أيام البطالة أدمــعا من العين تجري كالغيوث السواحم

ويشير الأديب محمد سيد كيلاني إلي انتشار نفر ممن يدعون التصوف والدروشة في حدائق وجه البركة، يرتكبون المعاصى جهاراً نهاراً ولم يستطع أحد أن يتعرض لهم بسوء، إذ كانوا قوة يخشى بأسها، بل كانوا يجدون من يدافع عنهم من ذوي النفوذ الديني، مثل الشيخ الشعراني، المتوفي حوالي تسع وستين وخمسمائه وألف، حيث قال في معرض الدفاع عن سلوكهم إنه لابد للمعاصى من فاعل، وإنه يجب السكوت عن مفاسدهم وعدم التعرض لهم بالنقد، لأن نقدهم والتعرض لهم باللسان حرام وجالب لغضب الله !!

ويذكر الجبرتي أن عبد الله جاك مينو، القائد الفرنسي الشهير، خرج ذات يوم متجولا في شواع الأزبكية، فرأى أحد الدراويش يسير متجردا من ملابسه فوجه سؤالا إلي شيوخ الأزهر عن حكم الإسلام فيمن يسيرون في الأسواق ويكشفون عوراتهم ويصيحون ويصرخون ويدعون الولاية وتعتقدهم العامة ولا يصلون صلاة المسلمين ولايصومون، فأجابوه بأنه حرام ومخالف للدين والشرع والسنه، فأمر مينو يمنع هؤلاء الناس من السير علي ما اعتادوا، وإلقاء القبض علي كل من يخالف هذا الامر ووضعه في المارستان إن كان مجنونا، أو إخراجه من القاهرة إن كان عاقلا.

وكان بعض هؤلاء الدراويش - يقول الكيلاني - مخنثين، يخضبون أيديهم وأرجلهم بالحناء، ويلبسون الثياب الزاهية الألوان ويكحلون عيونهم بالكحل الأسود ويمضغون اللبان، ويتعرضون للناس ويمسكونهم

من مواضع حساسة من أجسامهم، ويختلون بهم فى أماكن مظلمة في وجه البركة، وفى الأزقة والخرائب والحدائق، سيما وأن الشوارع لم تكن تضاء في ذاك الزمن.

ومن طريف ما يرويه سيد كيلاني أن الصوفية الذين أدخلوا مادة الحشيش المخدر إلي مصر في القرن الثالث عشر الميلادي وأشاعوا استعمالها بين المصريين هم كذلك أول من أدخل شراب القهوة إلي مصر في القرن الخامس عشر الميلادي، وكان أول مكتشف لها هو أبو بكر بن عبد الله المعروف بالعيدروس، حيث مر في إحدي سبحاته بشجر البن فأكل من ثمرة فوجد فيه تجفيفا للدماغ واجتلاباً للسهر وتنشيطا للعبادة فاتخذه قوتا ونصح به اتباعه فانتشر في اليمن والحجاز ومصر، وقد جاء العيدروس إلى مصر حوالي سنة ست وثمانين وأربعمائه وألف للميلاد. ومثلما اختلفوا في أمر الحشيش هل هو حرام أم حلال، إختلفوا في أمر القهوة، ودارت مجادلات حامية بين المؤيدين والمعارضين استمرت زمناً طويلا دون أن يخفت لها أوار، كأنها من كبريات المسائل الفقهية، وساهم الأدباء والشعراء في المعركة قال أحدهم :

يا عائبا لشراب قهوتنا التي   تشفي شفاء النفس من أمراضها
أو ما تراها وهي في فنجانها   تحكي سواد العين وسط بياضها

وقال غيره

للبن سر ما حكته شيوخنا   يا نعم منه كلهم أقطاب

فيهم نقول وقد تكامل وصفه | في أكله نفع وفيه ثواب
وقال أخر :
وقهوة بن تورث اللب قــوة | ومن عجب والقشر أصل وعنبر
ومهما أرادت عصبه منع شربها | تري أمرها يعلو ويقوي ويظهر
وأعجب منها قول من ضل رأيه | بلي عرف الحق الصراح وينكر
يكابر فيها الحق والله شاهــد | فيزعم فيها أنها الحس تسكر
تحقق فيها النفع لا سيما لمــن | عن الجد في فعل العبادة يفتر

وفي نهاية القرن السادس عشر الميلادي انعقد الاجماع علي تحليلها، وكانت وجه البركة أول منطقة تفتتح فيها المقاهي، فجميع الأحياء قد أنف سكانها من فتح مثل هذه المحلات كأنها بيوت الدعارة وقد اتخذت مقاهي وجه البركة أساليب لجذب الرواد، كاستئجار الفتيات الجميلات من بنات الهوي يرقصن قصه هز البطن، عاريات. وكان كل هولاء - أصحب المقاهي والفتيات - من طائفة الغجر والجعيدية المنتشرة في وجه البركة، وهذه المقاهي لها السبق في الاستعانة برواة القصص وشعراء الرباب لتسلية الرواد ولأن الأثمان كانت ضئيلة فقد اجتذبت هذه المقاهي معظم الطبقات الشعبية، وفي ذلك الوقت نشأت ملحمة الظاهر بيبرس البالغة - بعد التدوين - سبعة الاف صفحة، كما نشأت ملاحم شعبية وحكايات كثيرة عن مصارع العشاق، إنتشر كذلك شرب التبغ، الذي دخل مصر لأول مرة سنه ١٥٩٥ - ١٠٢٠ هـ كما

ذكر الإسحاقي في تاريخه، وبانتشاره قامت معركة حامية الوطيس بين مؤيد ومعارض، صدرت بشأنه أوامر المنع والتحريم، لكن الأمر الواقع - دائما - هو القانون الباث الحاسم، ظلت المقاهي والحانات ومحلات البوظة تسهر حتي الصباح، بل انتشرت مصانع الخمر في شارع القبيلة بوجة البركة غير أن أصحابها ومروجيها كانوا من اليونانيين والقبارصة المعروفين في مصر بالأروام.

من قصر العتبه الخضراء
إلــي البقــــر الســـارح

فى أواسط القرن الثامن عشر الميلادي كان الأمير رضوان كتخدا الجلفي وجهاً بارزا من وجوه الحكم ورجال السياسة، والمجتمع. يعرفه الجبرتي بأنه مملوك من مماليك علي كتخدا الجلفي، تقلد كتخدائية باب عزبان بعد قتل أستاذه بعناية عثمان بك ذو الفقار، ولم يراعي لعثمان بك حقه وجميله حتي أوقع بينهم إبراهيم كتخذا ولما استقرت الأمور له ولقسيمه ترك له الرياسة في الأحكام واعتكف رضوان علي لذاته وفسوقه وخلاعاته وترهاته، وأنشأ عدة قصور وأماكن بالغ في زخرفتها وتأنيقها وخصوصا داره التي أنشأها علي بركة الازبكية، وأصلها بيت الدادة الشرايبي، وهي التي علي بابها العامودان الملتقان المعروفة عند أولاد البلد بثلاثة وليه، وعقد علي مجالسها العالية قبابا عجيبة الصنعة منقوشة بالذهب المحلول اللازورد والزجاج الملون والألوان المفرحة

والصنائع الدقيقة، ووسع قطعة الخليج بظاهر قنطرة الدكة بحيث جعلها بركة عظيمة وبني عليها قصرا مطلا عليها وعلي الخليج الناصري من الجهة الأخري، وكذلك أنشأ في صدر البركة مجلسا خارجا بعضه علي عدة قناطر لطيفة، وبعضه داخل الغيط المعروف بغيط المعدية وبوسطة بحيرة تمتلىء بالماء من أعلي ويصب منها إلي حوض في أسفل ويجري إلي البستان لسقي الأشجار، وبني قصرا آخر بداخل البستان مطلاً علي الخليج وعلي الأعلاق من ظاهرة، فكان ينتقل في تلك القصور وخصوصا في أيام النيل، ويتجاهر بالمعاصى والراح والوجوه الملاح وتبرج النساء ومخاليع أولاد البلد، وخرجوا عن الحد في تلك الأيام ومنع أصحاب الشرطة من التعرض للناس في أفاعيلهم فكانت مصر في تلك الأيام مراتع غزلان وموطن حور وولدان كأنما أهلها خلصوا من الحساب ورفع عنهم التكليف والخطاب، وهو الذي عمر باب القلعة الذي بالرميلة المعروف بباب العزب وعمل حوله هاتين البدنتين العظيمتين والزلاقة علي هذه الصورة الموجودة الآن، وقصدته الشعراء ومدحوه بالقصائد والمقامات والتواشيح وأعطاهم الجوائز السنية وداعب بعضهم بعضا فكان يغري هذا بهذا يضحك منهم ويباسطهم، واتخذ له جلساء وندماء منهم الشيخ علي جبريل والسيد سليمان والسيد حمودة السديدي والشيخ معروف والشيخ مصطفى اللقيمي الدمياطي صاحب المدامة الأرجوانية في المدائح الرضوانية، ومحمد افندي المدني وامتدحه

العلامه الشيخ يوسف الحفني بقصائد طنانة، وللشيخ عمار القروي فيه مقامة، ولم يزل رضوان كتخدا وقسيمة علي إمارة مصر ورئاستها حتي مات إبراهيم كتخذا فتداعي بموته ركن رضوان، ورفعت النيام رءوسها وتحركت حفائظها ونفوسها، وظهر شأن عبد الرحمن كتخدا القازدغلي وراج نفاقه، وأخذ يعضد مماليك إبراهيم كتخدا ويغريهم ويحرضهم علي الجلفية، وبالفعل نجحت المؤامرة وتم اغتيال رضوان كتخدا إذ مات متأثرا بجراحه وهو في طريق الهرب إلي الصعيد، فدفن بشرق أولاد يحيى وكان ذلك عام ١٧٧٥ م.

أحد قصور الأمير رضوان كتخدا كان يحتل ميدان العتبه كله، وبعد موته تم نهب قصوره كلها، حتي المباني أصبحت ملكيتها تنتقل من يد إلي يد، حتي دخل هذا القصر المذكور في حوزة الخديوي عباس باشا الأول، فأعاد بناؤه وسماه قصر العتبه الخضراء، فحظى الإسم بشهرة كبيرة في جميع أنحاء البلاد، فكان كل ذاهب إلي هذه المنطقة يقول إنه متوجه نحو العتبة الخضراء، ورغم أن الزمن قد جار علي قصر العتبة الخضراء فأزيل كما أزيلت عشرات القصور، فإن مكانه تحول إلى ميدان كبير عرف بميدان العتبة الخضراء.

وحي الازبكية من الأحياء القليلة التي تجاور فيها الفسق والفجور مع الصلاح والتقوي، فعل الرغم من سوء سمعتها بسبب استفحال خطر الطبقات المرفهة التي حرصت علي توفير شتى ألوان المتع لنفسها علي

حساب كل القيم والتقاليد، فإنها شهدت قيام عدد كبير من المساجد ودور البر والاحسان، وإلي جوار الطبقات المرفهة ذات الذيول النجسة التي سكنت حي الأزبكية، هناك العائلات المحترمة المؤمنة الحريصة علي طهرها مثل عائلة الشرايبي وعائلة الرويعي، والعائلة البكرية، المنسوبة إلي أبي بكر الصديق رضى الله عنه وأرضاه، يذكر محمد سيد كيلاني أنها كانت لها عدة قصور ضمة علي البركة فكان الأدباء والشعراء المصريين والأجانب يسعون اليها ويقفون بعتباتها حيث يجدون من كرم أصحابها الشيء الكثير، وممن زاروا البكريين ونزلوا في ضيافتهم عبد الغني النابلسى من رجالات القرن السابع عشر، حيث قال: ولم نزل سائرين إلي أن وصلنا إلي منزل الهمام بركة الأنام الشيخ زين العابدين البكري الصديقي فتلقانا بصدره الرحيب وجلست عند حضرته حصة من الزمان في مجلسة المطل علي بركة الأزبكية ذات الروح والريحان، التي فيها نفحة من نفحات الجنان، وتذاكرنا معه في بعض المسائل العلمية والمطارحات الأدبية، وقد أنزلنا الشيخ في دار لصق داره بحيث لم نخرج من ظله وجواره.

وقال :.. كان الشيخ زين العابدين قد دعانا في ذلك اليوم إلي ضيافته وكان المجلس حافلاً بأفاضل العلماء وأعيان الكبراء، وحضر السماع وتحركت الآلات وسكنت النفوس والأصوات ولم تزل في ابتهاج وسرور، ومؤانسة وحضور حتي مدت الموائد وجرت العوائد، وكان ذلك

في المجلس المطل علي بركة الأزبكية، ثم بعد صلاة المغرب بالجماعة فتح باب هاتيك القاعة، فدخلنا من دهليز مفروش بأنواع الأحجار، وقد أوقدت الشموع حتي كان ذلك الليل كأنه النهار، فوصلنا إلي ميدان مفروش بالرخام والمرمر فى ألوان كأنه قلائد العقيان، وهناك أيوان يقابله آخر أوسع من صدر الكرام وأجمل من صفحات الوجوه، وأعطر من الزهر في الأكمام، ورأينا الثريات من القناديل المشغولة ما تبقي ببهجته النفوس والعيون مشغولة، وأطلقت مباخر العود، وقامت مراسم الشهود، إلى أن قطعنا حصة من مسافة الليل، وتقلص ضوء الثريا فشمر للمغيب الذيل، فقدمت المآكل السكريات، والحلاوات الشهيات، ثم قدم العود والعنبر المشهور، وانهل مطر ماء الورد من تحت غيم النجم، وقد تفرق الجمع ووقف نور اللمع

الأزبكية إذن كانت حقلا فنيا بمعني الكلمة، فثمة صلة تاريخية بينها وبين الفن من وقت ضارب في القدم، أي أن شارع عماد الدين - هو جزء أصيل من حي الأزبكية - حينما أصبح شارع الفن في القاهرة في العصر الحديث لم يكن ذلك نابعا من فراغ، وقيام مسرح الأزبكية جاء اختيار موقعه من ذلك الرباط التاريخي بين الأزبكية وازدهار الفنون، خاصة فن الغناء والموسيقى علي وجه التحديد. ففي هذا الحي نشأ ونما وترعرع كثيرون من المغنين والعازفين والشعراء، بسبب ما أسبغته بركة الأزبكية علي الحي من اجواء ملائمة للسمر والأنس، وفي

كتابه الجميل عن هذه المنطقة يشير الأستاذ محمد سيد كيلاني إلي معلومة مهمة جدا، نقلها عن مصادر تاريخية موثوقة تقول إن نهضة الغناء المصري ترجع إلي نهاية القرن السابع عشر، حينما جاء إلي القاهرة الملحن الشامي المشهور شاكر الحلبي، فهو الذي علم المصريين فن التلحين وكانوا يجهلونه جهلا تاما، ويقول إن المصريين رحبوا بالشيخ شاكر وأكرموا مثواه ونقلوا عنه هذا الفن بشغف كبير، ولكن الذي ساهم في انتشار فن الغناء بحق هو كثرة الموالد في مصر، وظهور فئه المواليه والمنشدين وانتشارهم في القرى لأحياء حلقات الذكر والأفراح، إضافة إلي مقاهى الأزبكية التي ازدادت كثافتها وكان الغناء عنصرا اساسيا فيها، وثمة أغنيات وموشحات من عصر الازبكية لا تزال مشهورة حتي اليوم كلاما وألحانا، ولعل الجدير بالذكر هنا هو أن الموشح الشهير (وحقك أنت المني والطلب) الذي غني عبد الحليم حافظ صورة عصرية منه، قد الفه الشيخ عبد الله الشبراوي المذكور أنفا، من بين أغنيات وموشحات كثيرة ألفها لملحني ومطربي عصره، وأصل كلماته التي كتبها الشبراوي يقول :

وحقك أنت المني والطلب   وأنت المراد وأنت الأرب
ولي فيك يا هاجري صبوه   تحير في وصفها كل صب
أبيت أسامر نجم السما   إذا لاح لي في الدجي أو غرب

وهذه لا شك كلمات في غاية الرقة والجمال، تعتبر بالقياس إلي ما نسمعه اليوم من غثاء مثلا رفيعا يعجز دونه شعراء الأغاني.

ولم يكن الشيخ الشبراوي، الأزهري المعمم، يكتب أغنياته بالفصحى فحسب، بل كتبها إلي ذلك بالعامية الراقية، مثل أغنية :

والله مليح وجميل وكامل الأوصاف　　وأنا أحبه ملو قلبي وأهـواه
لطيف ظريف الشكل مالوش مثيل　　في رقته أما كلامه ما أحلاه

ومن أغنياته أيضا :

شفته علي غفله قوي حبيته　　أسـمر ومن طبعي أحب الأسمر
مَيِّلت ناغشته لقيت له رقـه　　ولطف زايد والبشاشه أكثـر
يا أهل الأدب والله وحق المختار　　ما شفت عمري في الجمال مثله
قمر مصور ما نظرتش حسنـه　　في حد من بعده ولا من قبله

ومن الواضح الآن أن الشيخ عبد الله الشبراوي هو رائد هذا اللون من الأغنيات الذي اقتفاه من بعد أحمد رامي وأضرابه.

ويضيف الكيلاني أن فن خيال الظل ظهر لأول مرة، أو لعله تمركز في مقاهي الأزبكية، ثم أصبح فنا شعبيا شهيرا، وكان يقدم مسرحيات هزلية في بداية ظهوره، تخاطب الغرائز السفلى، كانت تسمي البابات، مفردها بابة، ثم تطور بعد ذلك فصار يقدم بابات تتضمن الوعظ والإرشاد والتوجيه والتحريض، ومن مؤلفيه المشهورين إبن دانيال المصري.

وحيث تنتشر دور اللهو والمطاعم والمقاهي، ينشأ حولها الباعة الجائلون من مختلف الأنواع، وتقوم المحلات لتجذب جمهور الرواد للشراء، فقام البقالون والزياتون والعطارون والقصابون والفطايريون

والحدادون والسمكرية والفرانون والفاكهيون والكبابجية، أصبحت الأزبكية سوقا صاخبا يثير البهجة والونس. وحيث يوجد كل هذا، ينتشر كذلك اللصوص والمحتالون والنصابون، ولقد تمركز في الازبكية عدد كبير من كل هؤلاء.

وقد اشتهرت عصابات الأزبكية شهرة فائقة، ورددت الأخبار في يوميات وحوليات المؤرخين ألاعيبهم وفنونهم، أما ملحمة الظاهر بيبرس ولمحة علي الزيبق المصري فقد صورتا هذه البيئة اللصوصية الإحتيالية أبدع تصوير.

في ملحمة الظاهر بيبرس يأمر رئيس طائفة اللصوص وقطاع الطرق - واسمه مقلد - بأن يأتي له بهذه الطائفة بين يديه، قال الراوي : فقال مقلد هات يا عثمان طائفة طائفة، فعرض عليه النساء أرباب الحبر فقال بيبرس ما هؤلاء يا أبي ؟ قال هذا بقر الوحش لهم بيوت في الحارات تطلع الواحده منهن تحط عينها علي الرجل الذي تراه ملآنا بالمال والملابس فتسايره حتي يروح معها الي بيتها وتسقيه الخمر حتي يغيب فيطلع خديها ويضع علي فمه مخده ويقعد عليه حتي تخمد أنفاسه وبعدها يواروه بحفرة في بيتها، قال بيبرس خذهم يا عثمان وأحضر غيرهم، فأحضر أرباب الملايا فقال وهؤلاء ؟ قال مقلد هذا البقر السارح تسرح الوحدة منهن حتي يقع بها واحد منحوس يدخلها بيته فتشرب الخمر هي وإياه وتضع له مع الخمر أفيون أو ما أشبه ذلك حتي لا يعود

يعي فتأخذ كل ما قدرت عليه من البيت وتطلع وتتركه مرميا : قال بيبرس خذهم يا عثمان وهات غيرهم، فأحضر ربات الأزر البيض فقال بيبرس ما هولاء ؟ فقال مقلد هذا بقر الحليب وهؤلاء يخرجون أيام الاعياد وينحشرون في الازدحام ويأخذون ما في جيوب الناس ويمرون علي التجار في صورة مشترين البعض يقلب والبعض يساوم حتي يجدوا فرصة ويسرقوا ما قدروا عليه، فقال بيبرس خذهم يا عثمان وهات غيرهم فأحضر الفتيان المرد، فلما رآهم بيبرس قال وهؤلاء ؟ قال مقلد هؤلاء علوق وحرامية، قال خذهم وهات غيرهم، فأحضر عثمان الأولاد الصغار فقال بيبرس وهؤلاء ؟ قال مقلد أولاد كار يعني ابن الكار يأخذ واحد من هولاء الاولاد ويمشي في الطريق حتي ينظر من في جيبه صره فيضرب الولد كفاً فيجري الولد ويدخل في حضن الرجل ويقول أنا في عرضك يا عم فيتشفع به ويخلصه من يد الرجل وتكون قد طارت فلوسه، قال بيبرس خذهم يا عثمان وهات غيرهم، فأحضر النساء العجائز فقال بيبرس وهؤلاء ؟ فقال مقلد يدخلون البيوت في صفحة مشيخة وهم يسرقون مع اعتقاد النساء فيهن إنهن من أهل الفضل والبركات، وبعدهم أحضر دقاقين العملة المزيفة ولعابين القمار وآكلي الربا وغيرهم، ولما عرضت هذه الطوائف علي الأمير بيبرس قال لعثمان اعرض علي الجميع التوبة فالذي يتوب لا بأس والذي لا يتوب ضع في رجله قيد حديد.

الطريف أنهم بعد توبتهم أمر بيبرس بختمهم جميعا، بواسطة الكي بالنار علي أيديهم، ليكون الختم علامة مميزة لهم، بحيث إذا ضبط أحد منهم متلبسا بفعل إجرامي بعد التوبة يقطع السيف عنقه.

وشارع العتبة الخضراء فيما تحدده الخطط التوفيقية طوله مائتان وأربعون مترا، ويبتدي من آخر شارع الموسكي وينتهي بشارع البكري، أما دار العتبة الخضراء نفسها، التي سبق أن تملكها من بعد صاحبها محمد بك أبو الدهب الذي تزوج بمحظية رضوان كتخدا، ثم تملكها غيره إلى أن آبت إلي عباس باشا، فإن بقاياها لا تزال موجودة الي اليوم ممثلة في قصر عظيم احتلته المحكمة المختلطة، والمقهي الملاصق لقهوة متاتيا، والتي يبتدي من أمامها كوبري الأزهر فيفصل بينها وبين مبني البوسته، فقد سمي بقهوة المختلط نسبه إلي المحكمة المختلطة، وحتي وقت قريب جداً - ربما من سنوات قليلة كان هذا المقهي يحتل ناصية بديعة ويطل برصيفه العريض علي ميدان العتبة، ويرتاده لفيف من رجال الاعمال وبقايا البشوات وجمهور دار الأوبرا، أما اليوم فإنه بات شيئا زريا للغاية، يحتله طوائف من تجار الشنطة وسائقي سيارات الأجرة الشغالة علي خط مصر ليبيا دقائق ولا يطيق المحترمون الجلوس فيه دقائق لسوء مستوي الرواد ومستوي المعاملة.

الألفى بيك - وسارى عسكر ..
والقصر المنحوس

شارع الألفي جزء لا يتجزأ من حي الأزبكية ومن خططها، فإذا كان جامع أولاد عنان مطلا علي بركة الأزبكية زمن إنشائها فإن قصر الألفي بك الذي أقيم في العصر الحديث كان علي نفس الشاطىء، وقد سمي شارع الألفي بهذا الإسم نسبة إلي قصر الألفى، فمن هو الألفى ؟

إنه محمد بك الألفي، يعرفه الجبرتي بأنه الأمير الكبير والضرغام الشهير، جلبه بعض التجار إلي مصر في سنة تسع وثمانين ومائة والف للهجرة، فاشتراه أحمد جاويش المعروف بالمجنون، فأقام ببيته أياما، فلم تعجبه أوضاعه، لكونه كان مما جنا سفيهاً ممازحا، فطلب منه بيع نفسه، فباعه لسليم أغا الغزاوي المعروف بتمرلنك، فأقام عنده شهوراً، ثم أهداه إلي مراد بك فأعطاه في نظيره ألف أردب من الغلالى فلذلك سمي بالألفي، وكان جميل الصورة فأحبه مراد بك وجعله جوخداره، ثم

اعتقه وجعله كاشفا بالشرقية، وعمر داراً بجهة الخطة المعروفة بالشيخ ظلام وأنشأ هناك حماما بتلك الخطة، عرفت به، وكان صعب المراس، قوي الشكيمة، وكان بجواره علي أغا المعروف بالمتوكل، فدخل عنده يوما وتشفع في أمر فقبل رجاءه ثم نكث فحنق منه واحتد ودخل عليه داره يعاتبه، فرد عليه بغلظة، فأمر الخدم بضربه فضربوه وبطحوه، فتألم لذلك ومات بعد يومين، فشكوه إلي أستاذه مراد بك فنفاه إلي بحري فعسف بالبلاد مثل فوه وبرنبال ورشيد، وأخذ من أهلها أموالا، فتشكوا منه إلي أستاذه، وكان يعجبه ذلك، وفي أثناء ذلك وقع خلاف بمصر بين الأمراء، ونفوا سليمان بك وأخاه إبراهيم بك ومصطفى بك، فأرسل اليه استاذه أن يتعين علي مصطفي بك ويذهب به إلي الإسكندرية منفيا ثم يعود إلي مصر، ففعل، فعند ذلك قلده الصنجقية، وذلك في سنة اثنتين وتسعين ومائه وألف للهجرة، واشتهر بالفجور، فخافته الناس وتحاموا به، وسكن أيضا بدار ناحية قوصون، وهدم داره القديمة، ووسعها وأنشاها إنشاءاً جديدا واشتري المماليك الكثيرة، وأمر منهم أمراء كشافا، فنشأوا علي طبيعته في التعدي والعسف والفجور، والتزم بإقطاع فرشوط وغيرها من البلاد القبلية والبحرية وتقلد كشوفية شرقيه بلبيس، ونزل إليها، وكان يغير ما بتلك الناحية من إقطاعات وغيرها، وأخاف عربان تلك الجهة ومنعهم من التعدي والجور علي الفلاحين بتلك النواحي حتي خافة الكثير من القبائل، وفرض عليهم المغارم، ولم يزل علي حالته وسطوته إلي أن حضر حسن باشا الجزائرلي

إلي مصر فخرج الألفي مع عشيرته إلي ناحية قبلى، ثم رجع في أواخر سنة خمس ومائتين وألف، وذلك بعد إقامته بالصعيد زيادة عن أربع سنوات، ففي تلك المدة ترزن عقله، وانهضمت نفسه، وتعلق قلبه بمطالعة الكتب، والنظر في جزئيات العلوم والفلكيات والهندسيات وأشكال الرمل والزايرجات والأحكام النجومية والتقاويم، ومنازل القمر وأنوائها، ويسأل عمن له إلمام بذلك فيطلبه ليستفيد منه، وأقتني كتبا في أنواع العلوم والتواريخ، واعتكف بداره القديمة، ورغب فى الإنفراد وترك الحالة التي كان عليها قبل ذلك، واقتصر علي مماليكه، والاقطاعات التي بيده واستمر علي ذلك مده من الزمان، فثقل هذا الأمر علي أهل دائرته، وبدأ يصغر في أعين خشداشيه، ويضعف جانبه، وطفقوا يباكتونه، وتجاسروا عليه، وطمعوا فيما لديه، فلم يسهل عليه ذلك واستعمل الأمر الأوسط، وسكن بدار أحمد جاويش المجنون بدرب سعادة، وعمر القصر الكبير بمصر القديمة تجاه المقياس، وأنشأ أيضا قصرا فيما بين باب النصر والدمرداش وجعل غالب إقامته فيه، وأكثر من شراء المماليك حتي اجتمع عنده نحو ألف مملوك خلاف الذي كان عند كشافه، وهم نحو الأربعين كاشفا، وبني له قصرا خارج بلبيس، وآخر بالدماميين.

وكان له داران بالأزبكية إحداهما كانت لرضوان بك بلبغا، والأخري للسيد أحمد بن عبد السلام، فبدأ له في سنه أثنتي عشرة ومائتين والف أن ينشيء داراً عظيمة خلاف ذلك بالأزبكية، فأشتري قصر ابن السيد سعودي بخط الساكت فيما بينه وبين قنطره الدكة، وهدمه وبناه وصرف

عليه الأموال الجسيمة، وازدحمت خيول الأمراء ببابه. كان يتألف من طابقين، وله أبواب ضخمة من الخشب الهندى مصفحة بالنحاس الأصفر، وأرضه مبلطه بالرخام الملون، ونوافذه معده بالزجاج الملون ومشغوله بالحديد، وللخدم قسم خاص، وللحريم جناح منفرد، والقصر كله مفروش بالسجاد الفاخر، والقناديل معلقة في كل مكان، وبه عدد كبير من الشمعدانات الواردة من بلاد الأفرنج، وكل شمعدان يتسع لمائة شمعه، وبه مخازن خاصة للمأكولات والأدوات المنزلية والأثاث والملابس، ومخازن للسلاح وأدوات القتال، ولما أنتهي إعداد القصر وأقام صاحبه احتفالا عظيما بمناسبه انتقاله اليه، فدعا الأمراء والأعيان ومدلهم سماطا هائلا حوي كل ما لذ وطاب، وأشعلت القناديل والشمعدانات، فلمافرغوا من الأكل انتقلوا إلي بهو متسع لمشاهده الراقصات وسماع المغنيات وكان ذلك البيت في أواخر شهر شعبان من السنه المذكورة، وأقام به إلي منتصف شهر رمضان، فكانت المده كلها ستة عشرة يوما، ثم بداله السفر الي جهه الشرقية

القصر كان منحوسا منذ البداية، ويبدو أن شقاء وعرق الفلاحين المصرين كان باتع السر في إفساد طالعه، ففي الأصل أنشأه واحد من فقهاء الحنفية يدعي السيد ابراهيم ابن السيد سعودي اسكندر، وجعل أسفله قناطر وبوائك من ناحية البركة، وجعلها برسم النزهة لعامة الناس، فكان يجتمع بها الكثير من أجناس الناس وأولاد البلد، وكان بها قهاو

ومغان، وعدة من الباعة وغيرها وكان يقف عندها مراكب وقوارب بها من تلك الأجناس فكان يقع بها وبالجسر المقابل لها من عصر النهار إلي آخر الليل من الحظ والنزاهة مالا يوصف.

وتقول الخطط التوفيقية : ثم تداول هذا القصر أيدى الملاك، وظهر علي بك وقساوة حكمه، فسدوا تلك البوائك ومنعوا عنها الناس، لما كان يقع بها في بعض الأحيان من اجتماع أهل الفسوق والحشاشين، ثم اشتري ذلك القصر الأمير أحمد أغاشويكار وباعه بعد مده، فاشتراه الأمير محمد بيك الألفي في سنه إحدي عشرة ومائتين وألف، وشرع في هدمه وتعميره علي الصورة التي كان عليها، وكان وقتئذ غائبا في جهة الشرقية، فرسم لكتخدائه ذي الفقار صورته في كاغد، وبين له كيفية وضعه، فحضر ذو الفقار وهدم ذلك القصر وحفر الجدران ووضع الأساس وأقام الدعائم، ووضع سقوط الدور سفليه، فحضر عند ذلك مخدومه فلم يجد علي الرسم الذي حدده له، فهدمه ثانيا وأقام دعائمه علي مراده، واجتهد في عمارته، وطلب له الصناع والمؤن من الأحجار والأخشاب المتنوعة حتي شحت المؤن في ذلك الوقت وأوقف أربعة من أمرائه علي أربع جهاته، وعمل علي ذمة العمارة ضواحين للجبس، وقمنا للجير، وأحضر البلاط من الجبل قطعا كباراً، ونشرها علي قياس مطلوبه، وكذلك الرخام، وذلك خلاف أنقاض رخام المكان وأنقاض الأماكن التي اشتراها وهدمها وأخذ أنقاضها، ومنها البيت الكبير الذي كان أنشأه

حسن كتخذا الشعراوي علي بركة الرطلي، وكان به شيء كثير من الأنقاض والأخشاب والشبابيك والرواشن، نقلت جميعها إلي العمارة، فصار كل من الأمراء المشدين يبني وينقل ويبيع ويفرق علي من أحب، حتي بنوا دورا من جانب تلك العمارة، والطلب مستمر حتي أتموه في مده يسيرة، وركب علي جميع الشبابيك شرائح الزجاج وهو شيء كثير جدا، وفي المخادع المختصة به ألواح الزجاج البلور الكبار التي يساوي الواحد منها خمسمائه درهم، ثم فرشه جميعه بالبسط الرومي والفرش الفاخرة، وعلقوا به الستائر، ووضعوا به الوسائد المزركشة وبني حمامين إلي غير ذلك.

علي أنه ما أن أتمه وأقام به نحو عشرين يوما حتي خرج إلي الشرقية فأقام هناك، وكان ذلك من سوء طالعه، لأن الفرنسيين قد حضروا فاختار ساري عسكر بونابرت هذا المقر ليقيم فيه، وعمر به هو الآخر، فلما سافر أقام فيه كليبر، وعمر فيه كذلك - يعني اضاف إلي عمارته - فلما قتل كليبر وتولي مكانه عبد الله مينو غير معالم القصر، وأدخل فيه المسجد، وبني الباب علي الوضع الذي كان عليه، وعقد فوقه القبة المحكمة، وأقام في أركانها الأعمدة، وعمل السلالم العراض التي يصعد عليها إلي الدور العلوي والسفلي علي يمين الداخل، وجعل مساكنه كلها تنفذ إلي بعضها علي طريقة وضع مساكنهم، واستمر يبني فيه ويعمر مدة إقامته، إلي إن خرج من مصر.

فلما حضر العثمانية - تقول الخطط التوفيقية - وتولي علي مصر محمد علي باشا رغب في سكني هذا المكان وشرع في تعميره هذه العمارة العظيمة، حتي أنه رتب لإحراق الجير فقط اثنتي عشرة قمينه تشتغل علي الدوام، والجمال التي تنقل الحجر من الجبل ثلاث قطارات كل قطار سبعون جملا، وقس علي ذلك بقية اللوازم، ورموا جميع الأتربة في البركة، حتي ردموا منها جانبا كبيرا ردما غير معتدل، وصارت كلها كيمانا وأتربه، وبقيت تلك السرايتسكن المرحوم محمد علي باشا مدة، ثم أعطاها لكريمته زينب هانم، فعرفت بها.

بجوار تلك السراية، التي كانت قصر محمد بك الألفي، والذي كان يمتد من حديقة الأزبكية حتي أرض شبرد، أنشأ محمد علي باشا مدرسة عرفت بمدرسة الألسن. يقول علي مبارك أنها : كانت تدرس بها اللغات العربية والفرنجية والأدبية وخرج منها كثير من المترجمين والشعراء، وفيها ترجمت كتب كثيرة أدبية من اللغة الفرنجية إلي العربية، ثم أبطلها محمد علي، وجعلها لوكاندة للإنجليز عرفت بلوكاندة شبت.

بمجيء الحملة الفرنسية، واستقرار ساري عسكر بونابرت، في قصر محمد بك الألفي، أصبحت الأزبكية هي العاصمه السياسية للبلاد واضمحل شأن الضواحي التي بناها الحكام والسلاطين من قبل لسكانهم، لم تعد موطن الأبهة ولا الفخامة، أنما صارت الأزبكية مركز أشعاع يتألق بكل جديد ومثير مما لم يعرفه مستوطنوا مصر من المماليك

والجبليان والغزاة السابقين : عني الفرنسيون بكنس الشوارع، ورشها بالماء وحرموا إلقاء القمامة أمام الدور والدكاكين، فرضوا علي كل شخص أن يضع علي واجهة منزله أو دكانه مصباحا، قاموا بتوسيع الشوارع وصنع الميادين وإزالة بعض المنازل التي تعترض خطة التنظيم. شقوا طريقا حيويا يبدأ من قصر الالفى ماراً بباب الحديد مخترقا حي الفجالة فحي الظاهر فجامع الظاهر منتهيا بميدان الحسينية ليبقي علي خريطة القاهرة حتي اليوم وقد انبهر المصريون وخاصة الجبرتي،بالنظام الذي اتبعه الفرنسيون في شق هذا الطريق، وبأدوات العمل التي كانت علي بساطتها تعتبر من مفاخر التكنولوجيا بالنسبة للمتمصرين الذين لم يألفوا رصف الطرق ولا الميكنة في العمل اليدوي الشاق، ثم زرعوا الأشجار علي الجانبين، فأصبح الطريق صالحا لمرور العربات الكبيرة حاملة المدافع والذخائر والمؤن والجنود، ثم فتحوا طريقا آخر يبدأ من قصر الألفي ايضا متجها إلي أبي العلاء في بولاق وهو كذلك لا يزال موجودا إلي الآن، شيدوا مسرحا ضخما فى أرض غيط النوبي لتمثل عليه المسرحيات الفرنسية إلتي أعتاد الفرنسيون مشاهدتها في بلادهم، يدخله الجنود بعائلاتهم، كما يقول الجبرتي « بورقه معلومة » - يعني تذكرة الدخول - « وهيئة مخصوصة » - يعني بالملابس الرسمية شيدوا كذلك مدرستين بالقرب من ميدان الخازندار لتعليم أبنائهم وبناتهم، أقاموا عددا من ورش النجارة والحدادة والسمكرة وإصلاح العدد

والآلات، أنشأوا الأندية والملاعب للترفيه عن جنودهم، أنشأوا الثكنات والمخازن للجيش.

هذا ما يذكره محمد سيد كيلاني نقلا عن الجبرتي والخطط التوفيقية لعلى مبارك، لأن منطقة وجه البركة كانت محل إقامتهم فقد عاملوا جميع سكانها معاملة طيبة للغاية، يشترون منهم المأكولات بأكثر من سعرها يدفعون بسخاء بدرجة ساهمت في إثراء الكثيرين بصورة فاحشة، حتي قام سباق رهيب بين المواطنين للسكني في هذه المنطقة بأى ثمن، خاصة الأروام والطليان، كذلك تسابق الجميع في الحصول علي شغل في الجيش الفرنسي والأعمال المدنية الخاصة بالادارة الفرنسية، فانتشر العمران في كل من حي الفجالة وحي الظاهر، ولأن الفرنسيين والفرنسيات كانوا مغرمين بركوب الحمير فقد انتشر المكاريون في وجه البركة يفتنهم منظر الفرنسيات المرحات وهن يركبن الحمير بشغف، وأصبح الإنتماء إلي الفرنسيين مفخرة المتمصرين الذين دانوا بالإسلام، في المقابل شغف الجنود الفرنسيون بنساء مصر جميعا فكان الجندي الفرنسي يذهب إلي البيت المصري فيقابل صاحبه فيعلن الشهادتين بين يديه دلالة علي دخوله في الإسلام، ثم يطلب يد ابنته، فيلقي ترحيبا كبيرا، بل إن الفتيات المصريات كن يتمنين الزواج من الفرنسيين لأنهن سينتقلن إلي حياة مرفهة مدللة، سيما وأن الفرنسيين يتعاملون مع المرأة باحترام باعتبارها نصف المجتمع لا باعتبارها أداة متعة يمتلكها الرجل.

علي أن معظم الجنود فضلوا حياة العزوبية لما فيها من حرية في معاشرة ألوان كثيرة من النساء، فنظمت الإدارة الفرنسية بيوت الدعارة تنظيما قانونيا معترفا به رسميا بفرض الرقابة الصحية علي المومسات، وتسجيل أسمائهن في كشوف معلومة ومنحهن رخصا لمزاولة المهنة بحيث لا يذهب الجندي الفرنسي إلا إلى أصحاب التراخيص الرسمية ليضمن أمرين جوهريين : عدم انتقال الأمراض إليه، وعدم التعرض للعدوان من جانب الفتوات والبلطجية الذين كانوا يستخدمون العاهرات في استدراج الجنود لكمائن، لا بدافع وطني، بل لنهب ما معه من اموال، القوادون أيضا خضعوا للتنظيم فكانوا هم المسئولين أمام الادارة الفرنسية عن أي عدوان يقع في دائرة إشراف أى من القوادين الطريف - فيما يذكر الكيلاني - أن الجندي الفرنسي كان يتوجس من البيوت الواسعة، ففرضت الادارة علي كل بغي أن تقيم ما يشبه الدكان المطل علي الشارع، ليتمكن الجندي من الهرب أو الاستغاثة إذا استشعر أي عدوان كما فرضوا علي كل بغي أن تحدد لنفسها أجرا معينا وأن تكتب التسعيرة علي واجهة مقرها وأن تضع علي باب المقر مصباحا مضيئا، الأكثر طرافة أن البغايا اللائى لا يعرفن الكتابه كانت الواحدة منهن تغمس كفها في بويه حمراء لتطبعها علي واجهة الباب فيعرف الجندي أن ثمنها خمسة أنصاف من الفضة، فإن طبعت كفيها أدرك أن ثمنها عشرة أنصاف، هذا بخلاف أجرة « الخلبوص » الذي يتولي الترحيب

والقيام بالخدمة.

ومثلما شهد قصر الألفي بك بالأزبكية مقتل كليبر علي يد سليمان الحلبي شهدت الأزبكية احتفال الفرنسيين بعيد الحرية سنه ١٧٩٨، حيث عرفت القاهرة لأول مرة عواميد المصابيح في الشوارع والميادين، ورسموا علي أقواس النصر مواقفهم الحربية ضد المماليك إذ يفروا هاربين أو مجندلين تحت سنابك الخيل، وفوق منصة عالية وقف نابليون يستعرض وحدات جيشه بملابسهم النظيفة وكامل معداتهم، في مشهد كبير حضره جميع كبراء مصر وأعيانها، حيث انطلقت الصواريخ، ولعلعت أصوات الجنود بالأناشيد الوطنيه، ثم أمضوا بقية الليل في سكر ورقص وغناء وعربدة، فبدت شواطيء بركة الأزبكية وحدائقها كسماء مرصعة بالنجوم تضج بالحيويةوالمرح والجنون، افتتن الفرنسيون برقصات هز البطن التي ابتدعتها الجواري الحبشيات والشركسيات والروميات ممن تمصرن بحكم الاقامة في ذلك الحين. كان الشيخ حسن العطار - قبل أن يتولي مشيخة الأزهر يسكن في حجرة بالقرب من الرويعي، إذ هو في الأصل من أسيوط، وجاء يطلب العلم في القاهرة، فاختلط بالفرنسيين، وخلب الجمال الفرنسي لبه، هو الرجل الصعيدي الذي أمضى صباه وشطراً من شبابه في كبت وحرمان، ما كاد يري الجمال الفرنسي وأسلوب الحياة المتحررة حتي انهارت في دخيلته كل الحواجز والتحفظات، فاندفع يعب من الحياة قدر الطاقة.

الرأي عندي أنه فنان حقيقي، بوهيمي بالسليقة، يتفوق علي قرينه الشيخ الشبراوي في القريحة الشعرية والإستعداد للإنطلاق كان يتغزل في الذكور وفي الأناث علي السواء، وفي تقديري أن شعره ليس يصلح دليلا علي سلوكه المنحرف بقدر ما هو دليل صحيح علي اشتعال قريحته الشعرية واتصالها بالتراث العربي الشعري، حيث الغزل باب رئيس في أغراض الشعر له رصيد هائل من النتاج الشعري يقتات عليه كافة الشعراء المحدثين مع إضافة لمساتهم العصرية، يقول الشيخ حسن العطار في بعض غزلياته في المذكر الفرنسي - الذي ليس شرطا بالضرورة أن يكون ذكرا، فقد درج الشعر العربي علي مخاطبة المؤنث بضمير المذكر هاربا من رقابة التحريم، وليس شرطا كذلك أن تكون هناك علاقة فعليةبين الشاعر ومن يتغزل فيه :

أقول وصلاً، يقول : نونو أقول هجرا، يقول : سي سي

و«سي» يعني «نعم» بالإيطالية، كما أن «نو» يعني «لا» بالإنجليزية، فهكذا نري الشيخ حسن العطار - من أجل الواقعية والصدق في التعبير - يضع المفردات الأعجمية مع المفرادات العربية دون غضاضة أو حرج، ومن أين يأتيه الحرج إذا كان هو قد كسر كل التقاليد الاجتماعية، لا من أجل شهوة الحياة فحسب، بل رضوخا لجنون الفنان المنطلق.

للشيخ حسن العطار - يقول نفس المصدر - صديق صدوق هو الشاعر المشهور إسماعيل الخشاب - وكان من أدباء وجه البركة -

قامت بينهما علاقة حميمة جداً، يقضيان معا كل وقتهما تقريبا، ويتبادلان مطارحات شعرية، ويتنافسان في حب غلام فرنسي اسمه « ربع » جميل، قال فيه الشيخ العطار

أما فؤادي فعنك ما انتقلا
فَلِمْ تخيرت في الهوي بَدلا
فَاعْجَبْ
يا معرضا عن محبة الدنف
ومغرما بالجمال والصلف
ومن به زاد في الهوي شغفي
أما كفي يا ظلوم ما حصلا
حتي جعلت الصدود والمللا
مَذْهَبْ

فيعارضه الشاعر اسماعيل الخشاب بقوله :

يهتز كالغصن مائلا معتدلا
أطلع بدراً عليه قد سدلا
غَيْهَبْ
يزري بسمر الرماح إن خطرا
ساحر جفن لمهجتي سَحَرا
عَلَّمْ عيني البكاءَ والسَهرا

فكيف أبغي بحبه بدلا

وليس لي عنه جار أو عَدَلا

مَهْرَب

وهكذا نري التجديد في شكل القصيد الشعري الغنائى في مصر في هذا الوقت المبكر، ولعله من تأثيرات الموشحات الأندلسيه التي كانت ذائعة حينذاك في كل الثقافة العربية مكتوبة أو شفاهية.

يقول الجبرتي عن العطار والخشاب : يترنمان بمحاسن الغزلان، وما وقع لهما من صد وهجران، ووصل وإحسان، فكانت تجري بينهما منادمات أرق من زهر الرياض، وأفتك بالعقول من الحدئق المراض، هما حينئذ فريدا وقتهما، ووحيدا عصرهما، لم يعززا في ذلك الوقت بثالث، إذ ليس من يدانيهمافضلا عن مساواتهما في تلك الشئون التي أربت علي المثاني والمثالث، واستمرت صحبتهما، وتزايدت علي طول الايام مودتهما، وبعد أن رجع الشيخ حسن العطار من سياحته مازج المذكور وخالطه ورافقه ولازمه، فكانا كثيرا مايبيتان معا، ويقطعان الليل بأحاديث أرق من نسيم السحر وألطف من اتساق نظم الدرر

ويشهد الشيخ حسن العطار علي بركة الازبكية شهادة معايش من أهلها : فهي مسكن الأمراء، ومواطن الرؤساء قد أحدقت بها البساتين الوارفة الظلال والعديه المثال، فنري الخضرة في خلال تلك القصور المبيضة كثياب سندس خضر علي أثواب من الفضة، يوقد بها كثير من

السرج والشموع فالأنس بها غير مقطوع ولا ممنوع ، وجمالها يدخل علي القلب السرور، ويذهل العقل بحق كأنه من النشوة مخمور، ولطالما بدت لي بالمسرة فيها أيام وليالي هن في سمط الأيام من يتيم اللآلي، وأنا أنظر انطباع صورة البدر في،جناتها، وفيضان لجين نوره علي حافاتها وساحاتها، والنسيم بأذيال مائها القصي لعاب، وقد سل علي حافاتها من تلاعب الامواج كل قرضاب - كل سيف يعني - وقام علي منابر أدواحها في ساحه أفراحها مغردات الطيور، وجاليات السرور، فلذيذ العيش بها موصول، وفيها أقول :

بالأزبكية طابت لي مســـــرات ولذ لي في بديع الأنس أوقات

حيث المياه بها والفلك سابحـة كأنها الزهر تحويها السماوات

مدت عليها الروابي خضر سندسها وغردت في نواحيها حمامات

وللرفاق بها جمع ومفتــــــرق لما عدت وهي للخدمات حانات

ويصف العطار علاقة أهل الازبكية بالفرنسيين بقوله : أهل هذه الجهة للفرنسيين مسالمون، ولكثير منهم مخالطون، لم يقع منهم نزاع ولا شر، ولا كرفي مقاتلتهم ولا فر..

ثم يصف الفرنسيين أنفسهم قائلا : قد أشربوا في قلوبهم حب العلوم الفلسفية، وحرصوا علي اقتناء كتبها، وإعمال الفكرة فيها والروية، يبحثون عمن له بها إلمام، ويتجاذبون معه أطراف الكلام، ثم لما استقررت بالأزبكية، وتخلصت من هذه البلية، ذهبت إلي دار صاحب

تسرني رؤيته، وتنشرح لمخالطتي له رويتي ورويته، قد أحرز قصب السبق في ميدان هذه العلوم، وصار هو المشاراليه من مصرنا بين أرباب هذا المفهوم، فصادفت بالحارة التي فيها مثواه، وبجانب داره التي بها مأواه، فتية منهم برزن كالشموس، وهن يتمايلن تمايل العروس، بوجوه سدل الحسن عليها جلبابه، وقد صير رماح القدود أعلاما حين أرخي عليها ذؤابه، فهن راية تتبعها من العشاق أجناد، وتميل معها حيث مالت مع الهوي في كل واد، فتطلعت عليهن تطلع الهائم إلى الورود ووقعت أنظر إلي حسن تثني هاتيك القدود، ففطن مني إلي مارقته، وعرفن المعني الذي قصدته، فمال الجميع إلي وابتد أن بالتحية علي، وأراني فتي منهم كتابا، وجدد معي كلا ما وخطابا، فإذا عربيته خالصة من اللكنة، وألفاظه معراة من وصمة الهجنة، وأخذ يعرف ببعض كتب للأفاضل الأكابر، وذكر ما تحويه يده من الكتب والدفاتر، وشرع في التعداد والتعريف حتي ذكر تذكره الطوس والشفاء معبراً عنه بالشفاء الشريف، فخالطني من ذلك العجب، ورنحتني إليه نشوة الأدب، وزاد إعجابي به، أني حين قلت له إني ضيف بجاركم ألمّ، أنشدني علي الفور : أمن تذكر جيران بذي سلم، وأخبرني أنه نقلها من العربية إلي لغته وهي من جملة ما استقر بمحفوظته، ثم لما أخذ الحديث مني أخذ، وغلب شيطان المحبة علي، واستحوذ، عولت علي الأنصراف، وقد خالط تعجبي منه الشغاف، سألني في البكور إلي داره لأري ما اجتمع عنده

من كتبه وأسفاره، فذهبت للمكان الذي أعددته للمبيت، وعلمت أني بحسنه دهيت فتحركت مني صبوة تقادم عهدها، وتقوت عندي نشوة أدب كان قد ضعف أودها، وطفقت طول ليلي سهران، وأنا برؤية الصباح كالولهان، وحملني عدم الصبر والثبات علي أنظم فيه هذه الأبيات :

من الفرنسيس ظبى سحر مقلته ... عند المحب له في القلب تأنيسُ
قد لاح في حلل سود فخلت سَنا ... صبح عليه من الأستار حِنْديسُ
روض من الحسن لا تدنو إليه يد ... ومطلب بظبا الالحاظ محروسُ
مهفهف القد قد أرخي ذوائبـه ... كأنه غصن في الروض مغروس
رأى المحبه من عيني فخاطبني ... بدُرِّ لفظ به لطف وتأنيـسُ
تجانس الحسن في مرآه حين غدا ... بين الكلام وبين الثغر تجنيسُ
وصاد عقلي بلفتات فور عجبا ... حتي علي العقل قد تسطو الفرنسيس

ثم لما سطع صارم الصبح - يقول العطار - وتقلص ذيل الليل جنحا بعد جنح أسفرت الأماني عن مرآه، وتبسم وجه الزمان لي بلقاه، فاجتمعت معه في عصر ذلك اليوم وهو مع فتية من هولاء القوم، وكلٌّ يعاني غوامض المعارف ويقتفيها، ويجيل ذهنه في تحصيل دقائق الأدب ويعتنيها. فلما استقر بي الجلوس، أخذن يدرن من المنادمة علي سمعي محيا الكؤوس، وأريتني من الكتب الصغير والكبير، والنكير عندي والشهير، كلها في العلوم الرياضية والأدبية، وأطلعوني علي آلات فلكية وهندسية، وتحادثن معي في مسائل من تلك العلوم، وكتبن عني

بعض هاتيك الفهوم.

وسألتني عن حل بعض أبيات البردة، وهي بأيديهن مكتوبة بالعربي في نسخ عدة. ثم أرينني من أبياتها نتفا، وسألنني عمادق منها واختفي، وأخبرني بعضهم أن ببلادهم ديوان المعلقات السبع، وأن عندهم من دواوين الشعر بلغتهم ما يطرب السمع وكانوا كلما سألوني عن تفسير كلمة لغوية، راجعوها في سفر نفيس ألف في اللغة علي طريقة الجمهرة باللفظ العربي وترجم بالفرنسيي،وكتبت لهم ببعض المجامع بعض أبيات، وفسرت لهم بعض كلمات، فمن ذلك بيتان كنت نظمتهما سابقا، زمن أن كنت في أحاسن الملاح شائقا ، ثم عززّتها بقصيده بها البديهة سمحت، وعلي بعض لغتهم اشتملت، وهي مما اقترحوه علي لإدارة اختبار مالدي، فأخذهم من ذلك الطرب وتعجبوا مني غاية العجب،طفقوا في بث المديح في، والإفراط في الثناء علي وحثوني علي الملازمة عندهم، وأروني أن هذا طلبتهم وقصدهم فسوفت الأجابة، وأضمرت علي عدم الأنابة، علما مني بأن هذا الأمر تفوق علي منه سهام الملام، وترمقني بالعداوة والاحتقار لأجله كافة الأنام، فرجعت لرشدى أقتفيه واستغفرت الله مما كنت فيه.

إنتهي كلام العطار، واضح من شهادته فداحة البون الشاسع بين ثقافتين، واحدة شاخت، وتحجرت، والاخري فتية عفية ناهضة، ففي

الوقت الذي يهتم فيه فتيات الفرنسيس فتيانهم بمحاولة الغوص في أسرار الثقافة العربية العتيقة، وفهم طبائع الشخصية العربية، إذا بواحد من صفوة هذه الثقافة ووجه من وجوه هذه الشخصيه لا يشغله من الامر سوي الغزل في الغلمان قبل الفتيات، ولا يدرك عمق المأساة حتي وهو يكتب ماكتب !! وفي الوقت الذي تتدني فيه اهتمامات رجل كهذا وتتيبّس مشاعره القومية، نري بونابرتِ يصر على أقامة الإحتفال بالمولد النبوي الشريف عندما يحين موعده، فأقيم الإحتفال في منزل السيد خليل البكري بالأزبكية، وأقيمت الزينات والمصابيح والمشاعل وأرسل بونابرت فرقته الموسيقية الخاصة إلي منزل البكري فأحيت الحفل علي أكمل وجه.

ويحكي الجبرتي أن ثورة القاهرة الثانية حينما نشبت عام ١٧٩٩ م،وفي عهد كليبر، تمترس المصريون بقيادة إسماعيل كاشف بجوار جامع الكخيا، وتمترست قوة أخري بقيادة حسن بك الجداوي في جهة الرويعي وكان المصريون الأصلاء جد حاقدين علي السيد خليل البكري لأنه في نظرهم يوالي الفرنسيين ويجاملهم ويتعاون معهم فهجم العامة علي منزله بقيادة جنود من المماليك فنهبوه وجرجروا البكري مع أولاده، ضربوه ضربامبرحاً، جردوه من ثيابه، سلموه إلي عثمان كتخدا في حي الجمالية، وكان الفرنسيون قد وضعوا لغما في بيت أحمد أغاشويكار الذي تمترس فيه اسماعيل كاشف ورجاله بجوار جامع الكخيا، فانفجر،

وطارت الأبنية والناس في الهواء محترقين، وتهدمت جميع القصور والدور المطلة علي بركة الأزبكية، كما احترقت جميع البيوت المتاخمة لجامع الكخيا وقنطرة الدكة، كذلك احترقت جهة الرويعي كلها، كما انهدم جامع الكخيا، وتحول جامع الرويعي إلي خمارة، وجامع أزبك - مقره الآن تمثال ابراهيم باشا - إلي سوق تجارية.

وكانت الجماهير المصرية محقة في قسوتها علي السيد خليل البكري، فإنه حقا كان يستحق ذلك، لقد تعاون بالفعل مع الفرنسيين بشكل علني ملحوظ، فحينما هرب السيد عمر مكرم نقيب الأشراف من الغزو الفرنسي عينوا مكانه السيد خليل البكري نقيبا للأشراف، ومن ساعتها وهو يختلط بالفرنسيين ويمدهم بالطعام وبكل الخدمات التي تتيح لهم أقامة هانئة، يصفه الجبرتي بقوله : وصار له قبول عند الفرنساوية وجعلوه من أعاظم رؤساء الديوان الذي كانوا نظموه لإجراء الأحكام بين المسلمين فكان وافر الحرمة، مسموع الكلمة، مقبول الشفاعة عندهم فان اوامره نافذه عند ولاة أعمالهم، فراج أمره حتي أصبح يمشى في موكب حراسة من المتطوعين، وازداد ثراؤه إذ ضم إلي أملاكه كثيرا من القري والبلاد، واقامة الفرنسيون، وكيلا عنهم في أشياء كثيرة أهمها الخراج، فكان يقوم بتسليم الحكومة ما يخصها دون أن يراجعه أحد، وقد تمكن من تأمين الخائفين، وإدخال الطمأنينة علي جميع الهاربين إذ تولي حماية نسائهم ودورهم أثناء غيابهم، يدفع

المرتبات الشهرية للمحتاجين من الأسر التي اضيرت لسبب أو لآخر.

يصفه الجبرتي بقوله : وبالجملة فقد كان بوجوده وتصدره في تلك الأيام النفع الكبير وسد بعقله ثقوبا واسعه وخروقا، وداوي برأيه جروحا وفتوقا، لا سيما الهيازع، والخصومات والتنازع، وما يكدر طباع الفرنساوية من مخارق الرعية، فيتلاقاه براهم كلماته، ويسكن حدتهم بلاطفاته.

وبقيام ثورة القاهرة سقطت القنابل علي قصره فأحترق عن آخره ثم انهار وتفرق شمله، إلا أن الشيخ المهدي بقي في السلطة بعد جلاء الفرنسيين حتي توفي عام ١٨١٥م فلقي ربه معززا مكرما.

الجنرال يعقوب

لايصح الحديث عن الأزبكية بدون الكلام عن الكنيسة المرقسية، أو كنيسة الازبكية، أو دار البطريركية الارثوذكسية، إنها معروفة لدي المؤرخين المسلمين باسم كنيسة الأزبكية، ويتكلمون عنها وعن رجالها باحترام شديد: فمتي بنيت وكيف أقيمت ؟

يقول محمد سيد كيلاني.٠. حوالي سنة ١٧٩٠م إشتري المعلم إبراهيم الجوهري قطعة أرض بوجه البزكتلبينيهاكنيسة. وحدث أن جاءت الي القاهرة إحدي أميرات البيت العثماني المالك في طريقها الي الحجاز، فقابلها المعلم ابراهيم وقدم لها الهدايا النفيسة والتمس منها أن تساعده في الحصول علي فرمان لانشاء كنيسة الازبكية. وقد حققت أمله، وجاء الفرمان بذلك، ولكن المنية عاجلته قبل أن يشرع في البناء. وقد ترك إبراهيم ثروة طائلة، فقام أخوه جرجس ببناء الكنيسة، واشتري مساحة من الارض بجوارها ووقفها عليها.

وحينما احترقت كنيسة حارة الروم حوالي سنة أربع وتسعين وسبعمائة والف للميلاد وأتي الحريق عليها تماما، وانتقل البطريرك

مرقس الي كنيسة الازبكية هذه وسمت منذ ذلك الحين علي أسم مار مرقس، ثم عرفت بالمرقسية. وعند موت مرقس الثامن عام عشرة وثمانمائة وألف للميلاد تم دفنه فيها، وكان أول من دفن فيها من البابوات. أما أول بطريرك تم انتخابه في كنيسة الازبكية فهو بطرس التاسع، وكان ذلك في نفس العام الذي توفي فيه مرقس الثامن. وبعد موت مرقس الثامن بأربع سنوات تم هدم الكنيسة وإعادة بنائها بشكل أحدث، وشيدت بها المدرسة القبطية. ثم أقيمت الدور الكثيرة فوق الارض الموقوفة علي الكنيسة، فأصبحت الازبكية مسكنا لطائفة كبيرة من القبط أخذت أعدادها تتزايد بكثرة فلما دخل الفرنسيون الي مصر واستقروا في الازبكية سارع أحد القبط ويدعي المعلم يعقوب بالانضمام اليهم، فكون فرقة عسكرية من شباب القبط، وأطلق عليه الفرنسيون لقب الجنرال يعقوب، فالتبسه الدور جيدا، فأنشأ قلعة حصينه في شارع الجامع الأحمر بوجه البركة جمع فيها الأقباط وتولي حمايتهم من هجمات الجيش العثماني. وقد نجحت هذه القلعة في المقاومة الي أن حان وقت جلاء الفرنسيين عن البلاد، فسافر الجنرال يعقوب مع الحملة الفرنسية إلي باريس فبقي فيها حتي مات ودفن هناك.

وقد اختلف المؤرخون المعاصرون في هوية الجنرال يعقوب. البعض منهم يراه خائنا لوطنه، والبعض الآخري فيه وطنياً مثاليا، مثل

الدكتور لويس عوض. ولكن الواقع ينفي عنه تهمة الخيانة الوطنية؛ فمن الواضح أنه - كممثل لأقلية مستضعفه - تصور أنه يمكن أن يستعين بالفرنسيين لوقف خطر التعصب العثماني الأعمي ضد طائفته. فإذا علمنا أن طائفته تري نفسها أصل الشعب المصري أدركنا أنه كان في سلوكه ذلك - من وجهة نظره - بطلا قوميا؛ سيما وأن الإضطهاد كان يأتيهم من الخارج، من محتل علي درجة مهولة من الصلف والغطرسة والتعصب. أما في داخل مصر فكان القبط أصحاب ديار بالفعل، بل كانوا يشغلون أكبر المناصب. فإبراهيم الجوهري مثلا كان رئيس كتاب الأمير إبراهيم بك، يتمتع بمكانة عالية في جهاز الحكم، ونفوذ واسع النطاق يتمتع في ظله كل أبناء طائفته. فلما مات، تبوأ أخوه جرجس نفس المكانه وشغل المنصب وابتني لنفسه عدداً من القصور الفاخرة في وجه البركة؛ وكان مرهوب الجانب نافذ الكلمة في الأمور المالية الخاصة بالدولة من إيرادات ومصروفات وما إلي ذلك. وقد احترمه الولاة وقدروه وقربوه من مجالسهم الخاصة؛ لأنه كان علي درجة عظيمة من الكفاءة والكرم والأريحية واتساع الثقافة والأفق ومثالاً للسماحة؛ ففي شهر رمضان مثلا يقوم بتوزيع كميات هائلة من العسل والسكر والشمع والأرز والياميش والبن والملابس ويعطف علي عامة الشعب المصري، ويعاملهم بلطف شديد، ويتبني قضاياهم وشكاواهم حتي يدفع عنهم المظالم. وكان حرياً بأن يبقي نجما ساطعا في دست

الحكم في مصر طوال عصر محمد علي باشا، لولا أن ظهر له في الأفق عفريت يدعي المعلم غالي، يحسده علي هذه المكانة الرفيعة ويتمناها لنفسه، فاحتال علي محمد علي باشا بحيل جهنمية خبيثة؛ لقد أدرك حاجة محمد علي إلي الأموال الكثيره ليرسي بها دعائم حكمه، فاخترع له طرقا وأساليب شيطانية يبتز بها دم الفلاحين وعامة الشعب. ولم يكن ضمير جرجس افندي ليسمح بشيء له بالموافقة علي شيء من هذا، فاعترض، ونصح الوالي بأن يرفع ثقله الشديد عن كاهل الشعب المسكين، فجمع جرجس افندي كل الوثائق الخاصة بأملاكه في وجه البركة وسلمها الي البطرخانة وفوضها في أمر الإنفاق من ريعها علي أهل بيته؛ ومات في عام ١٨١١م ودفن بمصر القديمة، لتبقي أملاكه في حوزة البطرخانة إلي الأبد.

ومنذ بناء الكنيسة المرقسية في وجه البركة بدأ تاريخ طويل وحافل بأمجاد القبط في هذه المنطقة. نخص بالذكر منها نشاط الأنبا كيرلس الرابع - داوود - الذي رشحه رجال الإكليروس لكرس البطريركية بعد موت الأنبا بطرس السابع سنة ١٨٥٢م، فتم انتخابه، فأقام مدرسة للقبط، ووضع برنامجا للإصلاح، أتي بأمهر المدرسين، وجعل التعليم بالمجان فلايتكلف التلاميذ أي شيء، وكان يقيم لنفسه مكتبا فيها، ويقوم بنفسه بالتفتيش علي الفصول ومراقبة المدرسين. ثم أنشأ مدرسة أخري، وكنيسة أخري بحارة السقايين، وفرض تعليم الموسيقي والغناء

والتراتيل علي المدرستين، وتعليم اللغات : العربية والقبطية والتركية والإيطالية والإنجليزية والفرنسية. البديع حقا أن التعليم لم يكن قاصرا علي أبناء القبط فحسب، بل كانت فصول الدراسة مفتوحة لجميع أبناء جميع الطوائف بغير استثناء، ودون أدني مقابل مادي.وقد حصدت الدولة ثمار هذا التعليم، فحينما أنشئت مصلحة السكك الحديدية في عهد الخديو إسماعيل أسندت إدارتها إلي أحد الأقباط، فذهب إلي مدرسة الأنبا كيرلس واختار أفضل تلاميذها وعينهم في إدارة المصلحة. وكذلك الأمر حينما أنشئت مصلحة البريد. ولقد تعين من خريجيها عدد كبير جدا في ديوان المالية؛ مما جعل الخديو اسماعيل يعترف بفضل هذه المدرسة القبطية في نشر العلم، فإذا هو يترحم علي الأنبا كيرلس الذي مات، ويدعو خلفه الأنبا ديمتريوس لمقابلته. فلما التقاه رحب به ومنح المدرسة ألفا وخمسمائة فدان من أجود الأطيان تنفق من ريعها علي التلاميذ، فضلا عن إعانة سنوية قدرها مائتا جنيه.

والواقع أن جهود الأنبا كيرلس الرابع - يقول نفس المصدر - كانت كبيرة ومتعددة الروافد، فقد أصلح إدارة البطركخانه وأنشأ ديوانا وعين له المستخدمين الأكفاء. وقسم الإدارة إلي قسمين : قسم يختص بالأوقاف والمكاتبات الرسمية؛ وقسم يختص بالأعمال الدينية. كما أنشأ سجلا لحصر جميع الأوقاف؛ وأنشأ مطبعة، ويوم وردت أدواتها من أوروبا استقبلت باحتفال رسمي وشعبي كبير. وفي عام ست وخمسين

وثمانمائة وألف بعثه سعيد باشا في مهمة سياسية إلي الحبشة أمضي فيـها عامين، ويـوم عـودته ازدحمت شوارع الأزبكيـة بمـوكب استقباله الحافل.

ومن خريجي مدرسة الأقباط نبغ شعراء كثيرون، ذلك أن المدرسة كانت تعلمهم الخطابة والكتابة ونظم الشعر العربي. من أولئك الشعراء تادرس وهبي، الذي كتب يشيد بدور الأزهر الشريف وعلمائه :

حتي تلألأت المدارس بهجة　　　بوجوده وغدت له تتشكر
ولكم بأزهرها شموس لطائف　　　أنوارها لألي المعارف تبهر

زواج إسماعيل باشا
وردم بركة الأزبكية

تشبهاً بنابليون أصبح ولاة الحكم العثماني بعد رحيل الفرنسيين يفضلون السكني في حي الأزبكية. فلقد نزل الوالي محمد خسرو باشا في قصر محمد بك الألفي. ولم يكن في هذا فقط مقلدا لنابليون، بل قلده أيضا في العمل العسكري، في المعركة التي دارت بينه وبين الأرنؤود بزعامة طاهر باشا في وجه البركة، حيث قسم عساكره علي هيئة مربعات كطريقة نابليون، فتحقق له النصر، إلا أن الأرنؤود استولوا علي مافي القلعة من سلاح وهجموا عليه في الليل وراحوا يقصفونه بالقنابل والمدافع حتي تهدم القصر واحترق، وفر خسرو باشا بحريمه وأمواله إلي الإسكندرية.

كذلك أقام محمد علي باشا في أول عهده في قصر بالأزبكية، واستولي علي بعض القصور المتهدمة فأعاد بناءها وأسكن فيها عائلته، كما أنشأ فيها بعض الإدارات والمصالح.

وقد شهدت الأزبكية حادثا مروعا في سنة سبع وثمانمائة وألف، عقب أنتصار المصرين علي الإنجليز في معركة رشيد، حيث جاء

المنتصرون يحملون أعدادا هائلة من رءوس قتلاهم، فعلقوها في أعمدة حول بركة الأزبكية، وبقيت أياما طويلة يتوافد الناس لرؤيتها من كل مكان في البلاد.

لكن أهم حادث شهدته الأزبكية في بداية عهد محمد علي هو حادث زواج اسماعيل باشا عام ١٨١٤، حيث آثر محمد علي باشا أن يزوج مع ابنه كاتبه محمد بك الدفتردار، فكان الفرح مهولاً؛ شاركت فيه القاهرة برمتها.

يقول الجبرتي : فكان كل من سولت له نفسه، وحدثه شيطانه باحداث شيء فعله. ويجمع من أهل الحرفة مالاً كثيرا ينفقه علي العربة ومايلزمها من أخشاب وحبال، وحمير أو خيل أو رجال يسحبونها، ومايكتريه أو يستعيره لزينتها من المزركشات والمقصبات وأدوات الصنعة التي يتميز بها عن غيرها فتصير العربة في الشكل كأنها حانوت، والبائع جالس فيها كالحلواني وأمامه الأواني فيها أنواع الحلوي، والسكري وحوله أواني الملبس وأقماع السكر معلقة. والشربتلي، والعطار، والحريري، والعقاد البلدي والرومي، والزيات، والحداد، والنجار، والخياط، والقزاز، والحباك والنشار وهو ينشر الخشب بمنشاره المعلق، والطحان، والفران ومعه الفرن وهو يخبز. والفطاطري والجزار وحوله لحم الغنم. ومثله جزار الجاموس، والكبابجي والنيفاوي، وقلاء السمك، وفيهم حتي المراكبي في سفينة كبيرة كاملة العدة والقلوع

تمشي علي الأرض علي عجل وحول كل عربة أهل حرفتها بالملابس الجميلة الفاخرة والطبول والزمور. هذا الموكب يطوف شوارع القاهرة ليعود إلي مقره في الأزبكية، وهكذا طوال أسبوعين كاملين، حيث أقيمت الزينات ورفعت المصابيح علي الأعمدة، وعملوا بالمصابيح مناظر متعددة، فتري من البعد صورة مركب أو سبعين متقابلين أو شجرة أو محمل علي جمل أو كتابة مثل ماشاء الله ونحو ذلك. وعمت الأزبكية فرحة صاخبة، فشارك في الإحتفال كل ارباب الموالد،راجت المخدرات ونشطت الدعارة، وعاث جنود محمد علي في وجه البركة لهواً وعربدة.

ويصف إدوارد وليم لين احتفالات المولد النبوي التي كانت تقام بالأزبكية بجوار بيت السيد خليل البكري، وصف شاهد عيان، فيقول : حين يبدأ شهر ربيع الأول، تأخذ البلاد في الإستعداد للإحتفال بمولد النبي، ويقام الإحتفال عادة في الجزء الجنوبي من القضاء الواسع المعروف ببركة الأزبكية. وينصب الدراويش صواوينهم التي يقيمون فيها الأذكار كل ليلة. وفي أثناء النهار يتجمع الناس في مكان الإحتفال، يستمتعون بالإستماع للشعراء الذين يروون سيرة أبي زيد الهلالي، ويتفرجون علي الحواة، والبهلونات والمهرجين. وتشاهد في الشوارع المجاورة الأراجيح بأنواعها المختلفة، وعدد لاحصر له من الدكك التي تباع عليها الحلوي والأطعمة المتنوعة. وكان الراقصون علي الحبال من الفجر يعرضون ألعابهم في المولد. وفي الليل تتلألأ أضواء المصابيح

في هذه الشوارع، وتفتح الدكاكين، التي تزخر بالأطعمة والحلوي، أبوابها طوال الليل. وكذلك المقاهي التي يتسلي الناس فيها بالإستماع للشعراء والمحدثين. وبعد منتصف الليل تمر مواكب الدراويش.

وفي سنة ١٨٣٥م - يقول محمد كيلاني - أمر محمد علي بردم بركة الأزبكية استجابة لمشورة الأطباء، وغرس مكانها حديقة واسعة. فلما بدأ عصر الخديوي اسماعيل تغيرت خريطة وجه البركه تماما، حيث أزيلت الحدائق الواسعة لتتحول أماكنها إلي ميادين وشوارع، أو تقام القصور المفخمة علي الطراز الفرنسي الحديث، وشيئا فشيئا أقيمت هذه العمائر بطرازها الفرنسي التي يتكون منهاماكان يعرف بوسط المدينة من باب الحديد إلي شارع فؤاد فشارع ٢٦ يوليو فشارع قصر النيل فشارع محمد علي، وأقيمت دار الأوبرا. أما الحديقة التي أقيمت فوق رديم البركة فقد احتفظ بها إسماعيل لنزهته الخاصة، حيث أحاطها بسور من الحديد مرتفع له أربعة أبواب، وأقام بها تلاً عليه كشك تحيط به الجداول والنافورات. ومن الميادين التي مهدت في عهده : ميدان الأوبرا، ميدان قنطرة الدكة، ميدان الخازندار. وشق شارعاً طويلا يمتد من ميدان باب الحديد وينتهي بميدان الخازندار هو شارع كلوت بك. وفي عصر الخديوتوفيق أبيح للجمهور دخول الحديقة نظير مبلغ معين، حتي أزيلت أسوار الحديقة بعد ثورة يوليو عام ١٩٥٤، وفتح في وسطها شارع علي امتداد شارع ٢٦ يوليو - فؤاد الأول سابقا.

وقد جاء عصر سعيد باشا ليفتح البلاد للأجانب المستفيدين بالإمتيازات الأجنبية، فاستوطنوا في وجه البركة، فتحوا العمارات واللوكاندات والمطاعم والمقاهي وبيوت الدعارة وأندية القمار والمخابز ومحلات البقالة، واشتغلوا بالمحاماة في المحكمة المختلطة التي كان مقرها وسط ميدان العتبه، وبالسمسرة في سوق الأوراق المالية، وكان شارع كلوت بك هو المرتع الرئيسي لكل هذه النشاطات السافلة.

الطريف أن بعض الأدباء الوطنيين ممن يكرهون أسرة محمد علي اتفقوا أن يطلقوا اسم ابراهيم باشا علي الميدان الذي يتوسطه تمثاله راكبا حصانه، فأطلقوا علي الميدان اسم جهة الحصان. وفي روايته الشهيرة [حديث عيسي بن هشام] ينتقد المويلحي وضع التمثال في هذا المكان بقوله : وقد تمثل أمامي في هذه البقعة وهي موسومة بسوء السمعة، بطل مصر. وكيف جازلهم أن يضعوا عنوان البأس والجد في موضع الهزل واللدد. ويقيموا لإبراهيم صنما علي صورته في وسط سوق الفسق وسرته، مشيراً بيمناه إلي مواطن اللهو والفجور، وأماكن الفحش والعهور. ويابؤس قوم جعلوا اليد التي كانت تشير للكماة والفرسان، تشير اليوم في وسط هذا الميدان بمغازلة البغايا ومعاقرة الدنان. فسبحان محول الأحوال ومبدل الأزمان.

ومن مشاهير أدباء وجه البركة الصعاليك في العصر الحديث حسن الآلاتي، الذي كتب يقول : ما رأيت الخلق وخصوصا في جهة الحصان

منعكفين علي استعمال الصغار في أديارهم، وشاع وذاع هذا الفسق، وكثر ذلك في البلد حتي إذا مر الرجل الصالح من جهة الحصان أو نواحيه، يجتمع عليه المخنث والإثنان والعشرة، ويقولون له : ولع سيجارتنا، مثلا، أو أعطنا كبريتًا. فإن أبي ذلك أو أعطاهم ماطلبوه فلايسلم من أذاهم، بل ربما يدعون عليه أنه فعل ببعضهم وتأتي شهود منهم ويشهدون علي الرجل الصالح التقي الديني أنه فعل بالمخنث كذا وكذا مرة. ولهم قوادون يترزلون علي المارين في طريقهم، أي في الشارع من جهة الحصان، ويتعرضون للمارة. فإن كان الرجل ـ أعني من المارة ـ من الذين يستحون ويخافون علي أعراضهم يمدّيده في جيبه ويخرج الكيس ليعطي الخبيث منهم قرشا أو قرشين أو أكثر، يريد أن يدفعهم عن نفسه بذلك القدر، فيمد الخبيث يده هو والذين معه ويخطف الكيس وإن دافع الرجل عن نفسه، ضربوه ونهبوه. وربما حصل ضرب ببعض الأسلحة. والعجب أنهم يأخذون الناس من الطريق ويدعون عليهم عند الحكام أنهم فعلوا بهم ولم يعطوهم الأجرة. وتسمع الخائن منهم يقول : أعطني طرقتي لأنك أفسدت علي سفرتي. إلي غير ذلك مما يطول شرحه.

وللشاعر الكبير حافظ إبراهيم قصيدة عصماء في التعريض بوجه البركة، يخاطب فيها الأزبكية قائلا :

كم وارث غض الشباب رميته بغرام راقصة وحب هلوك
ألبسته الثوبين في حاليهما تيه الغني وذلة المفلوك

وقال :

يقولون في النشء خير لنا وللنشء شر من الأجنبي
أفي الأزبكية مثوي البنين وبين المساجد مثوي الأب ؟

ذلك أن الأزبكية، أو وجه البركة باتت مصيدة لاصطياد الموسرين والمغفلين.

ليس فحسب أعيان المدينة بل جميع أثرياء الفلاحين وعمد القري للإيقاع بهم في حبائل النصب والإحتيال، عن طريق الراقصات والمومسات والمغنيات بل والمخنثين، ناهيك عن وكلاء المحامين الذين انتشروا بكثرة هائلة نظراً الوجود المحكمة المختلطة. المذهل أن جميع الراقصات والغانيات كن يتمتعن بالحماية لأن كل واحدة منهن تعمل في محل يملكه أجنبي، ويباح لها أن تبتز وأن تسلب الأثرياء ثرواتهم حتي النخاع ولاتستطيع الحكومة المصرية وقفها عند حدها لأنها... حماية.

ولعله من المدهش أنه من بؤرة الفساد هذه خرجت الفنون الحديثة علي القاهرة، خاصة فن التمثيل، فقد كانت مطاعمها ومقاهيها تتسابق في جذب الرواد. ففيها قامت الفرق المسرحية وعرفت القاهرة فن المسرح، وفيها قام فن الغناء بجميع مستوياته، وفيها بدأت أم كلثوم حياتها الغنائية في مقهي سانتي عام ١٩٢٢، وفي نفس المقهي غني محمد

عبد الوهاب، والشيخ سلامه حجازي ويوسف المنيلاوي وعبده الحامولي. وفي هذا المقهي - وكان بجانب الباب الشرقي لحديقة الأزبكية - شاهد سكان القاهرة أول شريط سينمائي لأول مرة عام ١٩٠٦، فلما انسحر القوم بهذا الفن حذت كل المقاهي حذو سانتي فأحضرت آلات العرض والأفلام، ثم قامت دور العرض السنيمائي، وانطلقت شرارة هذا الفن ليصبح من أهم الصناعات في مصر.

ثم دالت دولة الأزبكية في عهد الثورة، فلم يبق منها سوي دار الأوبرا والمسرح القومي وسور الأزبكية. وبعد الثورة جاء العصر الهمجي الإنفتاحي فأحرق دار الأوبرا، وأزال سورالأزبكية، وخلخل بنيان المسرح القومي فلم ينفعه ترميم ولاتصليح. ذلك أن الترميم والإصلاح أصبحا مطلوبين للضمائر قبل الأبنية.

فهرســـــــــت

الصفحة

مؤلفات الأستاذ خيري شلبي

التي تنشرها وتوزعها دار ومطابع المستقبل بالفجالة والاسكندرية

روايـــــات :

(١) اللعب خارج الحلبة ..	الهيئة المصرية ١٩٧١
(٢) الأوباش ..	الكتاب الذهبي ١٩٧٨
(٣) السنيورة ..	الهيئة المصرية ١٩٧٨
(٤) رحلات الطرشجي الحلوجي ..	كتاب اليوم ١٩٨٣
(٥) الشطار ..	الهيئة المصرية ١٩٨٥
(٦) الوتد ..	دار فكر ١٩٨٦
(٧) فرعان من الصبار ..	روايات الهلال ١٩٨٦
(٨) العراوي ..	دار المستقبل العربي ١٩٨٦
(٩) أولنا ولد ..	روايات الهلال ١٩٩٠
(١٠) موال البيات والنوم ..	الهيئة المصرية ١٩٩١
(١١) وكالة عطية ..	دار شرقيات ١٩٩١
(١٢) وثانينا الكومي ..	روايات الهلال ١٩٩٣
(١٣) موت عباءة ..	دار ومطابع المستقبل ١٩٩٣
(١٤) لحس العتب ..	الهيئة المصرية ١٩٩٤
(١٥) بطن البقرة	دار ومطابع المسبقبل ١٩٩٥

مجموعات قصصية :

(١٦) صاحب السعاده اللص .. روايات الهلال ١٩٨١

(١٧) المنحني الخطر .. روايات الهلال ١٩٨٣

(١٨) أسباب للكي بالنار .. الهيئة المصرية ١٩٨٨

(١٩) سارق الفرح .. دار فكر ١٩٩١

في النقد والتراجم والرحلات :

(٢٠) فلاح مصري في بلاد الفرنجة .. دار المعارف ١٩٧٨

(٢١) محاكمة طه حسين .. المؤسسة العربية بيروت ١٩٧٢

(٢٢) فتح الأندلس .. الهيئة المصرية ١٩٧٣

(٢٣) عمالقة ظرفاء .. دار المعارف ١٩٨٥

(٢٤) مسرحية صياد اللولي .. الهيئة المصرية ١٩٨٦

(٢٥) أبو حيان التوحيدي ربيع الثقافة العربية .. مؤسسة العروبة ١٩٩٠

(٢٦) لطائف اللطائف .. مؤسسة العروبة ١٩٩٠

(٢٧) الشاعر نجيب سرور .. الهيئة المصرية ١٩٨٩

(٢٨) داريا سكنية .. دار الغد ١٩٨٩

(٢٩) مذكرات اللورد إدوار سيسل .. مكتبة مدبولي ١٩٨٥

(٣٠) في المسرح المصري المعاصر .. دار المعارف ١٩٨١



هذا نوع جديد من الرواية التسجيلية التاريخية الجغرافية ابتدعه الكاتب الكبير خيرى شلبى، إن عبقرية المكان هى البطل الأساس فى هذه الرواية، والكاتب يسميها جغراوية، بمعى أنها تروى تاريخ أمكنة بعينها من مدينة القاهرة العتيقة، تجسد الحياة خلال حقب عديدة من التاريخ مرت على المكان الراحد. فكل شبر من أرض القاهرة تتراكم فوقه أزمنة وحقب تاريخية حافلة بكل مبهر ومثير. وإذا كان المقريزى فى خططه قد سجل تاريخ الأبنية والأماكن، المسا
والمدارس والقلاع والأسوار، الشوارع والحارات والمت
والدروب والأسواق والساحات، فإن هذه الرواية قد بعـ
الجغرافيا والتاريخ معاً. فنحن أمام ثلاثة أحياء من أهم
وأقدمها وأعرقها، تصحو فيها الأزمنة والأحداث والبشر،
قديمها بحديثها فى تيار متدفق يشهد بأصالة هذا الكات
للناس وللحياة وللمكان. إنها رحلة طويلة بديعة ممتعة
من الخيال، عالم القاهرة الفاطمية الأيوبية المملوكية الـ
الجمهورية.